

الطريق

المشروع القومي للترجمة

تأليف : ميغيل ديليبس
ترجمة : بسام ياسين رشيد
مراجعة : سليمان العطار

170

المشروع القومى للترجمة

الطريق

تأليف

ميغيل دليبيس

ترجمة

بسام ياسين رشيد

مراجعة

سليمان العطار



٢٠٠٠

المقدمة

« أبنائي لكل منا فى الواقع طريق محدّد فى الحياة علينا أن نواصله دائماً وألا نحيد عنه ... قد يفقد البعض نصيبهم الذى خصّصه اللّه لهم من السعادة . قد يفقدونه وهم يبحثون ، لطمع فى نفوسهم ، عن طريق أسهل . والسعادة ، في الواقع ، لا تكمن فى الأعلى ولا فى أكبر ولا فى الأرفع ولا فى الأشهر ، بل فى اتفاق خطواتنا مع الطريق الذى حّدده الرب لنا على الطريق ، وإن كان ذلك الطريق سهلاً متواضعاً » .

هذا هو مفهوم « الطريق » الذى جعله الروائى الإسبانى ميغيل دلبيبس (١٩٢٠) عنوانًا لروايته التى ظهرت عام ١٩٥٠ . أما المتكلم هنا فراهب ورع تقى ، وأما المعنيان بالأمر من المخاطبين فهما صبى فى الحادية عشرة ووالده الجبّان الذى قرر من سنين خلت أن يبعث بولده إلى المدينة ليواصل دراسته الثانونية فيها ويصبح من ثمّ ذا شأن ومكانة فى الحياة : « ولا سيكون للولد شأن آخر .. كونى على ثقة من ذلك . إنه لن يقضى حياته مربوطاً إلى هذه الدكّة مثل العبد ... أو قولى مثلى » . ولكن الابن كان يرى فى قرار أبيه خروجاً عن الطريق الذى حدده له الرب : «وفكر دانييل هو يتذكر ذلك أنه انحرف عن طريقه مدفوعاً بطموح أبيه ، وكظلم رعشة فى داخله » . وهكذا فإن المؤلف يطرح ومنذ البداية فكرة التناقض هذه بين ما يريده الأب لابنه وما يحلم به الابن لنفسه ؛ قرارات لا تقبل النقض بازاء أحلام لا تقبل التحقيق :

– « القضية محسومة فلا تفتحى باب الموضوع ثانية »

– « لو كان بيده لاكتفى بزوج من الأبقار ودكان جبن صغير ، ولا كتفى بالبستان (الجنينة) الصغيرة الكائنة خلف بيتهم » وفى هذا تعريج على إحدى سمات أدب ميغيل دليبيس الواقعى الاجتماعى والمتمثلة بانتقاده لظواهر المجتمع السلبية .

لقد وصفت رواية « الطريق » بأنها من أدب الطفولة لأن مؤلفها اعتمد مجموعة من الصبيان محوراً لأحداث روايته وواجهة لعرض أفكارهم وعوالمهم المرحة الساذجة :

– « ما أجملها دانييل ، أليس كذلك ؟ إنها بقرة حلوب – قالت له أمه .

– لا أماه ... إنها ليست حلوباً ... انظرى ... إنها لا تحمل جراراً

وضحكت الأم من سذاجة ولدها وضمته إلى صدرها قائلة :

– البقرة الحلوب لا تحمل جراراً يا ولدى » .

« ولمع فى عينى (الأقرع) بريق ذكاء غريب :

– فليس اللقلق إذا من يأتى بالأطفال ! لقد كان يبدو لى ذلك غريباً ، حتى انني كنت أقول لنفسى : لماذا يزور اللقلق أمى عشر مرات وهى لا ترغب فى كثرة الأولاد بينما لا يزور جارتنا ولا مرة وهى التى تتمنى أن يكون لها ولد ؟ ! »

ولكن يحدث أن يذهب المؤلف بعيداً فى تقدير درجة نضوج أبطال روايته من الفتية الصغار فيضع على ألسنتهم ما لا يصدر عادة إلا عن إنسان كبير فى عمره ناضج فى فكره :

- « ولطالما وقف دانييل يتأمل دروب بلدته المتعرجة وساحتها المليئة بالبعر والحصى وأبنيتها الكئيبة التى صُمّمت بحس خدمى محض . ولكنه ما كان يستاء من ذلك . فالشوارع والساحات والأبنية لا تصنع البلدة ولا ترسم معالمها بل هو رجالها وتاريخها » .

كان الصبى دانييل يعشق بلدته ويعشق الوادى الذى يضمها ويعشق كل ما فيها وما فيه : « إنه غير معنى بالتقدم ، والتقدم عنده لا يساوى قرشاً . تهّمه ، فى المقابل ، القاطرات التى يتأملها ضئيلة من بعيد ، والبيوت البيض والحقول ومزارع الذرة المجزأة و(بركة الإنكليزى) وتيارات النهر الصاخبة المجنونة وملعب الصولجان ودقات أجراس النواقيس وقط (الفلفة) ورائحة قوالب الجبن الملوثة الحامضة وقطع الروث تصاغ بعناية ووقار وفن . وتهمّهُ الزوايا الكئيبة الموحشة التى يرقد فيها وإلى الأبد صديقه جيرمان (الأقرع) ونقيق الضفادع الرتيب من تحت الأحجار فى الليالى الرطبة ، ونمش وجه أوكا-أوكا وحركات أمه البطيئة وهى تقوم بأعمال البيت ، وخضوع أسماك النهر الصغيرة واستسلامها واثقة مطمئنة ، وغيرها وغيرها من الأشياء » .

ولذلك نراه ، وقد اقترب موعد رحيله عن البلدة ودنت ساعة الفراق ، يستعرض كلّ ما أسعفته به ذاكرته الغضّة الفتية من صور ومواقف عاشها مع صديقيه الحميمين روكى (البعرور) وجيرمان (الأقرع) وكل ما جرى له ولهما من أحداث ومفارقات مع بقية شخوص الرواية . إن « الطريق» رواية استرجاعية من الطراز الأول .

ولما كان ميغيل دليبيس صاحب نزعة واقعية اجتماعية ومعنياً بوصف عالم الناس البسطاء ولا سيما في القرى وفي مدن الأطراف والمحافظات فقد عمد إلى حشد نماذج كثيرة ومتنوعة من الشخوص ذوي السلوك المتناقض والعادات البلدية والأفكار الغريبة سلباً وإيجاباً ، ثم راح يروي الحوادث تباعاً وينثر الآراء والأفكار على ألسنة ذلك الحشد جاعلاً من الرواية مجموعة من القصص والحكايات المنفصلة في أحداثها ، المتصلة في شخوصها وفي مكان وقوعها وزمانه .

أما أبطال الرواية فهم ثلاثة أولاد : دانييل (البوم) الذي يمتاز بذكائه ودقة ملاحظاته ورومانسيته وروكي (البعرور) الذي يمتاز بقوته وولعه بالمجازفة واستعراض مهاراته البدنية وجيرمان (الأقرع) الخبير بالطيور والعارف بأنواعها وطباعها . وغير هؤلاء الفتية ، العديد من الرجال والنساء :

حدّاد قوي الجسم مفتول العضلات لا يحلم لولده بدراسة ولا بتقدم وراهب ورع تقي يراه الناس قديساً عظيماً ولكنهم يلجأون اليه في ضرّائهم دون سرّائهم .

وملحد غير مؤمن يعلن على رؤوس الأشهاد أن لا جدوى من الورع والتقي وأنه لن يطأ عتبة الكنيسة مستقبلاً .

وإسكافي مغرم بإنجاب الأولاد والمزاوجة بين الطيور والتطلع ملياً إلى سيقان النسوة المارات من أمام ورشته .

و(أقطع) يغرم بمسلولة فيتزوجها بعد أن يصد عن ثانية تقدم على الانتحار غيرة عليه واحتجاجاً على زواجه .

ومعلم لا يكف عن معاقبة طلابه ولا يفتأ يتحدث عن عصامية لم تورثه إلا الفقر والجوع . وشقيقتان عانستان ترفع كبراهن علم الفضيلة وتحشر أنفها في كل صغيرة وكبيرة وتضرب الثانية بالفضيلة عرض الحائط وتفرّ مع من سلبها لبّها وعفافها ثم نقودها قبل أن يتركها ذليلة خائبة .

ومهاجر يغادر بلدته الصغيرة إلى المكسيك وهو نصف مغفل ليعود إليها بعد عشرين عاماً وقد صار من ذوى الجاه والثروة .

وغير هؤلاء وأولئك الكثير .

بل إن المؤلف يشرك الطبيعة نفسها في بطولة روايته ويجعل منها عنصراً حاضراً على الدوام . فمن جبل لا يكف صبيّنا عن التطلع إليه ، ومن بركة يتردد عليها للسباحة فيها مع صاحبيه أيام الصيف ، ومن نهر صاخب بمائه جارف بتياراته ، ومن وادٍ هو كل شيء في حياته .

أما خبرة ميغيل دليبيس الذاتية في الطيور فيودعها في شخص جيرمان (الأقرع) . وأما تجربته الشخصية في الصيد فينقلها إلينا من خلال ولع الجبّان بهذه الممارسة .

لقد حظيت « الطريق » وهي الثالثة في أعمال ميغيل دليبيس الروائية ، بقبول النقاد وحسن ثنائهم ، وعدوها بداية مرحلة في مسيرته التي بدأها قبل ذلك بروايتين هما : «ظلال شجرة السرو وارفة (١٩٤٦) » و « مازال الوقت نهاراً (١٩٤٧) » . وتتمثل جدّتها في الجو المرح البريء الذي يشيعه المؤلف في أحداثها وأبطالها وصولاً في بعض الأحيان إلى

رسم صور كاريكاتورية لبعضهم : « كان دون مويسيس رجلاً طويلاً هزيل الجسم متوتر الأعصاب . كان هيكلاً من العظام المكسوة بالجلد ، وقد اعتاد فتل فمه فكأنه يحاول عض شحمة اذنه . وكانت حالة الإنبساط تزيد من استدارة فمه ليصل فى انفراجه حتى سالفتيه » ؛ وفى اعتماده أسلوباً سلساً لا يعكره إغراق فى الوصف ولا مبالغة فى استخدام الصفات ، وفى خروجه من مبدأ العقدة الواحدة فى الرواية واعتماده أسلوب القصص المختلفة بأحداثها المتنوعة بعقدها .

وهكذا عّدت رواية « الطريق » البداية الحقيقية لأدب ميغيل دليبيس الروائى ، وصنّفت ضمن قائمة أفضل الروايات الإسبانية المعاصرة وترجمت إلى الفرنسية والألمانية والإنجليزية والبرتغالية وصدرت فى الولايات المتحدة الأمريكية طبعة خصصت لطلبة المدارس كما جرت محاولة لنقل الرواية إلى السينما . أما ميغيل دليبيس فقد تكرس بعد صدور هذه الرواية واحدًا من أبرز روائيى إسبانيا المعاصرين وواحداً من أفضل ثلاثة مثلوا الأدب الروائى الإسبانى فى فترة ما بعد الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦ - ١٩٣٩) جنباً إلى جنب مع لافوريت وكاميلو خوسيه ثيلا .

ويعد فهذه رواية « الطريق » نقدمها إلى القارىء العربى لتكون اسهاماً بسيطاً يقرّبه من عالم واسع وغريب يعطيه أدب عريض وعريق هو جزء من أدب الإنسانية وحضارتها وثقافتها . فعسى أن تنال الرواية والترجمة رضاه .

المترجم

الطريق

كان يمكن للأمور أن تجرى على نحو مختلف ، ولكنها جرت على هذا النحو . لم يكن دانييل (البوم) ، من أعماق سنيه الاحدى عشرة ، راضياً عن سير الأمور هكذا ، وأن تقبلها حقيقة مقدرة . فإذا كان طموح ابيه فى جعله أكثر من مجرّد جبّان يبعث الاعتزاز فى نفس الأب ، فماذا عنه هو ؟ أبوه يسمى ذلك « تقدماً » ، ولكن دانييل (البوم) لم يكن مقتنعاً بذلك تماماً . فربما يعنى إكمال الثانوية فى المدينة تقدماً على المدى البعيد . خذ مثلاً على ذلك رامون ابن الصيدلى : إنه يدرس المحاماه فى المدينة ويأتى فى العطلة مختالا كالطاووس متعالياً على الناس ، حتى أنه يسمح لنفسه عند انصرافه من قدّاس الآحاد والأعياد بتصحيح الكلمات التى كان دون خوسيه ، وهو القديس العظيم ، تفوّه بها من على المنبر . فإذا كان هذا تقدماً فلاريب أن إكمال الثانوية فى المدينة هو أساسه . ولكن شكوكاً كثيرة تملأ رأس دانييل (البوم) إنه يجد نفسه ملمّاً بكل ما فى مقدور الإنسان الإلمام به : يحتفظ عن ظهر قلب ويكتب ما هو مفهوم ويتقن العمليات الأربع ويحسن تطبيقها . فهل فى وسع العقل الطبيعى أن يلمّ بما هو أكثر من ذلك ؟ يقال ، فى المقابل ، أن دراسة الثانوية فى المدينة تستغرق سبع سنوات تتبعها سبع أخرى ، فى الأقل ، للدراسة الجامعية ، فهل يوجد فى الدنيا ما تحتاج معرفته إلى أربعة عشر عاماً من الجهد ، أى ما يزيد على عمره بثلاثة أعوام ؟ « لابّد أن الحياة فى المدينة تعنى إضاعة الكثير من الوقت ، ثم يأتيك ، وبعد أربعة عشر عاماً من الدراسة ، من لا يحسن التمييز بين طائر ابى زريق والحسّون أوبين البعر

والروث . فما أغرب الحيـاة وما أشد عبثها وتعسفـها . إنها عمل وكدّ فى مالا نفع فيه أو ما هو قليل الجدوى » .

وتقلّب دانييل (البوم) على فراشة فصدر عن نوابض السرير الحديدى صرير مـزعج . انها ، فيـما يذكر . المرة الأولى الـتى لا يغط فيهـا نائما بمجرد الاستلقاء على الفراش . ففكره الليلة مـشغول بأمور كثيرة ، وقد لا يكون الغد مناسـباً للتفكيـر فيها اذ سـيستقل عند التـاسعة صبـاحاً القطار السريع الصـاعد ولن يعود إلى بلدته حـتى أعياد الميلاد : ثلاثة أشـهر من الحجر المدرسى . وبدا لدانييل (البوم) أن صدره يضيق ، فاستنشق الهواء بقوة مرتين أو ثلاثا . واستـحضر مشهد السفـر ، وقدّر أنه لن يستطيع فى غده حبس دموعه وإن قـال له صديقه روكى (البعرور) إن الرجل الحق هو من لا يبكى ولو مات ابوه .

وليس (البعرور) بالشـخص الاعتيادى ، وأن كبـره بعامين دون أن يبدأ الثانوية ، ولـن يبدأها مادام باكو الحداد لا يحلم بالـتقدّم لولده ، بل يكفيه أن يصـبح حداداً مثله وأن يمتلك من المهارة مـا يلزمه ليكيف الحديد على هواه فيا لهـا مـن صنعة لا يحتاج من يريد ممارستـها أن يدرس أربعة عشر عاماً ولا ثلاثة عشر ولا اثنى عشر ولا عشرة أعوام ولا تسعة ولا عاماً واحداً ، صنعة تجعله رجـلاً قوياً مفتول العضلات كـما هو حال باكو والد (البعرور)

لم يكن دانيـيل (البـوم) يملّ التطلع إلى باكـو الحـداد وهو يتصـّرف بالحـديد فى الكور . كـانت تستهـويه تلكما الذراعـان الغليظتان كـجذعى الشجرة ، المكسوتان بالشعّر الأحمـر الكثيف والمليئتان بالعضلات والأوردة

« لا شكّ أنه قادر على رفع أريكة حجرته بواحدة من ذراعيه الجبارتين دون أن ينال منه التعب » . وصدره ؟ ماذا عن صدره ؟ . فلطالما اشتغل الحدّاد وهو يرتدى قميصه الداخلى ، فبدا صدره الهرقلى فى صعوده وهبوطه مثل صدر فيل جريح . « هذه هى الرجولة الحقّة ، رجولة الحدّاد لا رجولة رامون ابن الصيدلى ، المتأنق المشدود الشاحب الذى يبدو مثل بنت ناعمة متغطرسة » . فاذا كان التقدم يعنى هذا فإنه زاهد فى التقدم . ولو كان الأمر بيده لاكتفى بزوج من الأبقار ودكان جبن صغير ولا كتفى بالبستان الصغيرة الكائنة خلف بيتهم . إنه لا يطمع فى أكثرمن ذلك : يصنع الجبن كأبيه طيلة أيام الأسبوع ويتسلى أيام الأحد بالقنص بالبندقية أو بصيد السمك فى النهر أو بلعب الصولجان .

كانت فكرة السفر تثير الغم فى نفس دانييل (البوم) . وينفذ ضوء الطابق السفلى من خلال شقوق الأرضية وتسقط حزمة منه على السقف فتتسمر فوقه . ستنقضى ثلاثة أشهر دون أن يشاهد ذلك الخيط الفسفورى ودون أن يسمع حركات أمه الهادئة وهى تقوم بأعمال البيت ، أو همهمات أبيه المتجهّم على الدوام خشنة جافة . ثلاثة أشهر من دون أن يستنشق ذلك الهواء الذى يدخل الآن عبر النافذة المفتوحة مثقلاً برائحة العشب الحصيد والروث المجفّف . ياالهى ، ما أطوله من وقت ! .

ربما كان بمقدوره التمرّد على فكرة السفر ، ولكن ما عاد ذلك ممكناً الآن . لقد اجهشت أمه بالبكاء ، قبل ساعات من هذا وهى تعدّ معه قائمة ملابسه :

- انظر يا صغيرى . هذه شراشفك . لقد طرزت عليها الحروف الأولى من اسمك . وهذه قمصانك الداخلية ، وهذه سراويلك وجواربك

كلّها تحمل الحرف الأول من اسمك كيلا تضيع ، فعددكم في المدرسة سيكون كبيراً .

ولاحظ دانييل (البوم) نبرة غير مألوفة في صوتها بدت مثل جسم غريب ، ثم إنها مسحت طرف أنفها الأخنس بظاهر يدها وابتلعت ريقها . فقال في نفسه : « لابّد أن الظرف خاص جداً . فأمي تسمح لنفسها بما تمنعني منه في أوقات أخرى » ، وأحس برغبة شديدة وصادقة في البكاء .

وواصلت أمّه كلامها :

– اعتن بنفسك وبملابسك يا ولدى . فأنت تعلم كم كلّف أباك كل هذا . اننا فقراء . ولكّن أباك يريد أن يكون لك شأن في الحياة . إنّه لا يريد أن تشقى وتتعب مثله .

وأردفت وهي تنظر إليه حالمة :

– إن بإمكانك أن تصبح ذا شأن ، ذا شأن كبير في الحياة يا صغيرى أنا وأبوك لم نرد أن يبدر من ناحيتنا أي تقصير .

عاودت ابتلاع ريقها وسكتت . وردد (البوم) مع نفسه : « ذو شأن كبير في الحياة » . وهزّ رأسة . إنه لا يدري كيف يمكن للإنسان أن يصبح ذا شأن كبير في الحياة . إنه يحاول جاهداً إدراك ذلك . ذو الشأن الكبير عنده رجل مثل باكو الحدّاد بصدره الواسع وبعارضيه المرتفعين وشعره الكث الأحمر وبمظهره القاسي المتجهّم الذي يذكّر بوجه اله قديم . وذو الشأن الكبير عنده أبوه الذي جندل من ثلاث سنين مضت حدأة عظيمة تبلغ المترين باعاً . لكنّ أمّه لا تقصد هذا النوع من العظمة ،

إنهـا تفكر فى تلك التى يتصف بهـا دون موريســيس المعلم أو دون رامون الصيدلى الـذى نصّب عمدة للبلدة من أشهــر . إن والديه يتطلعان أن يبلغ عظمة من هذا القبيل ، لكنه ما كان راغباً فى هذه الأنواع من العظمة ، بل لم يكن معنياً بعظمة ولا راغباً فى تقدّم .

وتقلّب فى الفراش وانكفأ على وجهه محــاولاً التخفيف من إحساسه بالقلق الذى بدأ يكوى جوفــه ، فهكذا يشعر براحة أكــبر ، وهكذا يتحكم بعض الشىء بقلقه . ولكن ما الفرق بين الانكفــاء على الوجه أو الاستلقاء على الظهر مادام سيــركب فى غده قطار التاسعة الســريع المتّجه إلى المدينة ويودّع حيثها كلّ شىء . لو أنه . . . ولكّن الوقت قد فات . فمنذ سنوات وهذا المشروع يداعب فكر أبيه ، فليس فى مقدوره أذاً أن يغــامر بتدمير كل شىء فى خبطة رأس عابرة . إن أباه يريد أن يحقّق فيــه كل مالم يقدر هو على تحقيقه . إنها مسألة هوى ليس غير ، وللكبار فى أهوائهم أحيانا عناد وغرابة تفوقان مــا لدى الصغار منهما . والغريب أن فكرة تغيــير نمط الحياة التى تعذّب دانييل الآن كانت من أشهــر مضت تروق له . فمنذ ستة أعوام تقريباً وهو يعلم بمخطط أبيه بشأن مســتقبله . فلطالما تنصت على والديه ، وهمـا يتحادثان فى الطابق السفلى أثناء الليل بعد إيوائه إلى الفراش ، رغم أن السقف دون خوســيه ، وهو قديس عظيم ، يردد دائـما أن التنصت على أحاديث الآخرين خطيــئة . فمن بين شقــوق الأرضية الخشبيــة كان يمكنه مشاهـــدة المواقد وطاولة الصنوبر والمقاعــد وطاولة صنع الجبن وكل معــدات المعمل ولوازمه . كان دانييل (البوم) يتنصت وهو مستلق على الأرض فى مكمنه ذاك . كانت تلك عادة فيه . ومع همس الحديث كانت تتصاعد من

الطابق السفلى رائحة اللبن الحامضة وقوالب القش المتسخة . كانت تعجبه رائحة اللبن المختمر الحادة والآدمية تقريباً .

كان أبوه ليلتها متكئاً على طاولة صنع الجبن بينما راحت أمه ترفع فضلة العشاء . مضت ستة أعوام تقريباً منذ أن رأى دانييل (البوم) ذلك المشهد ، مع ذلك فقد ظل ارتباطه بحياته قوياً حتى أنه ليتذكره الآن بكل تفاصيله .

– لا . سيكون للولد شأن آخر . كونى على ثقة من ذلك . إنه لن يقضى حياته مربوطاً إلى هذه الدكة مثل العبد ، أو قولى مثلى .

وتفوّه بكلمة نابية وضرب بقبضة متشنجّة على الطاولة . لقد بدا وكأنه ساخط على أحد ، وأن يفلح دانييل (البوم) فى معرفة من يكون ذلك الاحد . لم يكن دانييل حينها يدرك أن الرجال قد يسخطون على الدنيا وعلى نظام للأشياء يعتبرونه مهيناً وجائراً . كان يعجبه أن يرى أباه مغتاظاً لأن عينيه تقدحان ساعة الغضب شرراً ولأن عضلات وجهه تتقلص فينعقد عندها شبه بينه وبين باكو الحدّاد .

– ولكن ليس فى مقدورنا مفارقته ، إنّه ولدنا الوحيد . لو كانت لدينا بنت على الأقل ، ولكّن بطنى ، كما تعلم ، يبس وماعدنا قادرين على إنجاب البنت ، وقد قال دون ريكاردو آخر مرة إننى صرت عاقراً بعد الإجهاض .

وأطلق الأب شتيمة أخرى ثم أضاف دون أن يبدّل جلسته :

– اتركى الكلام فى هذا الموضوع ، فما عاد من فائدة . ولا تنقّرى فى أمور منتهية .

وتأوهت الأم وهى تجمع فى علبة صدئة فتات الخبز من على الطاولة ثم أضافت :

– ربما لا يصلح الولد للدراسة . إن من السابق لأوانه الحديث عن كل هذا . كما أن إقامته فى المدينة تكلف الكثير . ونحن لا نقدر على ما يقدر عليه الصيدلى رامون أو السيد القاضى لأننا لا مال لدينا .

وراح الأب يحرّك قالب جبن بين يديه بعصبية . وأدرك دانييل (البوم) أن أباه يجاهد نفسه كى لا يزيد فى آلام زوجته . وأضاف بعد برهة :

– دعى تدبير هذا الأمر لى . إما أن يصلح الولد للدراسة أو لا يصلح فذلك يعتمد على ماعنده من مال . أظن كلامى مفهوماً . ونهض الأب وراح يبعثر بالعصا الجمرات التى كانت ماتزال متوهجة فى الموقد . أمّا الأم فقد جلست مسبلة يديها الخشنتين على حجرها منهكة خائرة خاوية وبلا حول .

وعاود الأب توجيه كلامه إليها :

– القضية محسومة فلا تفتحى باب الموضوع ثانية . سيذهب الولد إلى المدينة عندما يبلغ الحادية عشرة ليبدأ دراسته الثانوية . ولم تردّ الأم بشىء بل تنهّدت مستسلمة . أما دانييل (البوم) فقد رقد وهو يتساءل عن معنى قول أمه إن بطنها قد يبس وإنها صارت عاقراً بعد الإجهاض .

الفصل الثانى

ولكن دانييل (البوم) يعرف الآن معنى أن يكون البطن يابسا ويعرف المقصود بالإجهاض . وفكّر فى روكى (البعرور) الذى لولاه لبقى ، على عمره ، جاهلاً بمعنى البطن اليابس والإجهاض . فروكى (البعرور) يعرف الشىء الكثير عن « هذا » . ولطالما نصحته أمه بالابتعاد عن روكى لأن (البعرور) نشأ محروماً من أمه ولأنه يعرف الكثير من البذاءات . ولطالما رددت (الفلفلات) أنّه لكثرة مصاحبته (البعرور) صار مثله صعلوكا قليل الأدب .

أمّا دانييل (البوم) فكان ينبرى دائمًا للدفاع عن صاحبه ، ولكّن أهل البلدة ما كانوا يفهمونه أو ما كانوا يريدون أن يفهموه . فأن يعرف روكى الكثير عن « هذا » لا يعنى أنه قليل الادب ، وأن يكون قوى الجسم كالثور أو كأبيه الحدّاد لا يعنى أنه شرير ، وأن يحتفظ أبوه الحدّاد بقربة النبيذ إلى جوار الكور يعبّ منها بين الحين والحين لا يعنى أنهّ سكير مدمن ، كما لا يصحّ الجزم بأن روكى (البعرور) صعلوك كأبيه لمجّرد العلم بأن « العصا من العصية » . دانييل (البوم) يعلم جيداً أنها سلسلة من الأكاذيب وحسب ، لأنه يعرف روكى وأباه حق المعرفة . أما موت امرأة پاكو الحدّاد ساعة وضعها (البعرور) فلا ذنب لأحد فيه ، كما لا ذنب لأحد فى ألاّ تحسن أخته سارة تربيته وهى التى فيها من الفظاظة والصرامة ما يخرج بها من خانة بنات حوّاء . كانت سارة فتاة حمراء الشعر شعثاءه ، جسيمة قوية كأبيها وأخيها ، وقد تولت مسؤولية البيت منذ موت أمها ، وكان دانييل (البوم) يتصور أحياناً أن أم روكى (البعرور) لم تمت إلاّ لأن شعرها

لـم يكـن أحمـر ، فقـد يكون الشعر الأحمـر بالفعل سبباً فى إطالة العمر أو على الأقل ضرباً من التـعاويذ التى تقى الانسان وتحفظه . ومـهما يكن من شيء فـقد مـاتت أم (البـعـرور) ساعـة ولادته ، ومنذ ذلك الحـين تعاملت مـعه أختـه التى تكبره بثـلاثة عشر عـاماً وكأنـه قاتل لا يرجى له صلاح . إنها فتاة ضيّـقة الصدر وذات طبـع حـاد نـزق ، وقـد رآها دانييل (البوم) أول ما رآها وهى تنزل السلّم راكـضة فى إثر أخيها شعـثاء تبعث على الرعب وتصرخ كالمجنونة :

- حيوان وأكثر من حيوان ، بل إنّك حيوان من قبل أن تولد .

بعد ذلك سمـعها تردد هذه المقطوعة مـئات بل آلاف المرات ، ولكن روكى (البعـرور) ما كان يأبه لـذلك . ولا شك أن أشد ما جـعل سارة حادة الطبع صعـبة الأخلاق هو فشلها الذريع فى أسلـوبها التربوى . لقـد تمـرّد (البـعـرور) منذ صغـره على (البـعـبع) و (صـاحب الجـراب) والغول ، وكان له فى قوته البـدنية ما ألهمه تلك الاستهـانة التامة بكل ما ليس هو من صنف الرجال الحقيقيـين ، بعظامهم وعضلاتهم ودمهم الذى يجـرى فى عروقـهم . وعندما كانت سارة تهدد أخـاها قائلة : « روكى ، لا تفعل هذا وإلاّ جـاءك البعبع » ، كان (البـعرور) يبتسم بخـبث وكأنّه يقول متـحدّياً : « وأنا بانتظاره ، فليأت » . لم يكن عمـره يتجاوز آنذاك الثلاث سنين وما كـان بعد قادراً على الكلام . فتستشـيط سارة غيظاً وهى ترى تهديدها يقابل بلامبالاة الصغير واستهزائه .

وصـار (البعرور) يكبر شـيئا فشيئا ، وراحـت أخته تلجأ إلى طرق أخرى ، فاعتادت ، إن هو ارتكب حماقة ، أن تحبسه فى المتبن لترتّل عليه من خارجه وبصوت متأن كئيب صلاة المحتضر .

ومازال دانييل (الـبوم) يذكر احدى زياراته الأولى لبـيت صديقه . كان الباب نصف مفتوح والدار تبدو خـالية فما كان يشاهد فى داخلها من أحد ولا يسمع فيها صوت . كان السلّم المؤدى إلى الطابق العلوى ينتصب أمامه يغريه بالصـعود ، ولكنه اكتفى بالنظر إليه والإمسـاك بمحجره . كان وقتهـا قد سمع بسارة ، ثـم إن السكون الغريب كان يبعث فى قلبـه رهبة غامـضة . وبينما هو مـشغول بالامـساك بسحلـية كانت تحـاول النفاذ بين بلاطات مدخل الدار طرقت سمـعه رشقة من الشتائم الغاضـبة انبعثت من فـوق متـبوعـة بصفـقة باب مدوّية وهنـا قرّر أن ينادى وهو متـهيّب بعض الشىء :

- بعرور . . . . . يا بعرور .

فانهال عليه سيل من عبارات التوبيخ أحّس معها بالانكماش :

- من يكون هـذا الوقح الذى ينادى ؟ لـيس بيننا من يـتـســمّى بـ (البعرور) كلنا فى هذا البيت لنا أسماء قدّيسين . هيّا انصرف من هنا .

ولم يدرك دانييل (البوم) لماذا بقى وقتها ورغم كل شىء مسمّراً على الأرض كالصنم . لقـد بدا جامدا أخـرس مقطوع النفس . وسمع حـينها صوت سارة يأتى من فوق فأصغى إليه . كانت عـباراتها الفخمة تنهمر من خلال السلّم مثل مطر قاتم كثيب :

- عندمـا تخبّـرنى قدمـاى ، وهى بلا حـراك ، بأن طريقى فى هذا العالم موشك على نهايته .

ويـأتى صـوت (البعرور) من بعد قاتماً حفّـياً وكأنه ينعبث من غيابة بئر :

- رحماك يا يسوع .

- عندما تسمّر عيناى المزججّتان الجاحظتان نظراتهما الواهنة المحتضرة فيك فرقاً من الموت الوشيك . . .

- رحماك يا يسوع .

ويسيطر على دانييل (البوم) رعب غامض يصيبه بقشعريرة . أما تلك الترتيلة الكئيبة فكانت تدغدغه فى نخاع عظمه . لكنه مع ذلك لم يتحرك من مكانه بسبب فضول مبهم غريب كان يلح عليه . ويعود صوت سارة رتيباً :

- عندما أفقد حواسى ويختفى العالم من ناظرى وأئن تحت وطأة النزع الأخير ومغالبة الموت .

ويعود صوت (البعرور) واهناً مبهماً هادئاً وهو ينبعث من المتبن :

- رحماك يا يسوع .

ولما انتهت سارة من عقابها الشفوى بدا نفاد صبر على روكى :

- هل انتهيت ؟

- نعم .

- افتحى اذاً .

ولكن السؤال اللاحق كان ينم عن غيظ لم تحسن سارة كظمه :

- هل اتعظت ؟

- كلا .

- لن أفتح إذاً .

- افتحى وإلا كسرت الباب ، فقد انتهت العقوبة .

وفتحت له سارة مرغمة . أما (البعرور) فقال وهو يمرّ من أمامها :

- لم تخيفينى اليوم كبقية الأيام .

وفقدت الأخت أعصابها فقالت وهى تستشيط غضبا :

- اخرس أيها الخنزير . يوما ما سأقطع لسانك ، يوماً ما . . يوماً ما . . لا أدرى ماذا سأفعل بك يوماً ما .

- لا ، سارة ، لا تقربى ناحيتى ، فلم يخلق بعد من يمسّنى بأذى . إنّى احذّرك .

وتوقع دانييل (البوم) سماع دوى صفعة ، ولكن يبدو أن سارة فكّرت فى الأمر جيداً فلم يحدث ما توقعه . وسمع دانييل وقع خطوات صاحبه وهو ينزل بشقة على درجات السلّم . فخرج من الباب المردود تدفعه غريزة الكتمان والعفة لينتظره فى الشارع . ولمّا صار (البعرور) إلى جانبه قال له :

- هل سمعت ما قالته سارة ؟

ولم يجرؤ دانييل (البوم) على الكذب فقال :

- نعم سمعتها .

- أرأيت كم هى ثرثارة ملعونة ؟

- الحق أنها أخافتنى - أجابه (البوم) مضطرباً .

- لا عليك يا صاحبى ، فكل ما قالته عن العيون الجامدة والأقدام

التى لا تتحّـرك إنما هو محض هراء . فأبى يقـول انّك عندما تسلّم الروح فلن تشعر بشىء .

وحّرك (البوم) رأسه متشكّكاً :

- وكيف يعرف أبوك ذلك ؟

لم يكن روكى (البعـرور) فكّر فى ذلك من قبل ، فـتردّد لحظة ثم قال :

- ومـا أدرانـى أنـا فلعل أمى قالت له ذلك وهى تموت . أنا لا أذكر ذلك .

ومنذ ذلك اليوم صار (البعرور) محط إعجاب دانييل (البوم) .

لم يكن (البعرور) ذكيا ، ولكنه يظهر حيثما تتأزم الأمور مع الكبار . كان يبدو أحيانا رجلا فى جرأته وشخصيته . أنه لا يرضخ لمواقف مفروضة ولا لعدالة متذبذبة متقلّبة الأهواء ، كتلك السائدة فى المنزل بالطبع . أخته تحترمـه ، وليست كلمته صفرا علـى الشمال كما هو الحال مـعه ، بل إنها تعـدل كلمة رجـل يحسب له حـسـاب سواء فى البـيت أم فى الشـارع ، فللبـعرور شـخـصيته . ومع مـرور الوقت ازداد اعـجاب (البـوم) بـ (البعـرور) . كان هذا دائم العـراك مع صبـيان البلدة ، وكان هـو الغالب دائماً دون أن يصاب بسوء يذكر . لقد شـاهده دانييل ذات مساء وهو يشبع طبال فرقة شعبية ضرباً بالعصا ، ولما تعب من ضربه حشر رأسه فى الطبل فبدا كالقبـعة على رأسه . وضحك الناس كثيراً . كان عـمر الطبال يقرب من العشرين بينما لـم يتجاوز (البعرور) حـينها الحادية عشرة . ومن ساعتها

أدرك (البوم) أن روكى شجرة كبيرة يمكنه الاحتماء بها فلازمه على الرغم من أن تلك الصداقة كانت تدفعه أحياناً إلى مضاعفة جرأته ، وربما أوردته بضع مسطرات من دون مويسيس المعلم ، ولكن ما أكثر ما حماه (البعرور) ودفع عنه الأذى . مع هذا فليس من حق أم دانييل ولا دون خوسيه القس ولا دون مويسيس المعلم ولا (الفلفلة) الكبرى ولا (الأرنبات) أن يصفوا روكى بأنه صعلوك قليل الأدب فما كان (البعرور) يتشاجر الا لقضية عادلة أو لهدف نبيل ، ولم يحدث أن تشاجر مرة باطلاً أو لمجرد الرغبة فى الشجار .

أما أبوه باكو الحداد فشأنه مختلف . فهو يعمل أكثر من أى انسان آخر ويكسب من المال ما يكفيه . وبما أن أهل البلدة فى رأى (الفلفلة) الكبرى و (الأرنبات) صنفان : صنف يكسب القليل ، يقولون عنه إنه حشد من الكسالى المتسكعين ، وصنف يكسب الكثير ، يقولون عنه إنه صنف الذين يعملون لينفقوا مالهم فى شرب النبيذ ، فقد كانوا يطالبون بحال وسط يصعب بلوغة والوصول إليه . ولكن باكو الحدّاد ، والحق يقال ، ما كان يشرب إلا لحاجة ، ودانييل (البوم) يدرك ذلك تماما لأنه يعرف باكو حق المعرفة : فإن هو لم يشرب فإن الكور لن يشتعل ، ولطالما ردّد قائلا : « حتى السيارات لا تسير من دون وقود » ليتناول جرعة وليعاود بعدها عمله بحماس أكبر ومثابرة أشد . وكل هذا يصب أولاً وآخراً فى مصلحة البلدة ولكن البلدة ما كانت تشكر له ذلك بل تصفه بقلة الحياء والعربدة . ومن حسن الحظ أن الحدّاد صبور كولده ، فما كانت تلك الشتائم تثير حفيظته حتى أن دانييل (البوم) كان يعتقد أنه إن حدث

وغضب الحدّاد يومـا فلن يبقى فى البلدة حجرا على حجر بل سـيدمرّ كل شىء كالإعصار .

وما كان يصح أيضـاً اتهام الحدّاد بالتحرش بالفتـيات المارّات من أمام دكانه ودعوته لهن بالجلوس معه برهة لتبادل الحديث وتناول الشراب . فهو رجل أرمل وعمره يؤهله للزواج ثانية كما أن له فى ضخامة جسمه ما يحبّبه إلى النساء . ألم يتـزوج دون انطونينو (الماركيـز) ثلاث مرّات ومع ذلك واصل الناس مناداته بدون انـطونينو وواصلوا رفع قـبعـاتهم تحـيـة له عند ملاقـاته وواصل هو احتـفاظه بلقب (الماركـيز) ؟ . ولكن لئن لـم يتزوّج پاكو الحدّاد ثانية فلكى لا يأتى لأولاده بـزوجة أب وليس لكى يوفر النقود اللازمة لشرابه كما تدّعى بخبث (الفلفلة) الكبرى و (الأرنبات) .

كان پاكو الحدّاد يشرب أيام الأحد والأعـياد فى حانة (الجانو) حتى الثمالة . هذا ، على الأقل ، ما تقـوله (الفلفلة) الكبرى و (الأرنبات) عنه . وإن صحّ ما يقلن ، فلابدّ أن للحداد دوافـعه القوية التى تتمثل فى نسيان ستة أيام مـن العمل انقضت وستة أخرى قادمة لن يذوق فـيها طعماً للراحة . فما أكثر ما تكلّف الحياة الرجال ، وما أقلّ ما ترحمهم .

وقـد يعكـر الكحـول مـزاج پاكـو فيدخل فـى مشادات حـامية فـى حـانة (الجانو) ولكنه ما كان يبلغ حد إشهار السكاكين وأن أقدم خصومه على ذلك . وتصفـه (الفلفلة) الكبرى و (الأرنبات) بأنه شـقى مقرف وهو الذى ما كان يتشاجر إلا بصدر مكشوف والا بأعلى مراتب الشهامة . والحق إن ما يغيظ (الفلفلة) الكبرى و (الأرنبـات) والمعلّم والقيّمة على بيت (الماركيز) وأم دانييل والـقس هى عضلات الحدّاد المفتولة وشخـصيته

الفذّة وقوته البدنية . ولو كان پاكو وولده هزيلين ناحلين لما أقلق الناس أن يكونا سكيرين أو معربدين ، لأن فى مقدورهم حينها الإطاحة بالاثنين بصفعة واحدة . ولكن الأمر يختلف عندما يكون الجسم ضخماً قوياً ، ولذا فهم يكتفون بشتمهم غيبة . وما أحسن ما كان يقول اندريس الاسكافى :

« عندما تختفى العضلات من الذراعين تظهر فى اللسان » .

حتى دون خوسيه القس ، وهو القديس العظيم ، كان يحمل فى داخله الاعجاب لپاكو الحدّاد مع أنه يجاهر بإدانته على تجاوزاته . وهو مهما حمل على الحدّاد فإنه لن ينسى ما حدث فى « عيد العذراء » من أعوام مضت عندما مرض توماس ولم يقدر على الحضور لرفع المحفّة ، وعندما اضطر خوليان ، وهو من حملتها الدائمين أيضاً ، إلى مغادرة المكان لسفر مفاجىء . وساءت الأمور إذ لم يظهر البديل ، وفكّر دون خوسيه القس فى تأجيل الموكب ، ولكن پاكو الحدّاد حضر إلى الكنيسة ليقول بتواضع :

– إن رغبتم ، حضرة القس ، فان فى مقدورى الطواف بالعذراء فى البلدة ، ولكن بشرط أن أقوم بذلك لوحدى .

وابتسم دون خوسيه بخبث للحدّاد :

– اشكرك يا ولدى على همّتك ، وأنا لا أشك فى مقدرتك ، ولكن التمثال يزن أكثر من مائتى كيلو .

وطأطأ پاكو الحداد رأسه تواضعًا وقال :

– فى استطاعتى ، سيّدى القس ، حمل مائة أخرى . ثم إنها ليست

المرة الأولى . وطافت العـذراء بالبلدة مـحمـولة على كتـفى پاكو الحـّداد القويتين ، طافت بخطى بطيئـة ، وتوقفت فى أربع محّطات : فى الساحة وأمام البلدية ومقـابل البريد وفى فناء الكنيسة عند العـودة حيث أنشدت ، كما جرت العـادة ، تحّيه العذراء . وعند انتهاء الموكب أحاط الصبـية بپاكو الحّداد يرمقونه بنظرات الاعـجاب بينما راح هو يطلب منهم وقد رسم على وجهه ابتسامة صبيانية أن يعاينوا قميصه فى الصدر والظهر وتحت الإبطين :

– انظروا ، انظروا ، لم أعرق ، لم تخرج منى قطرة عرق واحدة .

ولامت (الفلفلة) الكـبرى و (الأرنبـات) القس دون خـوسيـه أن سمح لاشّد سكان البلدة خطيئة أن يرفع محفّة العذراء على كتفيه ، وعدّوا ما قام بـه پاكو الحّداد مـن فعل خـيـّر مجّرد استعـراض قـوة أثيم . ولـكن دانييل (البـوم) كان محـقًا فى ظنّه : فما لا يمكـن غفرانه لپاكـو الحّداد يكمن فى بنيته ، فى كونه أقوى رجال الوادى ، كل الوادى .

الفصل الثالث

الوادى . . . . ذلك الوادى يعنى الكثير بالنسبة إلى دانييل (البوم) ، بل هو كل شيء عنده . فـفيه ولد ، ولم يتـخّط فى سنيّه الإحدى عـشرة سلسلة الجبال العالية التى تحيط به ، بل لم يشعر بالحاجة إلى ذلك . وكان دانييل (البـوم) أحيانا يوافق أباه والـقس والمعلم اذ يشبهـون الوادى بقدر كبير مـستقل ومنعزل تمـاما عـن العالم الخـارجى ، مع ذلك فليس هو كما يصفون ، فللوادى حـبله السّرى ، بل حبلاه السريـان اللذان يمدّانه بالقوة والنشاط من جـهة ، وبالضعف والانحـلال من جهة أخرى . أنهـما سكة القطار والطريق العام يقطعـانه من جنوبه إلى شماله : يصـدران من سهول قشتالة البنيـة الجافة وينحدران صوب سهول البحر السـماوية ليشكّلا حلقة وصل بين عالمين واسعين متناقضين .

وتشابك سكة القطار والطريق العام والنهـر ألف مرة ومرة وهى تقطع الوادى مكّونة مخطّطا مضطربا من الجسـور والأنفاق ونقاط مرور القطارات والقناطر . أمّا النهـر فينضم إليهما بعـد أن يندفع فى ثورة من الانحدارات والسيـول المتدفـقة من أعالى قـمة جـبل راندو . كان روكى (البـعرور) ودانييل (البوم) قد اعتادا أيام الربيع والصيف الجلوس ساعة الأصيل فوق أى مرتفع بسـيط من الأرض ليتـأملا ، وقد أعـياهما مـا يوشك أن يكون تعّبدا ، حيوية الوادى الفاترة المتواصلة . كانت السكة والطريق يرسمان فى الوادى خطوطا متعّرجة حادة وكثيرة ، تتـجاذب أحيانا وتتنافر أحيانا أخرى ولكنها تبدو فى المخطط دائمـا مثل أخدودين أبيضين مفتـوحين فى خضرة

كشيفة من المروج وحقول الذرة . ومن بعيد كانت القطارات والسيارات والبيوت البيض تتضاءل فتبدو كتماثيل « الميلاد » بعيدة إلى درجة لا تصدق وفى متناول اليد إلى درجة غير مفهومة .

وقد يظهر قطاران أو ثلاثة فى وقت واحد وقد ارتفعت فوق كل منها كتلة من الدخان معلّقة فى الفضاء يتصدّع لها تناسق المرج النباتى الوضّاء . وكم هو ممتع خروج القطارات من فتحات الأنفاق . انها تطّل كالجداجد التى كان هو و (البعرور) يتبّولان عليها حتى تغرق فى جحورها . فالقطار والجدجد يبديان ، وهما يخرجان من جحريهما ، تعبيرا واحدا قوامه اللهاث والفزع والاختناق . كان يروق لـ (البوم) الاحساس بأن الوادى يلّفه بهدوئه الساكن الرائق ، ويعجبه تأمل المساحات الخضر المجزّأة والمزروعة بالضياع المتناثرة ، أو بقع غابات الكستناء الداكنة الكثيفة أو سلّم الألوان الفاتحة الخامدة الذى تؤلّفه غابات أشجار الكينا . أو الجبال البعيدة التى انتصبت فى كل الانحاء والتى تبدّل هيأتها بحسب الفصول والمناخات لتتراوح بين شحة نباتية ظاهرة وكثافة داكنة رمادية جامدة فى الأيام المعتمة ما كان يروق لـ (البوم) شيء أكثر من ذلك المشهد ، ربما لأنه لم يألف غيره . وكان يعجبه التحقّق من خمود الحقل وثورة الخضرة ودفقات الصخب والحركة القادمين من المدينة بين وقت وآخر فى دقة تضاهى دقة الساعة .

ولطالما فقدا ، وهما يرقبان توقف الطبيعة وسكونها ، الاحساس بالوقت فيدركهما الليل ، وتمتلىء قبة السماء بالنجوم فيرتاع روكى (البعرور) بتأثير ضرب من الفزع الكونى . كانت ترد على باله فى مثل هذه الأحوال

من الظلمة والانقطاع عن العالم ، أفكار غـريبة وخواطر لا تشغل باله فى الأحوال الاعتيادية .

سأل مرّة :

– (بوم) ، لو أن نجمـة من تلك سقطت فـهل يمكن ألا تصل إلى القاع أبدا ؟

ونظر دانييل (البوم) إلى صديقه وقد بدا عليه أنه لم يفهمه :

– لا أفهم ماذا تقصد .

كان (البعرور) يجـاهد قصوره فى التعبير ، حـرّك يديه مرارا ليقول فى النهاية :

– النجوم فى الهواء ، أليس كذلك ؟

– بلى .

– والأرض هى الأخرى فى الهواء كبقية النجوم ، أليس كذلك ؟

– بلى . هذا ما يقوله المعلم على الأقل .

– حـسناً هذا مـا أقصـده . فلو أن نجـمـة سـقطت ولم تصطدم لا بالارض ولا بأية نجمـة أخرى فهل سـتصل إلى القاع ؟ أليس لهـذا الهواء الذى يحيط بالنجوم من قاع ؟

وأطرق دانييل (البوم) مفكّرا للحظة ، وقد بدأ اضطراب كونىّ مبهم يسيطر عليه ، فخرج الصوت من حنجرته مترددا مرهفا وكأنه بكاء :

– (بعرور)

- ماذا ؟

- كُفّ عن هذه الاسئلة فقد أصبت بدوار .

- دوار أم خوف ؟

- ربما بالاثنين .

وضحك (البعرور) ضحكة متقطعة ثم قال :

- سأقول لك شيئا .

- ماذا ؟

- أنا كذلك أخاف من النجوم ومن كل هذه الأشياء التى لا يحيط بها شىء ولا تعرف لهـا نهاية . ولكن اسـمع ، لا تقل ذلك لأحد . لا أريد أن تعرف أختى سارة عن ذلك شيئا على الاطلاق .

كان (البعرور) دائما يختار أوقات الهدوء والعزلة هذه للبوح بأسراره فقد كانت الجبال الشامخة بقممها الضخمة المتصدّعة فوق الأفق تملأ (البعرور) بإحساس مهين بالضآلة . وفكّر دانيـيل (البوم) : لو عرفت سارة بنقطة الضعف هذه لسيطرت على (البـعرور) بسهولة . لكنه بالطبع لن يصرّح لها بشىء ، فسارة بنت مكروهة وقاسية ، أمّا روكى فهو خير أصدقائه ، فلتكتشف بنفسها الـرعب المبهم الذى تبعثه النجوم فى قلب (البعرور) .

كان نبض الحيـاة فى الوادى يبدو ، ساعة العـودة إلى البلدة مساء ، أشدّ وضوحا وحضورا . فمن قطارات تطلق صفاراتها فى المحطات المتناثرة لتجرّح الفضـاء بصفيرها الحاد كالسكين ، ومن أرض تعـبق برائحة التراب

الندى وروث البقر ، ومن عشب تنبعث منه رائحة قوية أو خفيفة تبعا لحالة الجو أو لهطول المطر .

كانت تلك الروائح تروق لدانييل (البوم) كما كان يروق له أن يسمع فى هدأة الليل خوار بقرة ناعسًا أو أنين عـربة رتيبًا وهى تتقدّم على الطريق متعثّرة تجرّها الثيران .

أما فى الصيف ، ومع تبدّل الوقت ، فكانا يعودان إلى البلدة والوقت نهار . كـانا يسيـران فوق النفق سـاعة مرور قطار المحـافظات ، وينتظران وصوله بشوق وقد انبطحا على التل وأطلا بأنفيهما على الهاوية . وتنبئهما الجلبة المنبعثة من جـوف الوادى باقتراب القطار . وما إن يخرج القطار من النفق متلفعا بسحابة دخان كثيفة حتى ينفجر الاثنان فى نوبات من العطاس والضحك . أما القطار فينساب تحت بصريهما بطيئًا هادئًا رتيبًا فيوشكان أن يمساه بأيديهما .

وينزلان من هناك سـالكين درب الرعاة للوصول إلى الـطريق العام . كان النهر يمرّ من تحت الجسر هادرًا كـالشلال ، إنه سيل ينحدر من الجبل مندفعًا بقوة بين صخور عظيمة لا تتأثر بتعرية ولا بتآكل .

ولكـن سرعـان ما يهدأ صخب مياهـه الداكنة بعد عشرين مترًا حيث تمتد « بـركـة الانكليزى » التـى اعـتادوا الاستحـمام فيـها ساعـات القيظ الصيفية .

عند ملتقى النهر بالطريق العام وعلى مسافة كيلو متر واحد من البلدة تقع حـانة كينو (الأقطع) . ويـتذكّـر دانييل (البـوم) أيام الخيـر ، أيام الصفقـات السهلة الرخيصة ، أيام كـان كينو (الأقطع) يقدم لهمـا قدحاً

كبيراً من عـصير التفاح المحفـوظ مقابل خمسة سنتـات فضلا عن الحديث معهما . ولكن الأمور تغيرت مـؤخراً . وما عاد كينو (الأقطع) يقدّم لهما لقاء ذاك المبلـغ غيـر الكـلام .

كـانت الحانة خالية من الرواد معظم الوقت . وكان (الأقطع) كريماً إلى حدّ الإسراف ، وإن من الطيش أن يكـون المرء كريماً فى هذه الأيام ، ولكن الحانة ما عادت تقدّم لسبب أو لآخر غير نبيذ ردىء ، يطفىء به عمال وعاملات معمل المسامير الكائن على مسافة ٥٠٠ متر إلى الجنوب ظمأهم

ويلـى الحـانـة ، بعـد اجتياز آخـر منعطف إلى جهة اليـسار ، دكـان والـد (البـوم) ، وتقع قبالـته المحطة المتوغـلة قليلاً فى الحـقول ، وإلى جوارها بيـت كوكو ، مـأمور المحطة ، بلونيـه الأبيض والأحمـر وبمظهره البـهيج . وبعـد ذلك ، ومع نهاية الانحـدار ، تبدأ البلدة بمعناهـا المحدد الصحيح . أنها بلدة صغيرة منزوية عادية . لبيوتها الحجرية شبابيك خشبية مفتـوحة ومعلّقة ومـطلية عمومًـا بلون أزرق يقف فى الربيع والصيف ازاء الأخضر والأحمر فى الجيرانيو الذى يملأ الشابيك والشرفات .

والصيـدلية هى أول مـا يظهر من المبـانى على جهة اليـسار ، تليـها اصطبلات دون رامون الصيدلى العمـدة وهى اصطبلات رائعة مليئة بالابقار المنتفخـة مرضًا أو عافـية . وفى باب الصيدليـة جلجل يصرف برنينه دون رامون عن واجباته البلدية ويعيده خلال دقـائق إلى مهنته . ونتقدّم صعودا فنصادف قصر (الماركيز) المسـوّر بسياج عال من الحجر الأملس الصلب ، ثم ورشة الاسكافى ، ثم البلدية وقـد ظهـر شعـار قديم على واجهـتها . ثـم دكـان (الفلفلات) ذو الواجهة الزجاجيـة الملونة التى أعيد ترميمها ،

ثم الفندق الذى يحتل بشرفته الزجاجـية الشهيرة اثنين من جوانب البناية . وعلى يميـن الفندق تقع الساحة المـغطاة بالبعرور والحـصى وقد توسطتـها نافورة ذات ماسـورتين . وتنتهى الساحة من الطرف الآخـر ببناية المصرف تليهـا ثلاثة بيوت لكل منهـا حديقـته الأمامـية . أما على اليـمين مـقابل الصيدلية فتقع مزرعة خـيرادو (الأمريكى) التـى تنتـج أفضل ثمار المنطقة واصطبل بانچـو (الملحد) حيث أقـيمت دار السـينما ، وحـانة جانو ثم ورشـة (الحداد) ثم دائرة الهـاتف التى تديرها (الأرنبـات) ثم مـتجـر انطونيو (الحوصلة) ثم بيت دون خوسـيه القس ومكتبه فى الطابق الأرضى منه . على بعد ٣٠٠ مـتر نزولاً تقع الكنيسة ذات البناء الحـجرى والطراز المعـمارى غـير المحـدد والبرج المنتـصب الرشـيق . وبإزائها بناية المدرسـة الجديدة المطليـة بالكلس الأبيض بشبابيكهـا الخضر ثم سكن دون مـوسيس المعلّم . فالبلدة ، وبنظرة سريعة كهذه ، لا تختلف عـن سواها الكثير . . أما بالنسبة إلى دانييـل (البوم) فكل ما فى بلدته يختلف تماماً عمّا فى غيرها فمشـاكلها ليست اعتـيادية ، ونظام الحياة فـيها يفصح عن أصـالة وجميع نشاطاتها تقريباً محمودة العواقب وإن لم يشأ الأخرون الإقرار بكل ذلك .

ولطالما وقف دانييل (البوم) يتـأملّ دروبها المتعّرجة وساحتـها المليئة بالبعر والحصى وأبنيتها الكئـيبة التى صمّمت بحّس خدمى محض . ولكنه ما كـان يستـاء لذلك ، فالشوارع والـساحات والأبنيـة لا تصنع البلدة ولا ترسم معـالمها بل هم رجالهـا وتأريخها . ويعلم دانيـيل (البوم) أن هذه الشوارع المغطاة بالروث الطرى وهذه البيوت المحيطة بها شهدت مرور رجال عظام هم الآن مجـرد ذكرى ولكنهم منحـوا البلدة والوادى معنى وتناسـقاً وأعرافاً ووقعاً وأسلوباً خاصا ومنفرداً فى الحياة .

أيقول دون رامون العمدة إن البلدة تتصف بنزعة فردانية متطرفة وأن لا مكان فيها للمؤسسات العامة ؟ ، حسناً . إن (البوم) لا يفهم معنى « النزعة الفردانية » ولا معنى « المؤسسة العامة » ولا ينكر ذلك ، ولكن إن كان هذا صحيحاً فان عواقبه لا تتعدى حدود البلدة ،وبالتالى فالسكان يدفعون بأنفسهم ثمن خطاياهم .

أيقولون أنهم يفضلون عدم رصف الساحة الا بعد زيادة الضرائب عليهم ؟ لا بأس ، الم يمنع هذا أن تجرى الدماء أنهاراً . وينتهز دون رامون أية فرصة ويتكلم صارخاً « ما أسوء الأمور العامة . إنها كارثة . فكل واحد ينظر إلى أموره الخاصة ناسياً أن هناك أموراً تخص الجماعة وأن من الواجب الالتفات إليها » . وليس هناك من يدرك أن هذه الأنانية إنما هى زهرة أو شوكة ، فضيلة أو رذيلة يتّصف بها جنس بأكمله .

ولكن ليس بالإمكان ، لأى من هذه الأسباب ، تجريد البلدة من صفات الكفاءة والجد والرصانة . صحيح أن كل انسان وشأنه ، ولكن المتسكعين ليسوا متسكعين لمجرد عدم رغبتهم فى المشاركة فى أعمال الآخرين . والبلدة ، بلا شك ، تمتلك كفاءة معتدلة ورصانة بناءة ، أما أن يقال عن (الفلفلة) الكبرى وعن كوكو ، موظف المحطة ، إنهما نمأمان ، فلا جسد يخلو من شامة . أما عن « فردانية » البلدة ، أفلا يكفى التقاء الشباب من فتية وبنات أماسى السبت والأحد ؟ . ولطالما صرحّ دون خوسيه القس ، وهو القديس العظيم ، متألماً : « من المؤسف أن يحيا كل منّا لِذاته فى جميع شؤونه ، ثم لا نلتقى إلا لنغضب الرب » . ولكن دون خوسيه ما كان يريد هو الآخر أن يفهم أن هذه الحسّية إنما هى زهرة أو شوكة ، فضيلة أو رذيلة يتّصف بها جنس بأكمله .

الفصل الرابع

مضت الأشياء فى وقتهـا ، ولكن دانييل (البوم) يتذكرها الآن بتلذذ كان الجـبان قد فكّر فـى اسم لولده ولمّا يولد الصغيـر بعد . جـهّز الاسم وصـار يلقّـه ويحـنو عليـه فكأنّه رزق بالولـد حـقـاً . تم ولد دانيـيل . واستحضر (البوم) خطواته الأولى فى الحياة .كانت تنبعث من أبيه رائحة نفّـاذة ، فـكأنه قـطعـة جبن عظيـمـة طريّـة بيـضـاء اللون ثقـيلة الوزن . ولكن دانييل (البوم) كـان يستمتع بتلك الرائحـة التى تضمّخ أباه وتفيض عليه عندمـا يداعبه الأب فى ليـالى الشتاء وهو يحكى له ، أمـام الموقد ، حكاية اسمه . كان الجبّان يريد الولد ليكون فى مقدوره ، وقبل كل شىء ، أن يسميه دانييل . كان يحكى ذلك لـ (البوم) ولما يتجاوز هذا الثالثة من عمره وعندما كانت مداعبة جسمه الصغير المكّور البدين تعدل إطالة الوقوف أمـام طاولة صنع الجبن . كان فى مـقدور الجـبّان أن يسـمى ولده ساعـة التعميد بألف اسم غير اسمه ، لكنه فضل أن يسميه « دانييل » .

– هل تعلم أن دانييل كان نبيّا حشر فى قفص مع عشرة أسود لكنها لم تجرؤ على إيـذائه ؟ – كان يقول له وهو يضـمّه بقـوة إلى صدره . إن رجلاً قادراً على ترويض جـماعة من الأسود بنظراته له قـوة تفوق ما لدى الرجال جميعاً . كان حادثاً فريداً رائعاً فتن الجبّان منذ طفولته .

– أبى ، ماذا تفعل الأسود ؟

– تعضّ وتخمش .

- هل هى أسود من الذئاب .

- إنها أشّد وحشية .

- ماذا ؟

كان الجبّان يبسّط الأشياء لولده كما تمضغ الأم الطعام قبل تقديمه إلى صغيرها .

- أى إنها تؤذى أكثر من الذئاب ، هل فهمت ؟

ولا يشبع دانييل (البوم) من السؤال :

- وهل صحيح أن الأسود أكبر من الكلاب ؟

- نعم ، إنها أكبر .

- ولماذا لم تؤذ دانييل ؟

كان الجبّان يجد متعة وهو يفصّل الكلام حول تلك الحكاية :

- كان يغلبها بمجّرد النظر إليها . لأنه يمتلك قوة الرب فى عينيه .

- ماذا ؟

ويضم الولد إليه :

- لأنه من أولياء الله .

- وماذا يعنى هذا ؟

وهنا تتدخل الام متحوّطة :

- دع الولد فإنك تعلّمه أشياء أكبر من عمره .

وتنتزعه من أبيه وترقده . كانت رائحة اللبن المحلّى والجبن القريش تنبعث من أمه أيضاً . فكل شىء فى بيتهم له تلك الرائحة بل كانوا هم أنفسهم رائحة لبن خالصة . وكان أبوه يحمل تلك الرائحة القوية حتى فى نهايات أظفاره السود . وما كان دانييل (البوم) يفهم كيف تكون أظفار أبيه سوداً وهو الذى يشتغل فى اللبن ، أو كيف يخرج الجبن أبيض وقد مرّ من بين تلك الأظفار الداكنة السواد .

ومالبث أبوه أن ابتعد عنه ، فما عاد يداعبه ولا يلاعبه بعد أن أدرك أن الولد أصبح قادراً على التعلّم بنفسه . حدث هذا عندما بدأ دانييل الذهاب إلى المدرسة وعندما لجأ إلى (البعرور) بحثاً عن معين . مع ذلك فقد ظل أبوه وظلّت أمه وكل ما فى الدار يحملون رائحة اللبن المحلّى والجبن القريش وظلّت تلك الرائحة تروق له رغم نفور روكى (البعرور) منها وقوله بأنها تشبه رائحة القدمين .

ابتعد عنه أبوه كمن يبتعد عن شىء صار واكتمل وما عاد بحاجة إلى العناية ، وأصيب الأب بالخيبة وهو يرى ابنه مستقلاً غير محتاج إلى رعايته وحمايته . وبدا الجبّان كذلك متجهّم الوجه معكر المزاج وهو الذى كان حتى ذلك الوقت مثل الكمّثراة المجففة المحلاة بالسكر ، على حد وصف امرأته ؛ لقد غيّر حرصه المحموم على جمع المال طبعه ، والاقتصاد عندما يقوم على أساس التقصير فى الضروريات فإنه يحدث فى طبع الإنسان حدّة ولؤماً . وهذا هو ما حدث للجبّان ، فصار ينزعج لأى إنفاق طفيف أو أى مصروف إضافى . كان يريد الادخار وبأية طريقة ليصبح ابنه دانييل رجلاً فى المدينة وليتقدم فلا يكون مثله ، مجرّد جبّان معدم .

ولكن ما لا يفهمه دانييل (البوم) هو أنه ما من أحد يستفيد من هذا كله ، فأبوه يعاني ، وأمه تعاني ، وهو نفسه يعاني ولو انتهت معاناته فستنتهي معاناة الآخرين . ولكن ذلك سيعني التخلي عن الطريق والتسليم بأن دانييل ما عاد يريد التقدّم ، وهو ما لن يقبل به أبوه الجبّان ، فلا بّد للولد أن يتقدّم وإن كان الثمن تضحية العائلة كلها بدءاً به . كلا . إن دانييل (البوم) لن يفهم هذه الأمور أبداً ، لن يفهم عناد الرجال الذين يبرّرون سلوكهم بأنه رغبة منطقية في التحرر . ولكن ، التحرر من ماذا ؟ وأين سيكون هو أكثر تحرراً : أفي المدرسة والجامعة أم في مروج الوادي وهو يتراشق بالروث مع (البعرور) ؟ . قد يكون على خطأ ولكنه لن يفهم هذه الأمور أبداً .

لم يدرك الأب كذلك ما أقدم عليه عندما سمّى ولده دانييل ، فجميع الآباء تقريباً يجهلون ما يقدمون عليه ساعة تعميد أبنائهم . فلا أبو المعلّم ولا أبو كينو (الأقطع) ولا أبو أنطونيو (الحوصلة) ، صاحب المتجر ، كانوا يدركون ما هم مقدمون عليه لحظة يصبّ دون خوسيه ، الماء المبارك على رأس الوليد ، ولو أنهم كانوا يدركون ذلك فلماذا أقدموا عليه مع علمهم بعدم جدواه ؟ وهكذا لم يدم لدانييل (البوم) اسمه إلا بمقدار ما دامت له طفولته الأولى ، حتى إذا دخل المدرسة عافه اسمه فما عاد يسمّى دانييل ، تماماً كما حدث لدون مويسيس المعلّم بعد وقت قصير من وصوله إلى البلدة .

كان دون مويسيس رجلا طويلاً هزيل الجسم متوتر الأعصاب ، كان هيكلاً من العظام المكسّوة بالجلد . وقد اعتاد فتح فمه فكأنه يحاول

عض شحمة أذنه ، وكانت حالة الانبساط تزيد من استدارة فمه ليصل فى انفراجه حتى سالفتيه . كان أمر ذلك الرجل غريباً ، حتى إنه أخاف دانييل (البوم) وأثار اهتمامه من أول يوم عرفه . وصار هذا يدعوه بـ (البيدق) كبقية الأولاد دون أن يعرف لتلك التسمية سبباً . وعندما قالوا له إن القاضى أطلق عليه هذه التسمية لأن دون مويسيس « يتقدّم إلى الأمام ويأكل من الجانب » بدا عليه أنه فهم ولكنه واصل جهله سبب التسمية وواصل اطلاق اسم (البيدق) عن غير فهم .

أما دانييل (البوم) فكان محبّا للاستطلاع فعلاً . وكان يرى فى كل ما يحيط به جديداً ويعدّه حرياً بالتأملّ . وقد أثارت المدرسة ، كما هو طبيعى ، فضوله أكثر من بقية الأشياء ، وأثار فضوله ، أكثر من المدرسة نفسها ، (البيدق) المعلّم وفمه المضطرب الذى لا يعرف الكلل وسالفتاه السوداوان الكثّتان اللتان تذكّران بسالفتى قاطع طريق .

وكان جيرمان ولد الاسكافى أول من لاحظ طريقة دانييل فى النظر إلى الاشياء ، إنها طريقة يقظة مدققّة متطلعة .

- ألا ترون أنه ينظر إلى الأشياء كالمفزوع ؟

ونظر إليه الجميع بإمعان قاتل . وأضاف أحد أبناء أخ (الماركيز) :

- وعيناه خضراوان ومستديرتان كعينى القط .

ثم حدّد آخر الوصف وقرّبه ليصيب فى الهدف :

- إنه ينظر كالبوم .

ولازمته التسمية رغـما عن ابيه وعن النبى دانييل وعن الأسود العشرة المحبوسة معه فى القفص وعن قدرة عينيه التنويمية .

ومـا كـانت نظرات دانيـيل (البوم) قـادرة ، خـلافـا لرغـبات أبيـه الجبّان ، حتى على ترويض مجمـوعة من الصبيان . وبقى اسم « دانييل » مقـصورا على بيته ، أمـا فى خارجه فـما عادوا ينادونه بغيـر (البوم) . وكافح الأب زمناً للحـفاظ على اسم ولده ، بل لقد تشاجر يـوماً مع بائعة المرطبـات العـجـوز فى القطار . ولكن جـهـوده ذهبت سـدى ، لأن من يحاول منع ذلك كـمن يحاول منع تدفق مياه النهـر فى الربيع ، عبث فى عبث . ومنذ ذلك الحين صار هو (بوماً) كما صار دون مويسيس من قبل (بيدقـاً) ورروكـى (بعـروراً) وأنطـونيـو (حـوصــلـة) والسيدة لـولا ، (فلفلة) كبرى وعاملات الهاتف (كاكات) و (أرنبات) .

إن البلدة تتعامل مع ركن التعميد المقّدس باستهانة وإسراف مفرطين .

الفصل الخامس

الواقع هو أن (الفلفلة) الكبرى بوجهها الأحمر المستدير وبطبعها الحار النزق ، كانت جديرة بلقبها . وهى ، فوق ذلك ، نمّامة ، والنمامون لا يبتئسون لكل ما يقع على رؤوسهم . ثم إنها ، تحاول التحكّم بالبلدة من دون وجه حق بينما تريد البلدة أن تكون حرّة مستقلة : فما دخل (الفلفلة) فى أن يكون پانچو مؤمناً أو كافراً أو أن يكون باكو الحداد منقطعاً إلى الخمر أو منقطعا عنها ، أو أن يصنع أبو دانييل الجبن وهو نظيف اليدين أو وهو متسخ الأظفار . وإن هى تقزّزت من ذلك فلتمتنع عن أكل الجبن والسلام . وما كان دانييل (البوم) يرى فيما تفعله (الفلفلة) الكبرى دليلاً على طيبتها . الطيبون هم من يتقبّلون وقاحاتها وينتخبونها رئيسة لهذه الجمعية الخيرية أو تلك .

ويصيب انطونيو (الحوصلة) إذ يقول إنها أفعى دميمة ، وإن فكّر وهو يصدر حكمه هذا ، فى منافسة (الفلفلة) له فى تجارته أكثر من تفكيره فى دمامة خلقتها وسوء أخلاقها .

و (الفلفلة) الكبرى ، مع حمرة بشرتها ، طويلة عجفاء كقصبة الكوكانيا وإن لم تحمل فى نهايتها ، كما الكوكانيا ، جائزة . وماذا تحمل (الفلفلة) غير أنف عظيم وغير حرص شديد على التدخل فى شئون الغير وغير سلسلة متنوعة ومتجددة من وساوس الضمير .

ولطالما شغلت دون خوسيه ، وهو القدّيس العظيم .

– هل تعلم ، دون خوسيه ، إننى لم أنم الليلة البارحة . كنت أتساءل : إن كان المسيح بقى وحيداً على جبل الزيتون بعد أن نام الحواريون

فمن رآه إذا وهو يتصبب بدل العرق دماً ؟ - قالت له يوماً قبل دقيقة من بدء القدّاس .

ويجيبها دون خوسيه وهو يطبق عينيه النافذتين كأطراف الدبابيس :

- على رسلك يا ابنتى فنحن نعرف هذه الأشياء عن طريق الوحى .

وتتأوه (الفلفلة) الكبرى مغمومة :

- وهل تعتقد ، دون خوسيه ، أن بإمكانى تناول القربان مطمئنة بعد ما فكّرت فى هذه الأمور :

ويرد عليها دون خوسيه القس وقد تحلّى ، ليطيقها ، بصبر أيّوب :

- إن لم تذنبى فى شئ آخر فبإمكانك تناول القربان .

وهكذا يوماً بعد يوم :

- دون خوسيه . . . البارحة لم يغمض لى جفن وأنا أفكّر فى قضية پانچو . فكيف يمكن لهذا الرجل أن يتلقّى سر الزواج وهو الذى لا يؤمن بالله ؟

ثم تعود بعد ساعات :

- هل فى مقدور حضرتك ، دون خوسيه ، أن تسامحنى . فأمس الأحد قرأت كتاباً أثيماً يتحدث عن الأديان فى انكلترة . البروتستانت هناك أغلبية ، فهل تعتقد ، دون خوسيه ، أننى لو كنت ولدت فى انكلترة لكنت بروتستانتية ؟

ويبتلع دون خوسيه القس ريقه :

- ليس مستبعداً يا ابنتى .

- فأنا متهمة ، ابتاه ، بأننى لو كنت ولدت فى انكلترة لكنت بروتستانتية .

عندما ولد دانييل (البوم) كانت السيدة لولا ، وهذا هو اسم

(الفلفلة) الكبرى ، تبلغ التاسعة والثلاثين . وبعد ثلاث سنوات من ذلك أنزل الله بها ما آلمها أشد الألم ، ولكنها ، والحق يقال ، تغلّبت على ألمها بالصلابة والفظاظة التى اعتادت بهما فرض نفسها على أهل بلدتها . إن تسمية السيدة لولا بـ (الفلفلة) الكبرى يوحى بوجود (فلفلات) أخريات صغريات . وهذا صحيح ، فـ (الفلفلات) كنّ ثلاثاً ولم تبق منهن غير اثنتين : الكبرى والصغرى . كان أبوهن حارساً مدنياً ظل لوقت طويل مأمور مركز البلدة . وتدعى الألسن النّمامة الموجودة على الدوام ، أنه مات كمداً لعدم إنجابه ولداً ذكراً ، وقد ترك لبناته بعض مدّخراته فتحتفظ بها دكانهن . بالطبع فإن المأمور مات فى وقت كان فيه نائب الضابط فى الحرس المدنى قادراً براتبه على تأمين عيشة مقبولة وتوفير بعضه .

وهكذا تكفّلت لولا ، وبعد موت الحارس ، وزوجته قبله بسنوات ، بأمور البيت وفرضت نفسها على أختيها لأنها أكبرهن عمراً وأطولهن قامة .

أما دانييل (البوم) فلم ير الا اثنتين منهن ولكنه سمع من أهل البلدة أن الثالثة كانت كالأخريين ، عجفاء بادية العظام وإنه كان من الصعب ، فى حياتها ، تمييزها عن أختيها من دون معاينة مسبقة ، مطوّلة ودقيقة .

وليس فى ذلك ما يدفع عن الأختين الصغيرتين أنهما عذّبتا أختهما الكبرى فى حياتها الدنيا ، عذاباً أليماً . أما الوسطى فكانت كسولة متسكعة وكان طبعها وسلوكها يظهران على الملأ صراخاً وسباباً فاضحاً يصدر على مدار الساعة من دكان (الفلفلات) ويبيتهن ليكشف عن استمرار الوضع السئ وتدهور العلاقة بين الأخوات . مع ذلك ، فجميع الناس فى البلدة متفقون على أن (الفلفلات) الثلاث لم يتخلّفن يوماً ، وهنّ مجتمعات ، عن

قدّاس الساعة الثامنة الذى كان دون خوسيه القس ، يعقده فى الأبرشية عند مذبح القديس روكى . كنّ يرحن إلى هناك بقامات منتصبة وهامات مرتفعة وإن كان البرد قارساً والسماء ممطرة مرعدة . كنّ يمشين ثلاثتهن مشية نظامية موزونة الخطوات ، فقد ورثن عن أبيهن ، فضلا عن مدخراته ، حسًا دقيقا يقظا من الانضباط وغيره من فضائل العسكرية . واحد -اثنين ، واحد - اثنين ، واحد - اثنين ؛ كنّ يتقدّمن ثلاثتهن صوب الكنيسة بصدور عجاف وأعجاز ناشفة وقامات شامخة وقد عقدن مناديلهن عند الأحناك وتأبطن كتاب الصلوات .

وذات شتاء ، ماتت وسطاهن ، إيلينا . انطفأت روحها صباح يوم كانونى مكفهر ممطر . وعندما ذهب الناس لتعزية الأختين الباقيتين كانت (الفلفلة) الكبرى تصلّب مرددة :

- لنشكر الله الحكيم العادل ، فقد اختار أقلّنا نفعاً .

ولما بدأ الناس فى المقبرة الصغيرة المجاورة للكنيسة يهيلون التراب على جثمان إيلينا الهزيل ، راحت جوقة من الناعبات تولول فانبرت لهن (الفلفلة) الكبرى فظّة معتّدة لتقول :

لا تنحن عليها ، فقد ماتت من كسلها .

ومنذ ذلك الوقت أصبح الثلاثى ثنائيا ، وصار دون خوسيه القديس العظيم ، يفتقد ، وهو يقيم قدّاس الثامنة عند مذبح القديس روكى ، المرحومة بجسمها المدبب الصغير .

على أن ما جرى للأخت الصغرى كان أمّر وأدهى . ولئن كان ما حلّ بالوسطى من قضاء الله فإن ما حدث للصغرى كان زلّة شهوانية ، وهو بالتالى نتيجة لنزوة مقصودة ومستهترة راودتها .

كان قد فتح فى البلدة آنذاك فرع صغير للمصرف الذى يحتل الآن

أحد أركان الساحة العامة . وكان قد وصل مع المدير موظف شاب رشيق القوام أنيق المظهر شدّ انتباه ساكنات الشارع إليه فصرن يودعن مدّخراتهن وقصدهن التطلع إليه عن قرب من فتحة شباك المصرف . كان طعما جيدا استخدمه المصرف لاصطياد الزبائن . إن أى مصرفى مرموق كان سيرفض هذا الأسلوب ، ولكنه جاء فى البلدة بنتائج باهرة حتى أن رامون ابن الصيدلى ، وكان وقتها قد بدأ دراسة القانون ، أسف لعدم تمكنه آنذاك من عمل اطروحة ، كان سيكتبها بعناية لنيل الدكتوراه حول موضوع مبتكر عنوانه « أثر حسن انتقاء الموظفين على اقتصاديات البلدة » . كان يقصد بكلمة « اقتصاديات » « مدّخرات » وبكلمة « البلدة » بلدته الصغيرة بالطبع ولكن عبارة « اقتصاديات البلدة » ، كما كان يقول مازحاً ، لها وقع أفضل وهى تعطى أطروحته الموهومة ، مستوى أعلى وأهمية أكبر .

ومع وصول ديماس ، وهذا كان اسم موظف المصرف ، دخل الآباء والأزواج حالة من الترقب ، وتحدث دون خوسيه ، عدة مرات مع ديماس مذكّراً إياه بالعواقب الكبيرة التى بإمكان شاربيه أن تجلباها على البلدة : حميدة كانت تلك العواقب أم وخيمة . وقد خفّفت لقاءات القس المتكررة مع ديماس من ريبة الآباء والأزواج حتى أن (الفلفلة) الصغرى رأت أن الخروج برفقة ديماس من وقت لآخر لا يعّد من جانبها طيشاً ولا خروجاً على تعاليم الدين وإن أدانت أختها الكبرى بالصراخ ، وبعد التزام أعلى درجات اللياقة ، « انحلالها وتهتكها الفاضح » .

وهكذا انفتحت أمام (الفلفلة) الصغرى فجأة جميع الآفاق وهى التى كانت ترى فى الوادى حتى ذلك الوقت زنزانة خالية مظلمة ، وتوقفت لأول مرّة فى حياتها لتتأمل روعة الجبال الوعرة وسمات الريف الأخضر الشاعرية والإحساس الذى يوحى به سماع صدر ليل الوادى يمزّقه

صفير القطار المدّوى . تفاهات ، نعم ، ولكنهـا تصبح مهمة عندما يكون القلب متوقّداً . وذات مـساء عادت (الفلفلة) الصغرى من نزهتـها المعتادة فرحة :

– لا أدرى ، أختاه ، من أين تأتيك هذه الـكراهية نحو ديماس . إنه افضل من عرفت من الرجال . اليوم كلمـته عن نقودنا فعرض على أفكاره لاستـثمـارها . أنا قلت له إننا أودعناها فى أحـد مصـارف المدينة وبأننا ، أقصد أنا وأنت ، سنتشاور قبل أن أقرّر .

وصرخت (الفلفلة) الكبرى :

– وهل أخبرته بأن المبلغ لا يزيد على الألف دورو ؟

وتبسمت (الفلفلة) الصغرى لاستهانة أختها بفطنتها :

– لا طبعاً ، لم أقل له شيئاً عن المبلغ .

ورفعت (الفلفلة) الكبـرى كتفيـها بعظامهـا الناتئة مستـسلمة ، ثم صاحت تاركة كلمـاتها تنزلق على امتداد أنفها الدقـيق فكأنها تنساب على زحلوفة :

– اسمعينى . هذا رجل مـحتال يضحك عليك . ألا ترين أن الناس جميعاً يتقوّلـون ويسخرون من بلاهتك ؟ وهل يعقل ، أختاه ، أن تكونى آخر من يعلم ؟ .

– وغيّرت فـجأة نبرة صوتها لتـصبح أكثر نعومـة – : عمرك الآن ، ايرينه ، ست وثلاثون سنة ، فأنت بعمر أم هذا الولد تقريباً .

فكّرى فى الأمر ملياً .

ولكن ايرينه تمردت وثارت مثل بحر هائج :

– اعلمى ، لولا ، أن شكوكك تؤلمنى وتلميحاتك الخبيثة تزعجنى . فما الغريب فى أن يتفاهم رجل وامـرأة ؟ وماذا يعنى فارق العمر ؟ المسألة

هى أن جميع نساء البلدة ، وأولاهن أنت ، يغرن منى . هذا هو كل مافى الأمر .

وافترقت (الفلفلتان) وهمـا ترفعان أنفيهما عالياً . وفى مساء اليوم التـالى أبلـغ كـوكـو ، موظف المحطـة ، أهـل الـبلدة بـأن الآنسة ايرنيه ، (الفلفلة) الصغرى ، قد استـقلّت القطار الصاعد إلى المدينة . برفقة دون ديماس ، موظف المصرف . ولمـا علمت (الفلفلة) الـكبرى بما حصل فار الدم فى عروقها وسقطت مغشيا عليها . ولـم تستردّ وعيها إلا بعد أكثر من خمس دقـائق ، ولما أفاقت استخـرجت من خزانة ملابسـها الموبوءة بالعث البدلة السـوداء التى تحتفظ بها مـنذ موت أبيها ؛ انحـشرت فيهـا ومضت بخطوات سريعة إلى مكتب القس .

قالت وهى تدخل :

– يااللمصيبة ، دون خوسيه ، يا إلهى .

– اهدئى يا ابنتى .

جلست (الفلفلة) على كرسى الخيـزران القريب من منضدة القس . واستنطقت دون خوسيه بعينها فأجاب :

– نعم ، لقد علمت بالأمر . كوكو حكى لى كل شىء .

وأطلقت زفرة قويّة تردد صداها بين الضلوع فكأنها اصطدمت ببعضها ثم مسحت دمعة مستديرة مكوّرة كقطرة المطر وقالت :

– استمع إلـىّ ، دون خوسيه ؛ فبـداخلى شك مروّع . . . . . شك ينهش أحشائى . فإيرينه أختى أصبحت مومساً ، أليس كذلك ؟

وأحس القس بشىء من الخجل :

– اسكتى يا ابنتى ولا تتفوّهى بحماقات .

وأغلق القس كتاب الصلوات الذى كـان فى يده وتنحنح ولكّن صوته خرج ، مع ذلك ، مشوباً بغنّة صمّاء . قال :

- اسمعى . المرأة التى تسلّم نفسها لرجل عن مـحبة ليست مومساً . المومس هى التى تجعل من جسـدها ومن النعمة التى منحهـا الله لها تجارة محرّمـة . هى التى تسلّم نفسهـا لجميع الرجال لقـاء أجر . هل تلاحظين الفرق ؟

ورفعت (الفلفلة) الكبرى هامتها بعناد :

- على أيّة حال ، ابتاه ، فـإن ما فعلته ايرينه يمثل خطيئـة عظيمة ، خطيئة قذرة ، أليس كذلك ؟

- هذا صحـيح يا ابنتى ، ولكنها ليـست مما لا يصلّح . أعتـقد أننى أعرف دون ديماس . إنه لم يبد لى رجلاً سيئاً . سيتزوجان .

وغطّت (الفلفلة) الكبرى عـينيها بأصابعـها النحيلة وهى تجـتهد الاّ تغص بالبكاء :

- أبتاه . . . . أبـتاه . . . . ، ولكن هناك شىء آخـر . لقد أفـقدها غيـرتها . ان ما أخطأ هو دمهـا ، ودمها هو دمى ، فـربما كنت سأرتكب خطيـئة مشـابهة . أبتـاه . . . . أبتاه إننى أقّـر بذنبى ، ومن صمـيم قلبى المحزون أعلن عن ندمى .

ونهض دون خـوسـيه القس ، وهو قـديس عظيم ، ومـسّ رأسهـا بأصابعه :

- اذهبى إلى بيتك يا ابنتى ، وهوّنى عليك فأنت لا تتحمّلين وزر أى شىء . أمّا قضية ايرينه فسنتولّى حلّها .

وغـادرت (الفلفلة) الكبـرى مكتب القس وهـى تحس بشىء مـن الراحـة ؛ وفى الطريق راحت تحّدث نفـسـها بوجـوب الإعلان عن المهـا

وشعورها بالخجل لأن إضاعة العفّة هى أعلى درجة من إضاعة الروح .
وما إن وصلت إلى البيت ، محكومة بتلك الفكرة ، حتى انتزعت ورقة مقوّاة من علبة أحذية ، وكتبت عليها بفرشاة مضطربة : « الدكان مغلق لدواعى العار » .

ثم نزلت إلى الشارع وعلّقتها على باب الدكان .

وظل الدكان مغلقاً ، على ما حكى لدانييل (البوم) ، عشرة أيام بلياليها .

الفصل السادس

ولكن دانييل (البوم) يعرف الآن معنى أن يكون البطن يابسا ويعرف المقصود بالإجهاض ، فعند بلوغ سّن معينة تصبح هذه الأمور بسيطة مفهومة . أما قبلها فتبدو للمرء ضرباً من ضروب السحر . وليس من سبيل إلى فهم ازدواجية المرأة قبل ظهور استدارة البطن الفاضحة جليّة واضحة ، ولا سبيل إلى فهم ذلك قبل سّن التناول الأول : وما العينان قبل هذه السن بكافيتين للتحقّق من الأشياء الواضحة التى تحيّرنا فيما بعد ببساطتها .

كان جيرمان (الأقرع) ، ابن الإسكافى ، يعرف هو الآخر معنى البطن اليابس والمقصود بالإجهاض . وجيرمان (الأقرع) هذا كان الصديق الطيب على الدوام ، حتى فى أصعب الظروف ، وإن لم يصل فى صداقته لدانييل (البوم) إلى درجة (البعرور) . وما كان الذنب فى ذلك ذنبه ولا ذنب دانيل ولا ذنب أى شئ أو ظرف متّصل بإرادتنا .

كان جيرمان (الأقرع) صبيا ضاويا شاحبا . ولو أن شعره كان أقل سوادا لما بدت قرعته على ذاك القدر من الوضوح . لقد أصيب بالقرع فى طفولته ، وهو ما أورده لقبه رغم أن ما به لم يكن قرعا حقيقياً بالطبع . وكان لابيه الإسكافى ، فضلا عن ورشته الصغيرة الكائنة على يسار الطريق العام بعد قصر (الماركيز) صعودا ، عشرة أولاد ؛ ولد ستة منهم كما يولد خلق الله : فرادى ؛ أما الأربعة الباقون فولدوا فى دفعتين من التوائم . زوجته هى الأخرى كانست إحدى توأمين ، وكذا أمّها . وكانت للإسكافى فى قطلونية أخت توأم أنجبت ثلاثة توائم فنشر الخبر فى الصحف وتبرع المحافظ بمبلغ لإعانتها . ولكّل ذلك بالطبع دلالته ، فما كان فى

مـقـدور أحد أن يزحـزح الاسكافى عـن ايمانه بأن هذه الظاهرة ناتجـة عن عصبّية « شأن أى مرض آخر » .

كانت لأندريس الإسكافى ، إذا ما نظر إليـه من أمام ، هيئة يمكن أن تدل على أنه أب لعائلة كـبيرة ؛ فان نظر إليـه من جانب ، فمسـتحيل أن تدل هيـأته على ذلك . وعليه فـقد كـان أهل البلدة أكثـر من محـقّين إذ يقـولون عنه : « أندريس ، الرجل الذى لا يرى مـن جانبـيـه » . ويكاد الوصف يكون حرفيـا لفرط نحول الرجل وشدة هزاله . ثم إنه كـانت فيه انحناءة واضحة نحو الأمام ، فمن قائل إنها سبب طبيعة عمله ، ومن قائل إنها بسـبب حرصه الشـديد على التطلع إلى سيقـان الفتيـات اللاتى يقعن ضمن مرمى بصره ومـتابعته لهن لحين اختفـائهن عن النظر . كانت رؤيته على تلك الحالة ، من الأمـام أو من الجانب ، تبدو أدعى للفهم والـتصور من رؤيته أبا لعشرة أولاد .

ولكن الإسكافى ماكان يبدو مكتفيـا بما لديه من خلفة ، فترى ورشته الصغيرة وقـد امتلأت على الدوام بأقفاص تعج بطيور الخـضيرى والكنارى والحسون ، أما فى الربيع فكانت مجموعة من الجداجد تملأ المكان بزقزقاتها الحادة المتنافرة . كان هذا الرجل يبدو مسكونا بعفريت الإخصاب فهو يطّبق على تلك المخلوقـات كل أنواع التـجـارب فيـزاوج اناث الكنارى وذكـور الخضـيرى ويزاوج ذكـور الكنارى واناث الحـّسون وينتظر مـا ينتج عن هذا المزيج ، وكان يؤكد أن للطيور الهجينة صـفات أرقّ وأكثر تناسقا من تلك المعرقة .

وأندريس الإسكافى كان ، فوق ذلك كله ، فيلسوفا . فإن قيل له : « أليس لديك فى أولادك العشرة ما يغنيك عـن الطيـور ؟ أجاب قائلاً : « الطيور تنسينى الأولاد » .

ثم إن معظم أولاده بلـغوا سنّا تمكنهم من الاعتـماد على أنفـسهم ، فلقد ولّت إلى غيـر رجعة سنوات الشّدة . يروى أنه عندمـا استدعى أول زوج من أولاده التوائم للخدمة العسكرية ، دخل فى جدل حام مع مسؤول التجنيد عندما أصر الإسكافى على أنهما من وجبتين مختلفتين .

- ولكن ، يا ابن الحلال - قـال مسئول التجنيـد - كيف يكونان من وجبتين مختلفتين وهما توأمان ؟

وزاغت عـينا اندريس الإسكافى خلف سـاقى فتـاة حضـرت لتبـرير تخلّف أخيها ، ثم عدّل رقبته مثل حلزون منسحب إلى قوقعته وأجاب :

- ببساطة ، لأن اندريس الصـغير ولد الساعة الثانية عـشرة إلا عشر دقائق من يوم القّـديس سلفستـرس بينما ولد ماريانو بعـد دقائق من بداية السنة الجديدة .

مع ذلك ، ولأن الولدين كـانا مسجلين فى مـواليد ٣١ ديسـمبرفـقد اضطر اندريس إلى التسليم باستدعاء الاثنين معا . أما ولده توماس ، فكان يعمل فى شركـة للحافلات فى المدينة أما (الأحـول) ، فكان يساعده فى ورشتـه . وأمـا البقية البـاقية فـهم جميعـا مـن البنات ، طبعاً باسـتثناء جيرمـان (الأقرع) الذى كان أصغر الجميع سنا .

وجـيرمـان (الأقرع) هـذا هو من قال عن دانيـيل ، يـوم دخـوله المدرسة ، إنه ينظر إلى الأشياء كالمفزوع ، وهو ، بالتالى ، من عمّد دانييل بلقبـه . مع ذلك لم يضمر له هـذا أى حـقد بل وجد فيـه ، ومنذ اليوم الأول ، صديقا وفـياً ولـم تشكّل قرعة جيـرمان عقبة أمام التـفاهم بل لقد مـهّـدت لتلك الصـداقـة لأن دانييل (الـبوم) أحّس مـنذ اللحظة الأولى بفضول شديد تجـاه تلك الجزر البيض المفتوحة فى محـيط مظلم من الشعر الأسود الذى يغطى رأس (الأقرع) .

مع ذلك ، ومع أن قرعــة جيرمان لم تكن مــدعاة للقلق لا فى بيت الإسكافى ولا بين حلقة أصدقائه الضيقة ، فإن (الفلفلة) الكبرى ، بدافع من شعور بأمومة قاصرة تشــمل به البلدة جمعاء ، قررت التدخل فى الأمر رغم أنه لا يعنيها من قــريب ولا من بعيد ، فهى مغرمة بالتــدخل فيما لا يعنيها ، وهى تتــصوّر أن اهتمامها الشــديد بأمور الآخرين يأتى بوحى من حرصها المحموم على عمل الخير ومن إحســاسها العالى بالاخوة المسيحية ، والواقع هو أنها تلجــأ إلى هذا السلوك ليكون فى مقدورها تســقّط الأخبار تحت غطاء من الحكمة وعمل الخير .

وفوجئ اندريس ، الرجل الذى لا يرى مــن جانبيه ، ذات مــساء ، وهو فى ورشته منكبا على عمله ، بالسيدة لولا تقف أمامه لتقول له :

- كيف تترك الصبى هكذا ؟

ولم يفقد الإسكافى هدوءه ، ولم يرفع عينيه عما فى يديه بل قال :

- ليكن كذلك ، ياسيدتى . فبعد مائة عام يبق من قرعته أثر .

ومع صخب الجداجد وطيور الخضيرى والحسون كان على (الفلفلة) والإسكافى أن يتحاورا صراخا . قالت هى آمرة :

- خذ . ضع له من هذا المرهم ليلا .

ورفع الإسكافى بصــره نحوها . تناول المرهم وتأمله وقلّبــه ثم أعاده إليها قائلا ، قبل أن يعاود الانكباب على عمله :

- احتفظى به لنفسك . إنه غير نافع . فقد أصيب الولد بالعدوى من أحد الطيور .

وقــد يكــون الإسكافى محقاً ، وقــد لا يكــون ، فــقد كــان جيرمــان (الأقرع) شديد الولع بالطيور ، ولابد أن هذا الــولع هو من بقايا طفولته المبكرة التى أمــضاها بين طيــور الخضيــرى والكنارى والحســون ورقزقــاتها

الصاخبة المدوية .

لم يكن فى الوادى من يفهم فى الطيور مثل جيرمان (الأقرع) الذى كان مستعداً أن يمضى من أجلها أسبوعاً كاملاً من دون أكل ولا شرب . ولا شك أن هذه الموهبة أثّرت كثيرا فى قرار روكى (البعرور) بعقد صداقة مع ذلك الصبى ذى البنية الضعيفة الواهنة . وكثيرا ما كان جيرمان يقول لهم ساعة الانصراف من المدرسة عصرا :

– أعرف مكانا فيه عش لطائر الخورى . إنه على سياج الصيدلية وفيه اثنا عشر فرخا .

أو يقول :

– تعالوا معى إلى حقل (الأمريكى) ، فمع المطر الخفيف تخرج الزرازير لنقر الروث .

كان (الأقرع) خير من يفهم الطيور بملاحظة اضطراب طيرانها وتشنّجه أو طريقة زقزقتها ، كان يخمّن ردود فعلها ويعرف جيداً عاداتها وتأثير تقلبات الجو عليها ؛ بل يجوز القول إنه لو كان رغب في تعلم الطيران لكان له ما أراد .

وكل هذا فى عرف (البوم) و (البعرور) موهبة لاتقدر بثمن . فكان لابد لهما ، إذا خرجا للبحث عن الطيور ، من صحبته ، شأن الصّياد المرموق لايخرج من دون صحبة كلبه .

لكن هزال ولد الإسكافى سبب له ، من ناحية أخرى ، حوادث خطرة مؤلمة . فبينما هو مرة يبحث فوق النفق عن عش الطائر السمّان بين الحراج ، فقد توازنه وسقط على السكة سقطة شديدة كسرت لها قدمه . وبعد شهر أخبره دون ريكاردو بتماثله للشفاء ، لكنه ظل يعرج فى قدمه اليمنى طوال حياته ، ولم يشغل ذلك باله كثيراً بالطبع بل واصل بحثه عن الأعشاش بحماسه واندفاعه المعهودين .

وسقط فى مناسبة ثانية من شجرة كرز برّى ، حيث كان يتربّص بالزرازير ، على عوسجة متشابكة الاغصان . وشقّت شوكة شحمة أذنه اليمنى بالطول ، ولم يشأ أن يخاط له جرحة فبقيت الشحمة مشطورة مثل ذيل بذلة الفراك . كان ذلك عنده من متاعب المهنة ، فلم يخطر على باله يوما أن يأسف لعرج فى قدمه أو لانشطار فى شحمة أذنه أو لقرعة يقول أبوه إنها جاءته من أحد الطيور . فمرحبا بالمصائب أن جاءته من الطيور . كان تفكيره ذاك ضربا من القدرية الرواقية التى لايمكن التنبؤ بحدودها . وسأله (البعرور) يوما وهو يشير إلي ما بأذنه :

- ألا يؤلمك هذا ؟

وابتسم جيرمان (الأقرع) ابتسامته الشاحبة الحزينة :

- أحيانا تؤلمنى قدمى عندما يكون المطر وشيكاً ، أما أذنى فلا تؤلمنى أبداً .

ولكن (الأقرع) كان يتمتّع بميزة هى فى نظر روكى (البعرور) أهم من خبرته بالطيور ، وتكمن هذه الميزة في ضعف بنيته . فقد كان جيرمان (الأقرع) يمثل فى هذا المعنى طعما ممتازا لافتعال العراك . وكان روكى (البعرور) يحتاج إلى العراك حاجته إلى خبز يومه ويجد فى الاحتفالات الصيفية التى تقام فى القرى المجاورة مناسبات جيدة لتمرين عضلاته ، ويخلق لذلك المناسبة والمبررات الكافية ، فثمّة حرص يضمره بطل البلدة عماده القوة والهيمنة على أبطال البلدات والقرى والضياع المجاورة . وكان جيرمان (الاقرع) ، وهو السقيم الهزيل ، يشكّل نقطة تماس جيدة بين روكى وخصومه ؛ ومحكاً رائعا للكشف عن التفوّق .

كان المشهد حتى اندلاع المعركة واحدا لايتغيّر . فبعد أن يعاين روكى (البعرور) الموقع من بعيد ، يهمس فى أذن (الأقرع) :

- اقتـرب منهم ولاتكّف عن النظر إليـهم فكأنّك تريد سرقـة البندق الذى أمامهم .

ويقتـرب هذا خائفاً . ولكن لامـفر من الصفـعة الأولى ، فهو غـير مستـعد للتفريط بصداقـته الحميمـة مع (البعرور) بسبب صفـعة عابرة . ويقف على مسـافة مـترين من المجمـوعة ويحدق فى أفـرادها ، ثم تنطلق التهديدات :

- لاتنظر هكذا أيها الأبله . أم انك لم تجّرب الضرب من قبل ؟

ولكّن (الأقـرع) يظل رابط الجـأش لايرّف له جفـن ولايتحـّرك من موضعـه وإن ارتعشت بعـض الشىء قدماه : فقـد كـان يعـرف أن دانييل (البوم) وروكى (البعرور) يكمنان خلف منصـّة العازفين . ويعاود زعيم الخصوم الكلام :

- ألم تسمعنى أيها القذر ؟ انصرف وإلا شطرتك نصفين .

ولا يأبـه جـيـرمـان (الأقرع) لتـهـديـده بـل يركّـز عيـنيه ، مـثل مصبـاحين ، فى علبة البندق دون أن يبدى حركـة ودون أن ينطق بكلمة ، وإن كان يخمّن فى داخله مكان الضربة ويفكر إن كانت كثافة العشب الذى يقف عليه كافية لتخفيف أثر الصدمة .

وينفذ صبر العدو الشقى :

- خذ أيها المتطفّل . . . ليكون لك درساً .

الغريب فى هـذه المناسبات أن جيرمان (الأقرع) كـان يحس بنجدة (البعـرور) قبل إحساسـه بحرارة الصفـعة . كان يحس بنجـدته وصوته القريب القوى الراعى :

- ضربت صديقى ، أليس كذلك ؟ - ثم يضيف وهو ينظر بتأثر إلى جيرمان - : هل قلت شيئاً يا أقرع ؟

- لم أفتح فمى . بل ضربنى لأنى كنت أنظر إليه وحسب .

وهكذا تتوفر لـلشجار عناصره ويكون (البـعرور) صاحب حق لأن الآخر ضرب صاحبه لمجرد أن هذا كان ينظر إليه ، أى من دون سبب كاف أو تبرير تجيزه قواعد الشرف الأساسية السائدة بين الصبيان .

ولما كان تفّوق روكى (البـعرور) فى هذا الميدان أمرا مـفروغاً منه ، فقد كان المشهد ينتهى دائما بجلوسهم فى « معسكر » الأعداء لأكل البندق الذى خلفّوه .

الفصل السابع

ما كان بين الثلاثة مجال للخلاف ، فـالكل يعرف موقعه بين أقرانه : دانييل (البوم) يدرك أنه قادر على تجاوز (البعرور) رغـم أنه يفوقه ذكاءً، وجيرمان (الأقرع) يّقر بأنه أدنى من الاثنين الآخرين مرتبة رغـم أن خبرته في الطيور تفوق مالديهـما منها سعة وتفصيلا . فـالتفوق هنا ليس مرهوناً إذاً بالذكاء ولا بالقـابليات ولا بالإرادة بل بالعضـلات . وهو أمر معـقول ومنطقى ومـقبـول . ولكن هذا لا يمنع أن يكون دانييل (الـبوم) الوحـيد القادر على اللحاق بقطارات البضائع وهى تنوء بحملها صاعدة أو بقطارات البـضائع والركـاب شـرط ألا تكون فرغت من حـمولـتهـا أو ركّبت لهـا مقطورات جديدة . وما كان (البعرور) و (الأقرع) يضارعانه فى الجرى ، ولكن خفّـة الرجلين ما كانت هى الأخـرى الأساس فى التفّـوق ، أنها مجرد صفة جديرة بالتقدير ، لا غير .

كان الأصـدقاء الثلاثـة يتردّدون أيام الأحد والعطلة الصـيفـية ، على الحقول والتلال ، ويقصدون ملعب الصوبلجان والنهر . وكان لهوهـم متنوعا وفيه شئ من البدائية والقسوة . وليس من العسير فى مثل هذه السن العثور على اللهـو فى أى مكان . كانوا أحـيانا يعـملون بمصيـاداتهم تقتـيلا فى الزرازير والشحارير وطيور السمّان ، فقد كان جيرمان (الأقرع) يعرف أن الزرازير والشحارير والسمّان ، وهى من فصيلة واحدة ، تفضّل أن تعشّش بين شجـيرات العوسج والعلّيق سـاعات القيظ . وكـان اصطيادها ، وهى بعد غافـية على الأشجار أو فى الطريق ، يستـدعى الخروج باكراً ، لذلك كانوا يفـضّلون البحث عنهـا وقت اشتـداد الحر ، عندما تـكون راقدة بين الأحـراج ، فالرمية حينها تكـون أقصر والهدف أثبت والصيـد ، بالتالى ،

يكون أسلم وأضـمن . ماكـانت عند دانيـيل (البـوم) أكلة ألّذ من طبق الزرازير بالرز . وكـان إن اصطاد أحدها تمـتّع حتى بنتف ريشـه ، إلى أن اكتشف يوما أن جميع الزرازير تقريباً تحمل قملاً تحت ريشها . وعندما أبلغ جيرمـان (الأقـرع) باكتشافـه العجيب ، أصيب بخيبة أمـل إذ ردّ عليـه (الأقرع) قائلاً :

- أوّ لا تعرف ذلك ؟؟ كل الطيور تقريبـا تحمل القمل تحت ريشها . ويقول أبى إن القرع جاءنى من طائر الوقوق .

وقرر دانيـيل (البوم) ألاّ يحاول اكتـشاف جديد فى عـالم الطيور ، فان هو أراد معرفة شئ عنها ، فعنده (الأقرع) ، فذلك أيسر وأسرع .

وكانوا أحـيانا يذهبـون إلى ملعب الصـولجان ، وروكى (البـعرور) هناك هو المتفوّق المطلق ، ومـا كان يجدى ان يهبهما عـددا من النقاط قبل بداية اللعب ، لأنه عند النهاية يكون قد سجل أعلى النقاط ومن دون عناء بينما لم يضف أى منهمـا شيـئاً على النقاط التى نالوهـا هبة ومنّة . كـان (البعـرور) يبدى فى هذه اللعبة قـوّة الرجال وثباتهم وبراعتـهم . أما فى مسابقات أعياد العـذراء ، فلم يكن (البعرور) ، وهو ينافس جميع رجال البلدة تقريبا ، يرضى بأقلّ من المرتبة الرابعة .

وكان بلوغه المبكر هذا يغيظ سارة أخته :

- دابة . . . . لن تصبح إلاّ دابة كأبيك .

وينظر إليها ياكو الحداد بعينين مبتهلتين ليقول كمن يصلّى :

- اللهم آمين .

لكن الأصدقـاء الثلاثة كانوا يجـدون التسلية كامـلة والمتعة كبـيرة فى النهر ، على الطرف الثانى المقابل لحانة كينو (الأقطع) ، حيث يمتد حقل فسيح تتوسطه بلّوطـه عظيمة ويحدّه فى نهايته سور حـجرى وعر يفصلهم

عن بقية الوادى . وفى مقابل السور « بركة الانكليزى » وبعد أمتار قليلة منها يبدأ النهر بالانسياب على عمق بسيط بين صخور وأحجار صغيرة . وهنا كان الثلاثة يصطادون السرطانات بأيديهم : يرفعون الأحجار بحذر ويمسكون بالحيوانات بقوة من طرف درعها العريض بينما تلوى هى فكوكها وتجاهد فى فتحها وغلقها فى محاولة أخيرة عقيمة للتملّص .

أما فى « بركة الانكليزى » فكانوا يصطادون الاسماك الصغيرة التى تندفع فى مجموعات ضخمة تجعل لون المياه داكناً . كان يكفى لاصطيادها بالعشرات أن يرمى فى الشبكة بأى طعم اصطناعى حاد اللون . ولكن وفرتها وسهولة اصطيادها جعلت الأولاد يستهينون بها وانتهى الأمر بهم أن عافوها . وحدث لهم مثل هذا مع الآس والزعرور الشوكى والتوت والبندق البرّى . ومما عمّق شعور الازدراء هذا فيهم أن دون مويسيس المعلّم كان يفضّل الطلاّب الذين ينفقون ساعات الفراغ البليدة فى جمع التوت والزعرور الشوكى لاهدائه إلى أمهاتهم أو فى صيد الأسماك الصغيرة ، كى ينالوا ، فوق هذا كله ، الشهادات التقديرية والدرجات العالية ومراتب الشرف فى نهاية السنة الدراسية . كان روكى (البعرور) ودانييل (البوم) وجيرمان (الأقرع) يشعرون تجاه هؤلاء بالازدراء ذاته الذى يشعرونه تجاه التوت والبندق البرى والأسماك الصغيرة . وفى ساعات القيظ الصيفية ، كان الأصدقاء الثلاثة يسبحون فى « بركة الانكليزى » ، فلا متعة لديهم تعادل متعة الإحساس بالماء وهو يلامس جلودهم فيبرّدها . كانوا يسبحون على شاكلة الكلاب فيشقّون الماء ويزيحونه من دون أن يحدثوا ، وهم مغمورون فيه ، أدنى ما يوحى بوجود حياة على امتداد مائة متر صعودا ونزولا .

وبينما كانوا مرة يفترشون حقل البلوطة يجففّون أجسادهم الصغيرة ، عرف دانييل (البــوم) وجيرمان (الأقرع) مـا يعنى أن يكون البطن يابسًا والمقصود بالاجهــاض . كان عمر دانييل حينها سبع سنوات ، أمـا جيرمان فكان فى الشـامنة . وكان روكى (البـعرور) عـاريا إلا من سروال مـرقوع ارتداه بالمقلوب . أمّا (البوم) و (الأقــرع) فكانا عاريين تماما إذ لـم يكن الحياء قـد ولد فيهما بعــد ، وكان روكى (البعرور) هو من أيقظه فيــهما ذلك اليوم .

ويقرن دانييل (البوم) ذلك كلّه ، دون أن يعـرف له تفسيرا ، بحوار جرى له مع أمه قبل ذلك بأربع سنين عندما حمل إليها صورة بقرة هولندية عظيمة .

قالت هى :

- ما أجملها ، دانييل ، أليس ذلك ؟ . إنها بقرة حلوب .

نظر الطفل إليهــا مندهشا ، إذ لم يشاهد من قـبل لبناً إلا فى القدور والجرار :

- لا ، أماه ، إنها ليست حلوبا . انظرى ، إنها لا تحمل جرارا .

وضحكت الأم من سذاجته وأخذته فى حضنها وقالت :

- البقرة الحلوب لا تحمل جرارا ياولدى .

نظر إلى وجهها ليرى إن كانت تخدعه . رآها تضحك فخمّن أن شيئا خفيا يقف وراء ذلك كله . ما كــان يعرف وقتهــا ، بسنواته الثلاث ، أن « هذا » موجود ، ولكنه شعر فى تلك اللحظة بـوجوده . وأضاف متسائلا وقد تملّكه حرص مفاجئ على معرفة كل شىء :

- فأين تحمل اللبن إذاً ، أماه ؟

وواصلت أمه الضحك ، وتلعثمت قليلا وهى تردّ عليه :

- فى البطن طبعاً . . .

ودوت حيرة الطفل فى ما يشبه الانفجار :

- ماذا ؟

فأضافت وهى تشير بظفرها الافطس إلى ضرع البقرة البنّى :

- البقرة الحلوب تحمل لبنها فى بطنها .

وتردد دانييل (البوم) برهة وهو ينظر إلى الضـرع المنتفخ ؛ ثم أشار إلى الحلمة :

- واللبن يخرج من هذه النقطة ؟

- نعم ، ياصغيرى ، من هذه النقطة .

ولم يستطع دانيـيل تلك الليلة التفكير فى شىء آخـر . كان يرى فى ذلك كلّه سراً خفيّـا عليه ، غير خفّى على أمه . فـهى تضحك على غير طريقتـها عندما يسـألها عن أمور أخـرى . ثم بدأ ينسى الأمر تدريجـيا . وبعد أشهر اشترى أبوه بقرة ، ثم رأى بقرات الصيدلى العشرين ، ،ورآها وهى تحلب ، وصار بعدها يضـحك كثيرا لمجرد التـفكير فى أنه تصوّر فى يوم من الأيام أن البقرات التى لا تحمل جرارا لا تعطى لبناً .

تذكّر دانيـيل صورة البقرة الهـولندية ذلك العصر بينمـا هم فى حقل البلوطة جنب النهر وبينما كان (البعرور) مسترسلا فى الكلام .

كانوا قـد خرجوا لتوهـم من المـاء ، وكانت سياط باردة من نسـمات عليلة تجفّف أجسـادهم ؛ مع ذلك ، فقد خيّمت على الجـو حرارة شديدة دبقة . وشـاهدوا ، وهـم مسـتلقون على ظهـورهم ، طائرا كبـيرا مـحلّقا فوقهم . وصرخ (البوم) :

- انظروا . لاشك أنه اللقلق الذى تنتـظره معلّمـة « لاكويرا » فـهو ذاهب فى هذا الاتجاه .

وقاطعه (الأقرع) :

- ليس هذا لقلقا بل كركى .

وجلس (البعـرور) على العشب وهو يزّم شفتـيه متبرمـاً ساخطاً .

وتأمّله (البوم) بإعجاب وهو يملأ صدره العظيم بالهواء ثم يفرغه منه .

قال (البعرور) :

- أى لقلق هذا الذى تنتظره المعلمة ؟ أما زلتم على هذا التفكير ؟

وعدّل (البوم) و (الأقـرع) من وضعيهمـا وجلسا على العشب .

كانا ينظران إلى (البعرور) بتطلع ويخمنان أنه سيقول شيئا عن « هذا » .

ومهّد له (الأقرع) مستفهماً :

- من يأتى بالأطفال إذاً ؟

والتزم (البعرور) الجدّ وهو يعى تفوّقه فى تلك اللحظة .

- الولادة - قال بحزم ومن دون مقدّمات -

- الولادة ؟ - - تساءل الاثنان -

- نعم ، الولادة - قال مؤكّدا - . ألم تشاهدوا أرنبة تلد ؟

- بلى .

- وكذلك الإنسان .

وارتسمت على وجه (البوم) أمارات ذهول مضحكة :

- تقصد أننا أرانب ؟

كانت بلادة محاوريه تثير غضبه . قال :

- ليس كذلك ، بل هناك ، بدل الأرانب ، امرأة هى الأم .

ولمع فى عينى (الأقرع) بريق ذكاء غريب :

- فليس اللقلق إذاً من يأتى بالأطفال . لقد كان يـبدو لى غريبا حتى

أننى كنت أقـول لنفـسى لماذا يزور اللقلق أمـى عشـر مـرات وهى التى لا ترغب فى كثـرة الأولاد ، بينما لا يزور جارتنا (الفطسـاء) ولا مرّة وهى التى تتمنّى أن يكون لها ولد ؟

وخفض (البعرور) صوته . كـان يخيّم على المكان صمت لا يشوبه غيـر طرطشـة بلورية تنبعث عن تيـارات النهر وغـير حـفيف ناعم تحـدثه ملامـسة الهـواء لأوراق الأشجـار . كـان (البوم) و (الأقرع) فـاغرى الفم . قال (البعرور) :

- أتدرون ؟ الولادة مؤلمة .

وانفلت التردد المكبوت فى نفس (البوم) :

- من أين تعرف كل هذا ؟

- هذه أشياء يعرفها كل الناس الا انتمـا لانكما تعيشان غافلين . أمى ماتت من شـدّة الآلام التى أحست بها وهى تلـدنى . لم تمرض بل ماتت من شدّة الألم . يبدو أن الألم لا يطاق أحيانا فيؤدى إلى الموت ، من دون علّة ، فقط من شدة الألم .

- وأضاف وهو يـشعر بالنـشوة لانشداد مـستـمعـيه إليـه : - نسوة أخريات ينشطرن من النصف . سمعت ذلك من سارة .

وعلّق (الأقرع) :

- ثم بعد ذلك يمرضن ، أليس كذلك ؟

ويخفض (البعرور) صوته أكثر ليؤكد سرية مايقول :

- يمرضن عنـد رؤية الطفل . فـالأطفـال يولدون والشـعـر يغطى أجسامهم ، دون عـينين أو أذنين أو أنف . يولدون وهم لايملكون غير فم كبير للرضاعة ، بعد ذلك تبدأ العيون والآذان والأنف بالظهور .

كان (البوم) يستمع إلى (البعرور) مختـتلجا متلهفا . كانت تتفتح أمام عينيه آفاق جديدة هى فى نهاية المطاف ، علّة الحياة والخليقة . وأحّس فجأة بالخـجل وهو يرى نفسه عـاريا فى الهواء الطلق . وأحّس فى الوقت ذاته بحب متجدّد متدّفق نحو أمه ، وشعر فى داخله وللمرة الأولى بعاطفة الدم ، وإن لـم يدرك كنههـا . فبينه وبين أمه رابطة ، شئ ما يـجعل منها عنصراً حـيوياً لا يمكنه الاستـغناء عنه . والأمومة هكذا أجـمل ، لأنها لا ترتبط بصدفـة ولا بنزوة لقلق مزيفة . وشعـر دانييل (البوم) أن أكـثر ما أعجبه من كل ما صـار يعرفه عن « هذا » هو إدراكه أنه ثمرة ألم عظيم ، وأن أمه ما كانت لتتجنّب ذلك الألم لأنها راغبة فى أن تلده هو بالذات .

ومنذ ذلك الحين صار ينظر إلى أمه بطريقة مختلفة ، ومن زاوية أبسط وأكثر إنـسانية ، ولكنها أصـدق وأكثر عاطفـة . وصار يلفّه فى حضـرتها إحساس غريب ، إحساس بالموازاة وبالحاجة المتبادلة . فكأن قلبيهما ينبضان فى وقت واحد ، معاً .

وما عـاد يذهب للسبـاحة فى « بركة الانكلـيزى » إلا وهو يرتدى ، بالمقلوب (كـالبعـرور) ، سروالا قـديمـا مـرقوعـا . ويفكّر فى بشاعـة صورتـه ساعـة ولادته وقـد غطى جسمـه الشعـر دونمـا عينين ولا أذنين ولا منخرين . . . غـير فم عظيم شـره ، ويقول فى نفسـه : « كنت مثل حيوان الخلد » . ثم لا يلبث اختلاجه الأولى أن ينقلب إلى ضحكة طويلة متشنجة .

الفصل الثامن

كانت (الفلفلة) الصغرى ، حسب قول روكى (البعرور) ، واحدة من ذوات البطون اليابسة فى البلدة . ومع صعوبة التحقق من ذلك ، فليس لقوله دلالة خاصة لأن كل ما فى (الفلفلات) يابس .

لقد عادت صغرى (الفلفلات) إلى البلدة فى قطار المحافظات بعد ثلاثة أشهر وأربعة أيام من هروبها . وكان حادث عودتها ، كحادث هروبها من قبل ، موضوع الوادى كله وإن مرّ بعد ذلك وطواه النسيان كغيره وحلّ محله حدث آخر أعقبه غيره غطّى عليه . وهكذا كان يسطّر تأريخ الوادى بسيطا موجزا . (الفلفلة) عادت بالطبع بمفردها ، أما ديماس ، موظف المصرف ، فلم يعادو الظهور رغم أن دون خوسيه القس لم يجد فيه امرء سوء . وسواء أكان ديماس طيبا أم سيئا فقد تبخر فى الهواء كالصدى بين الجبال . ومن دون أثر يذكر .

وكان كوكو ، مأمور المحطة ، هو من حمل الخبر إلى البلدة . فبعد « اذاعة » دون رامون الصيدلى ، كان مأمور المحطة يمثل وكالة الأنباء التى يفضلها أغلب سكان المنطقة فالأخبار التى يبثها غريبة دائما وطارجة رغم أنها ليست على الدوام بناءة . وكوكو هذا رجل ذو شخصية قوية طاغية . وكان دانييل (البوم) معجبا بطبعه ومعارفه والسهولة التى يصرّف بها دخول القطارات وخروجها وحركتها فى الوادى . فكل ذلك يستدعى مقدرة ، وما سماحة طبع المأمور وموهبة التنظيم عنده بالأمور المرتجلة أو الطارئة عليه . عندما نزلت ايرنيه ، صغرى (الفلفلات) ، من القطار كانت الدموع تملأ عينيها ، وبدت أشد نحولا وهزالا مما كانت عليه وقت هروبها قبل ذلك بثلاثة أشهر . وبدت وكأنها تسير مثقلة بحمل خفّى

أحـدودب له ظهرها . كـان ، بلا شك ، من أثر تأنيب الـضمـير . أمـا ملبسها فكان مما ترتديه الأرامل ، الأرامل المفـجوعات ، سواد في سواد ، مع منديل أسود صفيق يغطي وجهها .

كان المطر قد هطل طوال النهار ، ولم تكن (الفلفلة) ، وهي ترتقي العقـبة في الطريق إلى البلدة ، تحـرص على تجنب الحفر ، بل كـانت تجد عزاء غريبا في غـمس قدميها الصغـيرتين المرة تلو المرة ، في البرك الموحلة المتناثرة على الطريق .

وبدت (الفلفلة) الكبرى منذهلـة وهي ترى أختها تقف مـترددة أمام باب الدكان . مرّرت يدها أمام عينيها وكأنها تحاول طرد شبح مخيف .

– نعم ، لولا ، أنا ايرنيه – همـست الصغرى – لاتستـغربي . لقد عدت ، عدت خاطئة نادمة . هل تسامحيني ؟

– بحق دهر الداهرين . تعالي هنا . . . ادخلي .

وتوارت الأخـتان في الحـجرة الملحـقة بالدكـان ، وهناك تأملت كل واحد منهـما الأخـرى بصمت . أما الصـغرى فظلت منكمـشة مـخذولة مطأطئـة الرأس . أما الكبرى فـبدت وكـأنهـا سمنت مع رجـوع الأخرى نادمة .

– هل تدركين – ، ايرنيه ، مافعلت ؟ – بادرتها القول .

– اسكتي ، أرجوك – تأوهت الأخت الصغرى وانخرطت على المائدة تبكي بمرارة .

واحتـرمت (الفلفلة) الكبرى بكـاء أختهـا ، فالبكاء لازم لتطهـير النفس . ولما اسـتعـادت ايرنيه هدوءهـا ، تبادلت النظرات مع أخـتهـا . ماكانت الأختان بحـاجة للكلمات لتتفاهما ، فقـد كان التفاهم ينبع مما لا يعبر عنه بكلام .

- ايرنيه . . . هل . . . ؟
- نعم .
- يا الهى .
- لقد خدعنى .
- خدعك أم خدعت نفسك ؟
- لا فرق ، أختاه .
- هل كان زوجك عندما . . . ؟
- لا . . . ولا هو كذلك الآن .
- يا الهى وهل تنتظرين . . . ؟
- لا . لقد قـال لى . . . قال لى . . . - وقطع النحيب صـوتها .
وساد الصمت من جديد . ثم سألت (الفلفلة) الكبرى :
- ماذا قال لك ؟
- قال إنه عقيم .
- النذل .
- وهكذا ترين أننى لن أحمل منه .
وهنا فقدت (الفلفلة) الكبرى آداب اللياقة ومعها زمام الأعصاب :
- فأنت إذاً تعرفين مـافعلت ؟ لقد ضيّـعت شرفنا . أهدرت شرفك وشرفى وشرف والدينا المرحومين .
- لا ، هذا لا ، لولا ، بحق السماء .
- ماذا تظنين إذاً ؟
- كفاك وهما أختاه ، نحن الدميمات لاشرف لنا .
وعلت وجهها ايماءة تسليم وهدّها يقين راسخ . ثم أضافت :
- هو قال لى ذلك .

- ولكن ألا تعلمين أن شرف المرأة أعز عليها من الحياة ؟
- أعلم ذلك ، لولا .
- إذاً ؟
- سأفعل ما تأمرين به أختاه .
- وهل أنت مستعدة ؟
خفضت (الفلفلة) الصغرى وقالت :
- نعم .
- تلبسين السواد بقية عمرك ، وتبقين حبيسة الدار خمس سنين . هذه هي شروطي .
- أقبل بها .
- اصعدي إلى البيت إذاً .
وأغلقت (الفلفلة) الكبرى الدكان بالمفتاح وصعدت وراء أختها . وفي الحجرة جلست ايرنيه على حافة السرير ، وجاءتها لولا بطست فيه ماء فاتر فغسلت لها قدميها . كانت الاثنتان في تلك الأثناء صامتتين . ولما انتهتا تنهدت (الفلفلة) الصغرى ثم قالت :
- ما أحقره !
ولم تعلق (الفلفلة) الكبرى بشيء . كان بؤس أختها يضفي عليها وقارا صارما .
وواصلت هذه الكلام :
- كان طامعا في مالي . كان ، ابن الحرام ، يظن أن لدينا مالا كثيرا

- ولماذا لم تقولي له منذ البداية إننا لا نملك غير ألف دورو ؟
- كان ذلك سيعني ضياعي ، أختاه . كان سيهجرني وأنا أحبه .

- ما أضاعك هو سكوتك يامجنونة .

- لقد صرف كل مامعى .

- ماذا ؟

- عاشرنى مادامت النقود معى ، ولما انتهت تركنى مرميّة تائهة . إنه نذل ، يا أختاه وفاسد وقاس .

واكتست وجنتا (الفلفلة) الكبرى الهزيلتان بمزيد من الحمرة وقالت:

- إنه لص . هذا هو وصفه . إنه مثل ديماس الآخر .

وسكتت بعد أن هدأت سورة غضبها ، ولكن الوساوس لم تلبث أن بدأت تنخر فى ضميرها . فما الذى تفوهت به عن اللص الطيب ديماس ؟ ألم يرض الرب عن هذا الصنف من التائبين ؟ وأحست بوخز شديد فى ضميرها « غفرانك اللهم وعفوك » وقررت أن تذهب من غدها إلى دون خوسيه للاعتراف ، فهو القادر على مواساتها والصفح عنها . وكان ذلك هو كل ماتحتاجه آنذاك : قليلا من المواساة . ومررّت من جديد يدها من أمام عينيها محاولة طرد الكابوس . وخطت بقوة وقالت :

- حسنا أختاه : غيّرى ملابسك . أنا نازلة إلى الدكان . وعندما تنتهين من تغيير ملابسك يمكنك الخروج إلى الشرفة لسقى الجيرانيو كما كنت تفعلين من قبل . وغداً ستذهبين لزيارة دون خوسيه ، فعليك أن تعجلى بتطهير روحك الشقية .

وقاطعتها (الفلفلة) الصغرى :

- لولا .

- ماذا ؟

- أشعر بخجل شديد .

- وهل بقيت لديك فضلة منه ؟

- من ماذا ؟

- من الخجل .

وأبدت ايرنيه ايماءة يأس :

- لا استطيع أختاه .

- لو أنك خجلت عندما هربت مع رجل غريب لما فعلت مافعلت .

- لا أستطيع . . . لأن دون خوسيه . . . قديس . لولا ، افهمى ذلك . إنه لايقّدر ضعفى .

- دون خوسيه يقّدر كل الضعف فى البشر ، فالرب موجود فيه . ثم أن التوبة الخالصة هى إحدى شروطى أتفهمين ؟

وسمع صوت قطعة نقود تضرب بزجاج الدكان ، فقالت (الفلفلة) الكبرى وقد نفد صبرها :

- هيا ، عليك أن تقررى ، فهناك من ينادى فى الأسفل .

وأجابت ايرنيه فى نهاية الأمر موافقة :

- حسنا ، لولا ، سأذهب غدا للاعتراف .

ونزلت (الفلفلة) الكبرى إلى الدكان وفتحت الباب فدخلت كاتالينا (الأرنبة) . كانت هذه ، شأن أخواتها ، مقلوبة الشفة العليا ، وكان أنفها الصغير ينكمش وينبسط فكأنه لا يكف عن الشم . ومن هنا دعين بـ (الأرنبات) ؛ وكذلك لقبن بـ (الكاكات) لأن أسماءهن هى كاتالينا وكارمن وكاميلا وكاريداد وكاسيلدا ولأن أباهّن كان لجلاجا يتلعثم بالكاف وهو يناديهن .

واقتربت كاتالينا من طاولة البيع :

- أريد ملحا ببيزته .

وبينما كانت (الفلفلة) الكبرى تلبّى طلبها ، رفعت وجهها الأرنبى

صوب السقف وارتعشت ارنبتا أنفها لثوان :

- لولا ، هل عندك غرباء ؟

وانغلقت (الفلفلة) باحكام على نفسها ، فالأرنبات يدرن بدالة البلدة والأخبار تصل اليهن بالسرعة نفسها تقريبا التى تصل إلى كوكو مأمور المحطة .

- لا . لماذا ؟ - ردّت بحذر -

- كأننى سمعت صوتا فى الأعلى .

- قد يكون القط .

- كلا ، كلا ؛ إنه وقع خطوات .

- القط أيضا له خطوات .

- افهمينى ، لولا ، أنها خطوات آدمى ، ولا أظنه لصاً .

- خذى الملح - قالت (الفلفلة) الكبرى مقاطعة .

وتطلعت (الأرنبة) من جديد إلى السقف وتشممت حولها مرارا وتكرارا ، وعندما وصلت إلى الباب التفتت لتقول :

- لولا ، مازلت أسمع وقع الخطوات فوق .

- حسنا ، اذهبى أنت فى أمان الله .

ولم يحدث أن تردد عدد من الناس على دكان (الفلفلات) كما حدث ذلك المساء . كما لم يحدث أن خرج من ذلك العدد الضخم من الزبائن مبلغ على ذلك القدر من الضآلة .

كانت ريتا (البلهاء) ، امرأة الإسكافى ثانية الزائرات :

- اعطينى بريالين من الملح .

- ألم تشترى ملحا أمس ؟

- بلى ولكننى أريد المزيد .

ويعد توقف خفضت (البلهاء) صوتها .

- النور مضـاء فى الطابق العلوى ، ولا بد أن عدّاد الكهـرباء يجرى بسرعة .

- وهل ستدفعينه عنى ؟ .

- كلا بالطبع .

- دعيه يجرى إذاً .

وتقاطرت من بعد باسى ، خادمة الصيدلى ، ونيوكا ، امرأة الجانو ، وماريا (الفطساء) ، وكانت هى الأخرى يابسة البطن ، وسارة (البعرورة) و (الأرنبات) الأربـع الباقيات وخـوانـا ، القيمة على منزل دون انطونيو (الماركيز) وروفينا ، زوجة بانجو ، التى ما عادت منذ أن تزوجت ، تؤمن بالرب ولا بالقديسين ، وعشرون امرأة سواهن . جئن جميعهن ، باستثناء (الأرنبات) الأربع لشراء الملح ، وسـمعن كلهّن وقع خطوات فى الطابق العلوى وقلقن كـافتّـهن وهّن يرين النور مـضاء وعـداد الكهربـاء يسـرع الجريان .

وفى الساعـة العاشرة ، عندمـا كان الهدوء يخـيم على البلدة ، علا صوت پاكو الحداد القوى الصارم كان يسيـر مترنحا فى الشارع فتوقف أمام شرفة (الفلفلات) . كان يحمل فى يمناه زجـاجة ويهرش باليسرى قفاه . ولو لم تكن البلدة كلها قد علمت بالخبر لما كـان لعباراته التى تفوه بها من معنى ولا كان بينها من ترابط .

- عـاشت الأخت الضالة ، عـاشت صاحـبـة الفخـذين الناشفـتين والصدر المتخشب . . .

وقام بحركة هزلـية متصنعا الذهول وعاود هرش قفـاه وتجشأ ثم نظر من جديد إلى الشرفة وقال :

- من خطف قلبك ؟ ديماس ؟ اللص الطيب ؟

كـان يضحك وقـد التـصقت ذقـنه الجبـارة بصـدره العريض . أمـا (الفلفلات) فقد أطفأن النور ورحن يرقبن مثيـر الفضائح من إحدى فتحات النوافذ . « ومن عساه يكون غير هذا السافل الساقط » دمدمت (الفلفلة) عندما لمحت ضياء مصباح الشارع الخافت منعكسا على شعر الحداد الأحمر الكث . وأصيبت (الفلفلة) الصـغرى بما يشبه النوبة العصبيـة عندما نطق الحداد باسـم ديماس . اطردى هذا الرجل من هنا . أتوسل إليك أختـاه . اطرديه ، فصـوته يفقدنـى صوابى . وحملت (الفلفلة) الـكبرى السطل الذى ينتهى إليـه ماء المغسلة وفتـحت الشباك قليلا لتـسكب ما فى السطل على وجه پاكو الحداد الذى كان فى تلك اللحظة يبدأ هتافه من جديد :

- عاشت الأخـ . . .

وقطعت رشقة الماء عليه العبارة فنـظر إلى السماء ببلاهة وبسط ذراعيه العظيمتين ، اللتين شكلتا مع بدنه صليبا ، وقـال مخاطبا نفسه وهو يتقّدم مترنحا صوب الطريق العام :

- عد إلى بيتك ياپاكو ، فالسماء تمطر من جديد .

الفصل التاسع

لقد أدرك دانيـيل (البوم) أن ليس من السهل عليه أن ينـام ، فرأسه الجامح فى انفعال محموم نحـو الذكريات كان يغلى باحتدام لا يعرف لحظة من الهدوء . المشـكلة هى أن عليه أن يبكر فى غـده ليأخذ القـطار السريع الذى سيحمله إلى المدينة . ولكنه غيـر قادر على تجنب التفكير . لم يكن هو من يسـتحـضر الأشـياء والوادى بل كـانت الأشيـاء والوادى هى التى تفرض نفسها عليه وتلّفه بلغط الحياة فيـها وبسعيها الدؤوب وبتفاصيل يومه الكثيرة التافهة .

من خلال النافـذة المفتوحة المواجهـة لسريرة الشكّاء كان يشـاهد قمة جبل « راندو» مـغروسـة فى جوف السـماء المليـئة بالنجوم . وكـان الليل يضفى على الجـبل لونا مظلما كـالحا . فذلك الـليل ، كعهـده منذ احدى عشرة سنة ، يتحكم فى الوادى كما يتّحكم روكى (البعرور) فى صاحبيه (البوم) و (الأقرع) . كانت حكاية الوادى القصيرة تمر فى مخيلته فتراها عينا روحه ، بينما تؤجج صافرات القطارات القـاصية وخوار الأبقار الحالم ونقيق الـضفادع الكثـيب المنطلق من تحت الأحجـار وروائح الأرض النديّة حنينه وتضفى على ذكرياته لمسة من واقعه المحسوس .

مع ذلك فهذه الليلة لا تختلف عن كثيرات غيرها مررن على الوادى. إنها ، دون إمـعان فى التـذكر ، كتـلك الليلة التى تسلقوا فـيهـا سـياج مزرعــة (الامريكى) ليسرقوا التفاح .

ما كـان التفاح فى الـواقع يعنى شيئـاً بالنسبـة لـ (الأمريكى) الذى يمتلك فى المكسيك مطعمين فاخرين ومـعرضا لاجهزة الراديو وثلاث بواخر ملاحيـة . كما لم تكن تفاحـات (الامريكى) تعنى الكثير بالنسـبة إليهم

وهم الذين يجدون فى حدائق بيوتهم من التفاح ما يعدل تفاح تلك المزرعة جودة . أمّا لماذا يسرقون التفـاح فتلك مسـألة بالغة التـعقـيد . ربما ، و ببسـاطة ، لأن أياً منهم لم يكن تجاوز حينهـا التاسعة من العــمر ، ولأن الاحساس بالممنوع كـان يطبع أفعالهم الصبـيانية بمتعة لا يمكــن وصـفها .
انهم يسرقون (الامريكى) تفاحـاته للسبب ذاته الذى يجعلهم يتحدثون ، وهم فى الجبـال أو فى حقل البلــوطة بعد السبـاحة ، ويضربــون أخمــاسا لأسداس حول « هذا » الذى هو فى الواقع علّة الحياة وسرّها .
لم يكن خيرارردو ، قبل أن يهاجر من البلدة ، يدعى بـ (الأمريكى) كان ، وحسب ، الابن الأصغر للسيدة مــيكائيلا القصّابة ، والأشد خجلا بين أولادها على حدّ قولها . وإذا كانت أمــه تؤكد أنه « الأشد خجلا بين أخوته » فان أهل البلدة يجزمون أنه كان ، قبل رحيله ، نصف أبله وإنه لو قصد الكسيك حقا فلن ينفع إلا أجيراً او حمالاً فى الميناء .
ولكن خيــرارردو ذهب وعاد ، بعد عشـرين عامــا ، ثريا . لم يكتب لأحد طوال ذلك الوقت ، وعندما عــاد إلى الوادى كان الدود قد أتى على دفتى والدته القصابة وكبدها وكليتيها .
ويكى خيرارردو ، الذى صار يدعى بـ (الأمريكى) . برهة فى المقبرة المجاورة لـلكـنيســة دون أن يتدلى المخــاط من منخريه كــما كـان حــاله فى الصغر ، ودون أن يسيل رواله كشأنه آنذاك .
بكى بصمت دون أن يذرف دمعة واحدة ، وكــما يبكى المتحضرون ، على حد تعبير القـيّمة على بيت دون انطونينو (المازيك) . ومعنى هذا أن خيرارردو تغيّر كثيرا . أمـا أخوته فقد بقوا فى مكانهم لا يبرحونه رغم أنهم كانوا ، فى نظر أمهم ، أكــثر ذكاء منه . لقد حل الأخ الكبيــر - قيصر - فى دكان والدته ليبيع الأكبــاد ولحم الدفتين والكلى إلى أهل البلدة وليموت

بعد سنوات كما ماتت السيدة ميكائيلا وليهب ، كما فعلت هى ، كبده ولحم دفتيه وكليتيه إلى دود الأرض . فما أعجبه من سلوك متناقض غريب ! أما الآخر ، داميان ، فكان يمتلك أرضا زراعية على الجانب الآخر من النهر . ما كانت تساوى شيئا بل كانت مساحات من المروج وحقول الذرة الذاوية يقتات منها أربعة كوارتوس . يكسبها من دزينة الدجاج التى يملكها فى حظيرة داره .

عندما زار خيراردو (الامريكى) البلدة أول مرة . أحضر معه امرأة لا تحسن الكلام وابنة لا تتجاوز العاشرة وسيارة لا تصدر ضجيجا . كانوا جميعا ، والسيارة معهم ، فى أبهى حلّة . وعندما قال خيراردو إنه ترك فى المكسيك مطعمين فاخرين وباخرتين ملاحيتين ، تملق قيصر وداميان لشقيقهما كثيرا وأبديا رغبة فى العودة معه ليصّرفا له شؤون مطعميه وباخرتيه ولكنه لم يوافقهما على ذلك بل أقام لهما محلا للأجهزة الكهربائية فى المدينة . وهكذا رحل هذان عن الوادى وتنكرا له ولأسلافهم وصارا لا يزوران البلدة إلا من حين لآخر . فى أعياد العذراء عادة وهما يرتديان القبّعات المكويّة والياقات المنشأة وليجزلا فى العطاء لمن يخدمهما ولينظما مباريات الأكياس والأشرطة وليضعا على طرف عصا الكوكانيا جائزة الدوروات الخمسة .

سأل الأصدقاء خيراردو مّرة عن سبب زواجه من شقراء لاتحسن من الكلام إلا قليله وهو من هو شأنا ومكانه فابتسم (الامريكى) وردّ عليهم من دون انفعال قائلا لهم أن للشقراوات فى أمريكا قيمة عالية ، وأما عن لسانها فانها تتكلم ولكن بالانكليزية لأنها يانكى . ومنذ ذلك الوقت صار اندريس ، الرجل الذى لايرى من جانبيه ، يطلق اسم (يانكى) على كلبه لأنه ، كما يقول يتكّلم كما تتكلّم امرأة خيراردو (الامريكى) .

على أن (الامريكى) لم يتنكر لبلدته ، والناس عندما يصيرون أغنياء يتعلّقون بالمكان الذى كانوا فيه من قبل فقراء ، وهذه هى أفضل طريقة للبرهنة على الانقلاب الذى طرأ على حالهم وأوضح سبيل للشعور بالسعادة وهم يرون الآخرين ، وكانوا مثلهم فقراء ، وقد ظلوا على فقرهم رغم مرور الزمان . لقد اشترى بيت أحد المصطافين ، أمام الصيدلية ، وحوّره وملأ حدائقه بالنباتات الجميلة وبالأشجار المثمرة وصار يأتى من وقت لآخر لقضاء بعض الوقت فى البلدة . وقد اعترف مؤخرا أمام أصدقائه القدامى أن أحواله فى المكسيك تسير على ما يرام وأنه يملك هناك مطعمين فاخرين توكيلاً لأجهزة الراديو وثلاث بواخر ملاحية أى بزيادة واحدة عن المرة الأولى التى زار فيها البلدة . ولكن مالم يرتفع عدده هم أولاده ، فما كان عنده غير ميكا التى كانوا يدعونها هكذا ، رغم أن اسمها كاسم جدتها هو ميكائيلا ، لأن الأغنياء فى المدن ، حسبما تقول القيّمة على بيت دون انطونينو (الماركيز) ، لا يرغبون فى إضاعة وقتهم فى مناداة الاشخاص بأسمائهم كاملة . ثم أن نحافة الـ (يانكى) ، وهى التى ما كانت تهبط على الوادى إلا لماما ، ما كانت تسمح بإنجاب المزيد من هؤلاء الأولاد . ولو أن الأمر تعلّق بقيصر وداميان لفضّلا لو أن ميكا هى الأخرى لم تولد وان حملوا لها عند قدومها من أمريكا ، باقات الزهور وعلب الحلوى وحملوها إلى أفضل مسارح المدينة وأرقى مطاعمها . هذا، على الأقل ، ماكانت تقوله القيّمة على بيت (الماركيز) .

لقد أحبت ميكا بلدة أبيها ، ولطالما صرحت بأن المكسيك لا تعجبها، أما اندريس الإسكافى فكان يقول إنه عندما يمتلك المرء مطعمين فخمين وتوكيلاً لأجهزة الراديو وثلاث بواخر ملاحية فى بلد ما فليس من الصعب التحقق من إعجابه بذلك البلد أو نفوره منه . وما كان لميكا أى من تلك

الأشياء فـى الوادى ، مع ذلك فقد كانت تبـدو سعيدة فـيه ، تزور البلدة كلما سنحت الفـرصة وتقيم فـيها حـتى يأمرها أبوها بالعودة ، حـتى أنها أقامت مـؤخرا ، وقـد صارت آنسـة ، مدة طويلة فى البلدة بينمـا والداها يقيمان فى المكسيك ، وعمّاها اللذان يدعيان فى البلدة بـ (خيال الأمريكى) يرعيان شؤونها ويزورانها بين الحين والحين .

لقد ولد دانيـيل (البوم) وقت أن ارتفع عدد البـواخر من اثنتين إلى ثلاث، أى عندما كان (الامـريكى) يدّخر لشراء الثالثة . كان عـمر ميكا تجاوز آنذاك التاسعة وكانت قد عرفت البلدة لتوها .

ولكن عندمـا خطرت لروكى (البـعرور) فكرة سـرقة التـفاح كـان خيراردو يمتلك البواخر الثلاث وكان عمر ميكا سبعة عشر عاما . وكان فى مقدور (البـوم) آنذاك أن يستنتج أن (الأمريكى) تقّدم كـثيرا رغم أنه لم ينفق أربعة عشر عاما فى الدراسـة ورغم أن أمه القصّابة كـانت تصفه بأنـه « الأشد خجلا من الآخرين » ورغم أنه كان يمضى اليوم متجّولا فى البلدة وقد تدلّى المخـاط من أنفه وسـال الروال على حنكه . وسواء أكـان الأمر حقيقة أم لـم يكن فهو مـا يقال فى البلدة وليس هناك ما يدعو للظن بوجود اتفاق ليقصّ عليه الجميع كلاما ملفّقا .

عندما تسلقوا سياج مزرعـة (الأمريكى) أحّس دانييل (البوم) بقلبه يدق فى حنجرته . الواقع أنه ما كان راغبا فى تفاح بل فى إتيان شئ محرم . كان روكى (البـعرور) أول من هبط على الجانب الآخر من السـياج ، نزل بهدوء القطط ورشقـاتها فكأن نوابض شدّت إلى ركبتيـه وردفيه . ثم لوّح من مكمنه خلف الشجرة لرفيقيه كى يعّجلا بالنزول . ولكن ما عجّل فى دانييل كان قلبـه الذى راح ينّط مثل مجنون منفلت . كان يشـعر بخدر فى أطرافه ويحسّ برهبة غامضة تبدد جرأته .

قفز جيرمان (الأقرع) ثانيا ثم دانييل (البوم) آخرهم . كان (البوم) مطمئنا بعض الشئ بعد أن انتقلت إليه في الأسابيع الأخيرة عدوى وساوس (الفلفلة) الكبرى . لقد سأل دون خوسيه صباح ذلك اليوم :

– سيدى القس ، أمن الخطيئة سرقة تفاح رجل غنى ؟

فكّر دون خوسيه ، وهو القديس العظيم ، قليلا قبل أن يسمّر فيه عينيه النافذتين مثل طرفى دبّوس :

– فى ذلك نظر ياولدى . فإذا كان غنيا جدا وكان السارق مضطرا للسرقة كيلا يموت جوعا فإن الرب يقّدر هذا فيرحم ويغفر له .

واطمأن (البوم) فى سريرته فخيراردو (الأمريكى) رجل غنى جدا. أما من ناحيته هو ، أفلا يمكن أن يصاب بما أصيب به پيپه (ذو الراس الكبير) الذى صار كسيحا بسبب نقص الفيتامينات حتى أن دون ريكاردو الطبيب نصحه أن يكثر من أكل التفاح والبرتقال إن هو أراد الشفاء من مرضه ؟ ومن ذا الذى يضمن له أنه إن لم يأكل من تفاح (الأمريكى) فلن يصاب بمثل ما أصيب به (ذو الرأس الكبير) ؟

أحّس دانييل (البوم) بطمأنينة أكثر وهو يفكر فى ذلك ، وخفّفت عنه كذلك معرفته بأن (الأمريكى) وزوجته موجودان فى المكسيك ، وأن ميكا و (خيال الامريكى) موجودون فى المدينة وأن باسكوالون عامل الطاحونة والمسؤول عن البستان ، موجود فى حانة الجانو يلعب الموس . فإذا لم يكن ثمة ما يخشاه فلماذا يدق قلبه إذاً بتلك الصورة المضطربة ؟ ولماذا يحّس بفراغ هائل فى معدته ؟ ولماذا تنثنى رجلاه عند الركبتين ؟ . ثم : ليس هناك من كلاب ، ذلك الأسلوب الوقائى الذى لا يروق لـ (الأمريكى) ، ولا من نوابض صائدة ولا شراك مدفونة فعلام الخوف ؟

وراح الثلاثة يتقدّمون بحذر ويتحركون بين أفياء الحديقة الواسعة تحت سماء سامقة مزدانة بنجوم دقيقة ، ويتخاطبون بهمس خفيف بينما العشب يهّس بنعومة تحت أقدامهم ، كان يخيّم على المكان جو من الأصوات الخافتة والهمسات الغامضة تشدّ أعصاب دانييل (البوم) وتوترها .

- وإذا أحّس بنا الصيدلى ؟ - تمتم دانييل فجأة . لكن همسة زاجرة آمرة من روكى (البعرور) أسكتته . إنهم يتقدمون فى المزرعة ، فلا تخاطب بينهم بغير الاشارات . كانت ايماءات روكى العصبية ، وهو يراهم يتأخرون فى فهم إشاراته ، تكتسب فى الظلمة قوة وتأثيرا كبيرين .

ولما بلغوا شجرة التفاح المقصودة ، وكانت ترتفع لعدة أقدام خلف البناء ، قال لهم (البعرور) :

- ابقوا هنا وأنا سأهزها .

وتسلّق الشجرة ، وتسارعت دقات قلب (البوم) عندما بدأ (البعرور) يهّز أغصانها بكل قوته وعندما بدأت التفاحات الناضجة تسقط على العشب وتنقر الأرض نقر البرد . ماكان هو وجيرمان (الأقرع) قادرين على جمع كل الثمار الساقطة ، بل كان (البوم) يفتح فمه مع كل انحناءة لشعوره بأن الهواء يعوزه وبأنه موشك على الاختناق . وفجأة توقف (البعرور) عن هز الشجرة :

- انظرا . . . السيارة قادمة ! - قال وهو بعد فى أعلى الشجرة بصوت منقبض غريب .

ونظر (البوم) و (الأقرع) ناحية البيت المظل . كان جناح سيارة (الأمريكى) السوداء ، وهى أقل ضجيجا من تلك التى جاء بها أول مرة إلى البلدة ، يتلألأ من خلف ركن البناية . كانت شفتا جيرمان (الأقرع) ترتجفان وهو ينادى :

- انزل . . . بسرعة . . . إنها هى .

كان دانييل (البوم) وجيرمان (الاقرع) يتحـركان وقد ثنيا جسميهما من الوسط ليتـمكنا من حمل كومة التـفاح . وخشى (البوم) أن يفـاجئه أحد وهو على هذه الهيأة فأيد بحرارة قول (الأقرع) :

- هيّا ، بعرور ، انزل . فلدينا منه الكثير .

لقد أفقدهم الخوف اتزانهم فبدا صوت دانييل مضطربا ونبراته عالية . ولما حاول (البـعرور) الإسراع فى النزول داس على غصن فـدّوى صوت انكساره فى ذلك الجـو الخالى إلا من الحفـيف والهمس مثل عـيار نارى . كان اضطرابهم فى ازدياد :

- انتبه (بعرور) .

- سأخرج .

- اللعنة !

- جبان من يجتاز السياج أولا !

ليس من اليسير تحديـد المكان الذى خرج منــه الشبح ، ولكـن دانييل (البوم) صار من يومهـا يؤمن بالسحر والعفاريت والأشبـاح . إنها ميكا تقف أمامهم طويلة ممشوقة القوام وقـد ارتدت بدلة بيضاء . كانت صورتها تكتسب فى الظلمة الدامسة حضورا علويا كحال جبل (راندو) .

- فأنتم إذاً من يسرق التفاح ؟ .

وترك دانييل (البـوم) وجيرمان (الأقـرع) التفاحات تسـقط واحدة فواحدة . كان الذعر يقطع أنفاسهم . أما ميكا فكانت تتكلّم على سجيتها دونما اضطراب فى نبرة صوتها :

- هل يعجبكم التفاح ؟

وتلجلج دانييل (البوم) المفزوع للحظة :

- نــ . . . نعم . . .

وأطلقت ميكا ضحكة بدت انعكاسا لشعور خفى بالانبساط . ثم قالت :

- ليأخذ كل واحد تفاحتين ويتبعنى .

وامتثلوا لأمرها . واتجه الأربعة صوب الرواق . ولما وصلوا هناك أنارت ميكا المكان بعد أن حرّكت عتلة مخفية وراء أحد الأعمدة . كان من حسن حظ (البوم) أن حال العمود بين النور وبين وجهه المكروب . وعاودت ميكا إطلاق ضحكتها الغريبة ، وخامر (البوم) خوف من أن تقدم الفتاة على تسليمهم إلى الحرس المدنى .

لم يكن (البوم) شاهد ابنة (الأمريكى) عن قرب من قبل . لقد أنساه وجهها وقوامها لبرهة موقفه المحرج وذكّرته نعومة صوتها وموسيقاه بطائر الحسون . كانت بشرتها رقيقة محمّصة وعيناها غامقتين مظلّتين برموش كالحة السواد . أما ذراعاها الطويلتان المطاطيتان وساقاها الطويلتان الرشيقتان فلها حمرة صدر ذكر الحجل . وكانت خفّة حركتها وهى تنتقل من مكان إلى آخر توحى بقدرتها على الطيران والانطلاق إلى الفضاء مثل فقاعة من الصابون .

- حسنا . فأنتم الثلاثة إذا لصوص صغار - قالت فجأة .

وأقر دانييل (البوم) فى دخيلته أن فى مقدوره إمضاء كل وقته وهو يسمعها تقول فى حقّه إنه لص صغير دون أن يمل من ذلك أو يتعب . فوصفها له بـ « اللص الصغير » تعدل مداعبتها لخدوده بيديها ، يداها الصغيرتان الناعمتان الرقيقتان .

واستندت ميكا على أريكة فتحدّدت معالم جسمها . قالت :

- لن أعاقبكم هذه المرة - سأترككم شرط أن تعدونى أنكم إن أردتم التفاح ثانية فعليكم أن تطلبوه منى لا أن تتسلقوا السياج كاللصوص .

ونظرت إليهم الواحد بعد الآخر وهم يهزّون رؤوسهم موافقين .

- يمكنكم الذهاب الآن .

وخرج الأصدقاء الثلاثة من البـاب الكبير فى هدوء . ساروا دون أن يتبادلوا الكلام . كان الصـمت ثقيلا مطبقا يفرضـه عليهم إدراكهم أنهم ما كانوا أحرارا طلقـاء إلا لعفو الآخرين وكرمـهم وليس لمهارتهم هم وحسن تخلّصهم . وفى هذا ما يبعث على الخيبة وخصوصا لدى الأطفال .

نظر روكى (البعرور) عرضا إلى (البـوم) الذى كان يسير بفم فاغر وعينين شاردتين . فجذبه من ذراعه قائلا :

- ما بك يا (بوم) ؟ أراك كالمشدوه .

ولم ينتظر الرّد بل رمى بتفاحتيه على جسمين داكنين كانا يرعيان بأمان فى مزرعة الصيدلى .

الفصل العاشر

كانت صداقة (البعرور) تلزم دانييل (البوم) أحيانا بمضاعفة جرأته وهووضع شجاعته موضع اختبار ، ذلك أن (البعرور) كان يرى أن شجاعة المرء قد تتغير بين ليلة وضحاها كالمطر أو كالريح فهو شجاع اليوم مسلوب الإرادة غدا وبالعكس ، أما تقرير ذلك فيعتمد على قبوله مجاراة (البعرور) فى مآثره اليومية أو رفضه لذلك .

- جبان من لايفعل هذا - كان يستفزهم المرة تلو الأخرى ، ليجد دانييل (البوم) وجيرمان (الأقرع) نفسيهما مجبرين على اجتياز الجسر مشيا على حافته ذات السنتيمترات الخمسة عشر ، أو الانجراف مع تيار النهر والغوص ومن ثم معاودة الظهور ، مدفوعين بتيار الأعماق ، فى « بركة الإنكليزى » أو ملاقاة القطار وهو داخل النفق . ولطالما أفاق دانييل من نومه مذعورا لاهثا وهويمسك متشنجا بمرتبة سريره إذ لم يفلح فى مجاراة (البعرور) فى مآثره . انه لايغرق فى النهر كما رأى فى منامه ولايتدلّى من حافة الجسر ويرتطم بالصخور بعد سقوطه ولاينجرف تحت حدائد القطار المزمجرة . إنه بخير ويرقد مرتاحا فى سريره الحديدى ولاشيء يدعو البتة إلى الخوف .

ومن هنا كانت أيام المطر تعنى هدوءا غير مألوف .

وأيام المطر فى الوادى كثيرة رغم ما يقال من أن كل شئ قد تغير فى السنوات الأخيرة حتى لقد عزّ الكلأ بسبب شحّة المياه ، وهو ما لم يحدث من قبل اطلاقا . ان دانييل يجهل مقدار ما كان يسقط من مطر فى الوادى ، ولكنه يستطيع الجزم أنه الآن يسقط بغزارة ، ثلاثة أيام من كل خمسة وهو مقدار لايستهان به .

ومع سقوط المطر تتغيّر معالم الوادى ، فالجبال تكتسى لونا داكنا مكفهرا لايخفّف من حدّته إلا الضباب والحقول تتفجّر فى صخب أخضر متلألئ يوشك أن يكون أليما . أما لهاث القطارات فيسمع من مسافات أبعد ، وتتقاذف الجبال صفيرها حتى يختفى بعد أن يتحوّل إلى أصداء قاصية ثم إلى رنين خافت يكاد لايسمع . وقد تعلق الغيوم بالجبال فتبدو قممها مثل جزر معزولة فى لّجة محيط رمادى مضطرب الموج . وما كانت عواصف الصيف تفلح فى التخلص من طوق الجبال ، فكانت تواصل الهبوب أحيانا لثلاثة أيام دونما انقطاع . على أن البلدة كانت مستعدة لمواجهة هذه الحالات الطارئة : فمع أولى القطرات تخرج الأحذية الخشبية فيضج الوادى على مدار الساعة بطقطقاتها الرتيبة الموزونة . ويرى دانييل (البوم) أن الوادى لايكتسب هيأته المناسبة إلا فى مثل تلك الأيام الممطرة أو فى أيام الميلاد حين ينهال الثلج بغزارة ، فما يناسبه هو المطر والرطوبة والحزن والكآبة ، حتى أن الكسل والخمول اللذين يميزانه يتلاشيان مع الشمس الساطعة ومع الآفاق الزرق الرحبة .

كان لأيام المطر عند الأصدقاء الثلاثة سحر خاص وفتنة لازمة . فهى عندهم مناسبات للتخطيط والتأمل والتذكر ، وهم أثناءها لايبدعون بل يجترون ، ولاينشطون كان الحديث الهامس فى متبن بيت (البوم) يمثل عنده مناسبة لاستحضار أيام الشتاء اللذيذة حين كان أبوه يجلسه أمام الموقد ليقص عليه حكاية النبى دانييل أو عندما كانت أمه تضحك لقوله بأن على البقرة الحلوب أن تحمل جراراً .

كان الثلاثة يفترشون التبن ويراقبون الطريق العام والسكة الحديدية من الكّوة الأمامية ويخططون لمشاريعهم .

وحدث فى واحد من تلك الأيام أن تكونت لدى (البوم) ، وهم فى متبن بيته ، فكرة واضحة عن قوة روكى (البعرور) وعن مقدار المرارة التى

يحسّها المرء عندما لايحمل ندبة فى جسمه . حدث ذلك عصر يوم صائف ، بينما كـان المطر يدق على سقف مـعمل الجبن القـرميدى ، وبينمـا كان الوادى يقبع تحت وطأة سماء ثقيلة رمادية رتيبة .

ما كان (البعرور) يكتفى بمجرد النظر إلى عضلاته المفتولة :

- انظر . تحسّس ! تحسّس !

ثم ثنى ذراعـه فبـرزت كتلة غـير مـتناسقـة من العضـلات والأوتار المتعرّجة . ومدّ (البوم) متردداً أصبعه وتحسسّها . .

- صلبة أليس كذلك ؟

- بلى .

- طيب فانظر هنا .

ورفع بنطاله المخملى وكشف عن ساقه ووتر عضلاته فصارت كالهراوة صلابة :

- عاين ! تحسّس ! تحسّس !

ومن جديـد تحسّس أصبـع دانييل كتـلة العضـلات الضخمـة تلك ، متبوعا عن كثب باصبع (الأقرع) .

- إنها أشد صلابة من عضلات الذراع . أليس كذلك ؟

- بلى .

ثم كـشف عن صدره وجـعلهم يتـحسّـسونه أيضـا ثم يعدّون حـتى المـائتين قـبل أن يزفر ويعاود اسـتنشاق الهواء . وطـلـب إليهمـا أن يجربا ذلك :

أما (الأقرع) فبلغ الأربعين ، وأما (البـوم) فقد بلغ السبعين ولكن بعد جهد كبير امتقع له لون وجهه .

ثم انبطح (البعرور) ووضع راحتيـه على الأرض ثم بدأ يرفع جسمه ويخفضه ، وعندما وصل إلى السبعين توقف ليقول لهما :

- لم أواصل العد يوما لأعرف عدد المرات التى أقدر . أمس الأول وصلت إلى الثلثمائة واثنتين وعشرين ثم توقف لأنى شعرت بالنعاس .

ونظر إليه صاحباه قلقين مكسوفين ، فذلك الاستعراض يفوق كل تصوراتهم عن قوة (البعرور) ولياقته البدنية .

- لنر كم تستطيع أنت يا (بوم) - وجّه كلامه إلى دانييل فجأة .

- ولكنى لا أعرف . . . لم أجرب هذا من قبل .

- جربّه الآن .

- ولكن . . .

وانبطح (البوم) أخيرا ليحاول الثنية الأولى ، ولكن ذراعيه الرقيقتين لم تعتادا التمرين فراح جسمه كله يرتعش بسبب الجهد العضلى غير المألوف . رفع عجزه أولا ثم ظهره وعدّ بنشاط :

- واحد .

ولكنه ما لبث أن سقط بتثاقل على الأرض المرصوفة .

فقال (البعرور) :

- لا ، ليس هكذا . فلا فضل لك فى رفع عجزك أولا ، فأنا هكذا أفعلها مليون مرة .

وتخلى (البوم) عن المحاولة مبتئسا بعدما رأى أنه بعد كل هذا الجهد لم يفعل شيئا سوى أنه خيّب ظن صديقه به .

وخيّم على المتبن بعد المحاولة الفاشلة صمت وسكون . وعاود (البعرور) فتل ذراعه ومعاينة عضلاتها ترقص مرنة منتفخة ، وخطر لـ (البوم) أن يسأله وهو ينظر إلى ذراعه :

- أنت تستطيع أن تتغلب على بعض الرجال . أليس كذلك يا (بعرور) ؟ .

لم يكن روكى (البعرور) حينها قد ضرب الطبال فى المهرجان الشعبى .

ابتسم (البعرور) برهة ثم قال :

- بالطبع إننى اقدر أن أتغلب على الكثير من الرجال لأن كثيرا منهم لايمتلكون صلابة فى اجسادهم غير صلابة عظامهم وفروة رؤوسهم .

كان جيرمان (الأقرع) يدوّر عينيه اعجابا بينما اتكأ (البوم) مطمئنا على كومة التبن وهو يحسّ إلى جانبه حماية روكى ورعايته .

كانت تلك الصداقة ضمانة قوية بالنسبة إليه وإن أصرت أمه و (الفلفلة) الكبرى و (الأرنبات) على اعتبار رفقة (البعرور) شرا محتوما .

وكما هو شأن تلك المسامرات فى متبن معمل الجبن أيام المطر فقد انتهت مسامرة ذلك العصر بمسابقة : رفع (البعرور) بنطاله الأيسر وعرض دائرة من الجلد المجّعد الطرى :

- انظرا صورة الندبة هذا اليوم . تبدو كالأرنب .

وانكفأ صاحباه على ساقه ليقولا موافقين :

- صحيح . تبدو اليوم كالأرنب .

واغتم دانييل (البوم) لمسار الحديث . إنه يعلم أن تلك المقدمات ستقود إلى جدال حول الندب والجروح . وما كان يخجله من شىء ، بأعوامه الثمانية ، مثل خلو جسمه من ندبة يباهى بها أقرانه ، إنه ليعطى عشر سنوات من عمره مقابل ندبة واحدة لأن خلو جسمه منها يشعره بأنه أقل رجولة من أصحابه الذين يمتلكون العديد منها فى أجسامهم . وكانت هذه الأفكار تبعث فيه شعورا كئيبا بالنقص والصغار . الواقع أنه لاذنب له فى أن يمتلك استعدادا أفضل من (البعرور) و (الأقرع) لالتئام الانسجة ولا فى أن تلتئم جروحه العديدة دون أن تترك أثرا يذكر ، ولكنه لايفهم الأمور هكذا ، وهو يرى أن نعومة جسمه وخلّوه من الندب مصيبة وأن

رجلا من دون ندبة هو ، عنده . مثل فتـاة مطيعة مؤدبة . إنه لايطمع فى ندبة معركة ولا فـى تفـاهة بل فى ندبة ناتجة عن حادث أو عن أى شىء ، المهم أن تكون ندبة .

كان يحفظ عن ظهر قلب قصة ندبة (البعرور) . وقعت الحادثة قبل خمس سنوات أثناء الحرب يكاد دانييل (اليوم) لايذكـر شيئا عن الحرب ، ولايحتـفظ عنها إلا بفكرة غامضـة مشوشة : أزيز طائرات مـرّت من فوق رأسه ودوّى قنابل تنفجـر فى الحقول . كان سكان البلدة يهـرعون ، كلما حلقت الطائرات فـوق الوادى ، إلى الغابة وقـد أمسكت الأمهـات بالأبناء وراح الآباء يسوقون الأغنام المتعثرة ويضربونها ضربا مبرّحا .

هربت سارة وقتها صوب الغابات وهى تمسك بيد شقيقها وتجره جراً . وما كان هو ، بأعـوامه الستة يخاف الطائرات أو يخـشى القنابل . إنما كان يعدو مجاراة للآخـرين ورغبة فى قضاء الوقت لاهيا عـابثا . وكان السكان يتجـمعون فى الـغابة ويعسكـرون مع أثـاثهم وأغنامهم فكأنهم قـبيلة من الغجر . فى البداية كانت أجراس نواقيس الكنيسة تعلن انتهاء الغارة بثلاث دقّات غليظة تتبعها اثنتان حادتان ، ولكن النواقيس رفعت من بعد لصهرها وبـقيت البلـدة من دون نواقيـس حـتى الحـرب وعنـدها تبرع دون انطـونينو (المـاركيز) بناقوس جديد .

وقد شهد الوادى يومها احتفالا كبيرا على شرف المتبرع تحدث فيه دون خوسيه القس وعـمدة البلدة آنذاك انطونيو (الحوصلة) واختتـمه (المـاركيز) شاكراً بصوت متهدج الجـميع . وهكذا أنفق القس والعمدة ساعة للإعراب عن الامـتنان لـ (المـاركيـز) على تبـرعه بالناقـوس ، وأنفق هذا نصف ساعـة أخرى للرد على امتنانهم ذاك . كـان احتفـالا سادته مشـاعر المودة والوقـار والمجـاملة ولكن جـرح روكى (البـعرور) نـتج عن شظيـة قنبلة انفجرت فى أحد الحقول بينما يـعدو هاربا ، صباح يوم صيفى ، مع سارة

باتجاه الغـابة . يقول العـارفون إن الحـادث نتج عن قنبلة طائشة ألـقت بها احدى الطائرات بغرض « تخـفيف حملها » ، ولكن (البـعرور) يقول إنه هو الحمل الذى حاولت الطائرة تخفيفـه . وعلى أية حال فقد شكر للطيار ذلك الوسام الذى علّقه له فى لحم فخذه .

واصل الأولاد الثـلاثة النظـر إلى النـدبة التـى بدت فى شكـلهـا كالأرنب. وانحنى روكـى (البعرور) فـجأة ولحسهـا بطرف لســانه وأردف قائلا :

– مايزال طعمـها مالحا . يقول لوكـاس (الأبتر) إن سبب ذلك هو الحديد فـالجروح الناتجة عن الحـديد لها دائما مذاق مـالح . فعضلة ســاقه مالحـة وكذلك الحال مع فـضلة ذراع كينو (الأقطع) ، ولكنها تفـقد هذه الملوحة مع الوقت .

كان الآخران يستمعان إليـه مرتابين . ولاحظ هو ارتيابهم فقرب ساقه منهما ودعاهما قائلا :

– تذّوقا وستريان أننى لا أخدعكما .

وتبـادل (البوم) و (الأقـرع) نظرات مـترددة . وانحنى (البـوم) أخيرا وذاق الندبة بطرف لسانه :

– نعم إنها مالحة .

وجرب (الأقرع) بعده وهزّ رأسه موافقا :

– صحـيح أنها مالحـة ، ولكن ليس هذا بسبب الحـديد بل العرق . ذوقا شحمة أذنى وستجدان أنها مالحة كذلك .

واقترب دانييل (البوم) ، وقد أثارت القضية اهتمامه ، من (الأقرع) ولطع شحمة أذنه المشقوقة .

– هذا صحيح – قال – إن أذن (الاقرع) مالحة كذلك .

– دعنى أرى – قال (البعرور) متشككا .

ورغبة منه فى غلق القـضية فقد مّص (البعرور) شـحمة أذن (الأقرع) بشراهة من يرضع . ولـمّـا انتهى كان وجهه يعكس خيبة أمل كبيرة .

- صحيح . أنها مالحة . ولكن سبب ذلك أنك أصبت بسلك شائك وليس بشوكة العوسج كما تظن .

- لا - قفز (الأقرع) غاضبا - فقد شقت شحمة أذنى شوكة العوسج . أنا متأكد من ذلك .

- هذا ماتظنه أنت .

ولم يشأ جيرمان (الأقرع) أن يهزم فقدم رأسه من فمى صاحبيه :

- وقرعتى ؟ إنها مالحة كذلك . ولاعلاقة للحديد بها بل جاءتنى من أحد الطيور .

ونظر (البعرور) و(البوم) إلى بعضهما مذهولين ، ولكنهما انحنيا على قرعة جيرمان السمراء ولطعاها الواحد بعد الآخر .

أما دانييل (البوم) فاعترف فى الحال :

- حقا إنها مالحة .

أما روكى (البعرور) فلم يشأ أن تلوى ذراعه :

- نعم ، ولكنها ليست ندبة . القرعة ليست ندبة ، وأنت لم تصب بأى جرح فى رأسك فلا علاقة لذلك بملوحتها .

كان الضوء الداخل من كوّة المتبن فى تناقص ، وكان الوادى يكتسى كآبة وحزنا بينما يواصل الأولاد جدلهم دون أن يلحظوا أن الوقت صار ليلا وأن المطر يواصل نقره على السقف القرميدى وأن القطار كان لحظتها يصعد بجد ، مطلقا بين الحين والآخر حلقات من الدخان الأبيض المزبد . كان (البوم) يحسّ بالابتئاس وهو يفكر فى حاجته إلى الندبة ، فلعله سيقدر ، إن هو امتلكها على حسم الجدل حول سبب ملوحتها : أهو العرق ، كما يؤكد جيرمان (الأقرع) ، أم هو الحديد كما يدّعى روكى (البعرور) ولوكاس (الأبتر) ؟ .

الفصل الحادى عشر

ولما علم روكى (البعرور) أن كينو (الأقطع) بكى يوم ماتت زوجته بكاء مراً ما عاد يكّن له إعجابا ولا تقديرا وكان (الأقطع) قد فقد امراته ماريوكا فضلاً عن يده ، وما كان ذلك لأن أحداً لم يحذره ، فخوسيفا المغرمة به كانت لاتكف عن تذكيره بالأمر .

- فكّر فى الأمر ، كينو . إنها مسلولة ولا شفاء لها .

ويردُ عليها (الأقطع) بغضب :

- وما دخلك أنت ؟ .

فتتركه حزينة مغتمة . وفى المساء تدخل حجرتها لتبكى حتى تبتل مخدتها بالدمع وتقسم ألا تعاود التدخل فى الأمر ، ولكنها تنسى فى صباح اليوم التالى ما أقسمت عليه . كانت شدة إعجابها به تمنعها من ترك الميدان قبل إفراغ آخر ما فى جعبتها من سهام . كان يعجبها فيه تكامله ، فهو قوى وجاد وكامل : قوى دون أن يكون حيواناً شأن باكو الحداد ، وجادّ دون أن يبلغ حد الارتياب مثل بالجو (الملحد) ، وكامل دون أن يكون قديساً كدون خوسيه . إنه ، على وجه الإجمال ، رجل متوازن بكل معنى الكلمة ، لا أكثر من ذلك ولا أقل ، رجل يقف على لسان الميزان .

والواقع هو أن كينو لا يؤمن بوجود السل ، فالعالم عنده موزع بين نحيفين وبدينين . ماريوكا كانت نحيفة شأن (الفلفلتين) لولا وايرينه وشأن اندريس الإسكافى ، أما هو فبدين كحال كوكو مأمور المحطة ، دون أن يعنى ذلك أن أولئك مرضى وهؤلاء أصحاء معافون . إنهم يقولون عن ماريوكا إنها مسلولة منذ أن ولدت ، ولكنها مازالت ، بسنواتها الثلاث والعشرين ، غضة نضرة كالزهرة .

لقد تقرب كينو منها منجذباً لا عاشقاً . وكان ميله الطبيعي سيفضي به إلى إمرأة من ذوات التقاطيع الضخمة المثيرة الظاهرة ، امرأة مثل خوسيفا صلبة جسيمة ثقيلة الوزن ، إلا أنه فكر بطريقة مختلفة فما دام السادة المتمدنون يتزوجون بالنحيفات ، فلابد أن فيهن خصوصية تجعل هؤلاء السادة المهذبين المتعلمين يطلبونهن هكذا .

وتقرب من ماريوكا لأنها نحيفة ، وبعد أيام أحبها . أحبها بلا تبصّر ولا تفكير بل لنظراتها الحزينة المنقادة كنظرات حمل صغير ولبشرتها المزرقة الشفافة كالخزف . وتفاهما ، وأعجبت ماريوكا بكينو (الأقطع) لأنه كان على العكس منها ضخم الجسم قويّه ، حاد العينين دقيقهما ، كانت عيناه كمبضع الجرّاح .

وقرر كينو (الأقطع) الزواج منها فانقضّ عليه الناس : « إنها هزيلة » « معلولة » ، « السل رفيق سوء » . . .

ولكنه قفز من فوقهم جميعاً وتقدم صباح يوم ربيعي رائع إلى بوابة الكنيسة وهو يرتدى بدلة مخملية زرقاء وقد عقد منديلاً أبيض حول عنقه . وباركهما دون خوسيه القس ، وهو القديس العظيم ووضعت ماريوكا الحلقة فى أصبع يده اليسرى لأن يمناه مقطوعة .

ولم تفلح خوسيفا ، رغم ما فعلت ، فى أن تفسد عليه شهر عسله . وخططت لأن تجعل ظلال نكبتها تخيم على حياته،ولكنها لم تبلغ مرادها . ففى الكنيسة ، وأثناء الإعلان الأول عن الزواج ، قفزت كالنمر صارخة وهى تركض صوب مذبح القديس روكى تشهّده على بطلان زواج كينو من ماريوكا لأن العروس مسلولة . حدث فى البداية هرج ومرج ثم خيّم على المكان صمت مطبق .

كان دون خوسيه أدرى منها بالمحرّمات وقضايا الشرع :

- ولكن شريعة الرب يا ابنتى لاتمنع المرضى من الزواج . هل فهمت ؟ .

وألقت خوسيفا بنفسها مخذولة على بعض دكاك المقصورة تبكي كالمجنونة وتجز شعرها وتستجدي العطف وراح الجميع يواسونها ، فليس في الإمكان الأتيان بكينو بآخر . أما (الأقطع) فقد راح من مكانه في المقاعد الخلفية المخصصة للرجال يبتسم مشفقاً وهو يسدّد إلى حنكه ضربات خفيفة بفضلة طرفه المقطوع . أما (الفلفلة) الكبرى فقد دنت من خوسيفا وحملتها برفق من تحت إبطيها إلى خارج المعبد بعدما رأت دون خوسيه يقف متردداً لا يدري ماذا يفعل . ثم طلبت بعد ذلك من دون خوسيه أن يقيم قداساً خاصاً بها تعويضاً عما فاتها بينما كانت تخرج خوسيفا من المعبد وتعتني بها لبرهة في الباحة ، وراحت تؤكد أنها ليست ممن يفوتون القداس من أجل عمل إنساني ، فليس ذلك من العدل ولاهو معقول ولامنطقي ولا أخلاقي وأن ضميرها ليؤنبها وينهش سريرتها وأنها المرة الأولى التي يحدث لها ذلك في حياتها . . .

ولم يتمكن دون خوسيه من تهدئتها وإعادة الطمأنينة المزعزعة إلى ضميرها إلا بعد جهد ومشقة . ثم استؤنف القربان المقدس وكأن شيئاً لم يحدث .

وفي الأحد اللاحق حضر الجميع إلى القداس ، حتى بالمجو (الملحد) الذي وقف خلف الأرغن منحشراً بين فرقة المنشدين .

وقرأ دون خوسيه يومها اعلان الخطبة فلم تسمع غير زفرة عميقة علت لحظة نطق القس باسم العريس من الدكة التي كانت خوسيفا تجلس عليها ، ولاشئ آخر . أما بالمجو (الملحد) فقد صرح عند خروجه من الكنيسة أن لا فائدة ترتجى من التقوى ولذا فإنه لن يطأ عتبة الكنيسة . ولكن الحادث الخطير وقع يوم الزفاف ، أثناء حفلة الشرب ، عندما كان الجميع في شغل عن خوسيفا . ولابد أن انشغالهم عنها هو الذي حملها على التفكير في شدّ انتباههم بتلك الطريقة البربرية . كانت على أية حال ، واقعة غامضة ومؤلمة .

انطلقت من ناحية الجسر صرخة وصلت بوضوح إلى مسامع المدعوين المجتمعين فى اسطبل (الأقطع) نظر الجميع صوب تلك الناحية . وكانت خوسيفا تقف عارية على الحاجز وقد يمّمت وجهها نحو النهر تنظر إلى تياره الجارف بعينين جاحظتين . أما النسوة فلم يفعلن لمنع وقوع الكارثة غير الصراخ وتقليب العيون والسقوط مغشياً عليهن . وركض رجلان صوبها قصد منعها ، كما ادّعيا ، ولكن زوجتيهما أمرتاهما زاجرتين أن يعودا خشية التطلع عن قرب إلى خوسيفا العارية .

وعاودت خوسيفا إطلاق صرخة فى جو الحيرة والارتباك ذاك ثم رفعت ذراعيها وبحلقت بعينيها وألقت بنفسها بين تيارات النهر المعتمة .

وهرع الجميع إلا العروسين . وبعد قليل عاد القاضى إلى الحانة وكان كينو لحظتها يقول لماريوكا :

- خوسيفا هذه دابّة

فعقب القاضى قائلاً :

- كانت . . .

وهكذا علمت ماريوكا وكينو أن خوسيفا قد انتحرت .

وحدث ما حدث لما أرادوا دفنها فى المقبرة المجاورة للكنيسة ، إذ لم يوافق دون خوسيه على دفن المنتحرة إلا بعد مشاورة الأسقف . وأخيراً جاءت الموافقة من المدينة وتم الأمر على خير فقد انتحرت خوسفيا ، فيما يبدو ، وهى فى حالة من الجنون العارض .

ولم يعكّر شبح خوسيفا صفو كينو فى رحلة زواجه ، فقد أمضى هو وعروسه أسبوعاً فى المدينة ، ولما عادا راحت ماريوكا تعلن على الملأ أنها حبلى .

- أبهذه السرعة ؟ ! سألتهـا (الفطساء) التى آثار استغرابها أن بعض النسوة يحملن من مضاجعة رجل لليلة واحدة بينما لا يقع هذا لغيرهن ولو ضاجعنه العمر كلّه :

- وما الغرابة فى ذلك يا امرأة ؟ . قالت ماريوكا مضطربة

وتمتمت (الفطساء) فى داخلها بكلمات نابية .

لم يكن حمل البنـت طبيعيـاً . فمع تكّور بطنها كـان وجههـا يهزل بصورة تبعث على القلق . وبدأت النسوة يتحدثن عن أنها تحتمل المخاض .

واحتملت ماريوكا المخاض لكنها لم تتـخطّ عتبة النفاس ، فقد ماتت بعـد أسبوع ونصـف من الوضع ووضعت بعـد خمـسة أشـهر من انتـحار خوسيفا . وأدركت فضوليات البلدة حينها سبب اعلان ماريوكا خبر حملها وهى بعد على ظهر القطار الذى جاء بها من المدينة .

وأمضى كـينو (الأقطع) كما قـيل الليلة وحيداً أمـام الجثمـان يبكيه حامـلاً بين ذراعيـه الوليد ومداعـباً بفـضلة يده خصلات الشـعر الأشـقر المسترسلة الهامدة .

وعلقت (الفلفلة) الكبرى حال سماعها بالخبر قائلة :

- إنه عقاب الرب لمن أكل الطبيخ قبل الثانية عشرة .

كـانت تشير بذلـك إلى الولادة المبكرة . ولـكن القيّمـة عـلى مـنزل (المـاركـيز) كـانت على حق إذ قالـت بأن ذلك لم يكن عقـاباً من الرب بدليل أن (الفلفلة) الصغـرى لم تأكل الطبيخ وحسب بل والحـساء ، مع ذلك لم يقع لها مكروه ! .

كان عـمر دانييل (البـوم) آنذاك سنتين ، وعمر روكى (البـعرور) أربع سنوات . وبدأ هذان يعـرجان على كينو بعـد خسمـة أعوام من ذلك وهما عائدان من « بركة الإنكليـزى » أو من صيد السرطانات أو السمك . كان (الأقطع) كريماً جداً ، فكان يقدم لهما قدحـاً كبيراً من عصير التفاح

مقابل خمسة سنتات متواضعة. ولكن حال الحانة كانت أيامها فى تدهور ، فقد صار يـعيد إيصالات الدين دون تسديدها ، وبدأ مجـهزّوه يمتنعون عن مدّه بالبضاعة ، وكفله خيـراردو (الأمريكى) مرات عديدة قبل أن يتوقف بعد أشهر عن ذلك لمّا لم يجد فيه أملاً يرتجى. وراح وضع كينو (الأقطع) يسير من سئ إلى أسوأ ولكنه ، مع ذلك ، واصل ثرثرته مع زبائنه وواصل تقديم القـليل الباقى لديه . كـان روكى (البعرور) وجـيرمـان (الأقرع) ودانييل (البوم) يجـالسونه عند الدكة الحجرية القـريبة من الطريق العام . وكان (الأقطع) يفـضل محادثة الأطفال عـلى الحـديث مع الكبار ، ربما لأنه لم يكن فى حقيـقته سوى طفل كبير . وقـد يرد اسم ماريوكا فى أثناء الكلام ، فتجـدّد الذكرى وتندى عيناه ويبدأ بضرب ذقنـه بفضلة يده تمويهاً ومداراة ، فينهض عندها (البـعرور) الذى يكره الدموع والمواقف المؤثرة ، وينصرف دون أن يتفوه بشىء، وينصرف معه صاحباه فكأنهما خيطان بينطاله . أما كـينو (الأقطع) فينظر إليـهم مسـتغرباً ، غـير مـدرك السبب الذى يحملهم على تركه فجاة ومن دون عذر .

لم يحدث أن تبجّح (الأقطع) أمام الأولاد الثـلاثة بأن امرأة انتحرت عارية بسببه ، بل لم يشر إلى الحادث إطلاقاً ، ولم يعرف دانييل وأصحابه بأن خوسيـفا ألقت بنفسهـا عارية إلى النهر من على حاجـز الجسر إلا عن طريق باكو الحداد الذى ما كـان يخفى أن تلك المرأة كانت تروق له وأنها لو كانت طاوعـته لأصبـحت أما ثانية لروكـى (البعرور) ، ولكنهـا فضلت الموت على صدره العريض وشعره الأحمر فكان لها ما أرادت .

كان أشدّ مـا يثير فضول الأصـدقاء الثلاثة أيام كانت حـانة كينو تقدم عصـير التفـاح بخمسة سـنتات هو سبب فـقدان (الأقطع) يده . ويكمن السبب فى حكاية بسيطة يرويها (الأقطع) نفسه :

- أخى كان هو السبب . لقد كان حطاباً ، وفى المسابقات كان الأول دائماً لأنه يقطع الجذع الغليظ قبل الآخرين فى دقائق قليلة . وكان يريد أن يصبح ملاكماً .

ويثير كلام (الأقطع) عن هواية أخيه اهتمام الأولاد . ثم يواصل الحديث :

- بالطبع هذا لم يحدث هنا بل فى بشكايا قبل خمسة عشر عاماً . بشكايا ليست بعيدة عنا ، انها خلف تلك الجبال - ويشير إلى قمة جبل راندو الداكنة المجللة بالضباب - كل الرجال فى بشكايا يريدون أن يصبحوا أقوياء ، والكثيرون منهم أقوياء فعلاً. أما أخى فكان أقوى من فى البلدة . لذلك كان يريد أن يصبح ملاكماً لأنه كان يغلبهم جميعاً . قال لى ذات يوم : « أمسك لى بهذا الجذع ياكينو. سأشطره بأربع ضربات من فأسى » . كان مجرد كلام ، فلطالما طلب منى ذلك ولكنه لم يستطع أبداً شطر الجذع بأربع ضربات . وأمسكت بالجذع بقوة ، وحدث أننى ، وبينما كان يهوى بالفأس على الجذع ، حركت يدى للفت انتباهه . . طاخ ! - وارتسم على الوجوه الثلاثة الصغيرة تعبير واحد . أما كينو فراح ينظر بحنان إلى فضلة طرفه المقطوع مبتسماً : - لقد طارت يدى مثل فلقة خشب مسافة أربعة أمتار ، وعندما ذهبت بنفسى لحملها كانت ماتزال حارّة وكانت الأصابع تنثنى من ذاتها وتتحرك مثل ذنب السحلية .

ويسأله (البعرور) بصوت مرتجف :

- وهل يمكننى أن . . أن أعاين يدك عن قرب ؟ .

ويقدّم كينو ذراعه وهو يبتسم :

- بالطبع .

وينتهز الأولاد الثلاثة هذا الترخيص السخى فيعاينون الطرف المقطوع مراراً ويتحسسونه ويغرسون أظفارهم القذرة فى أخاديده ويتناوبون الإشارة

عليه بأصابعهم قبل أن يتركوه على الدكّة الحجرية كحاجة ماعادت ذات نفع ولافائدة .

رضعت ماريوكا الصغيرة لبن الماعز ، إذ كان كينو يحضّر لها زجاجة الرضاع حتى أتمت سنة واحدة من العمر . وعندما ألمحت له جدّتها لأمها مرة أن فى مقدورها كفالة الطفلة والنهوض بأعباء تربيتها ، حمل كينو (الأقطع) هذا الكلام على غير محمله واستاء وغضب وما عاد أحدهما يكلم الآخر . ويؤكد الناس فى البلدة أن كينو قطع على نفسه عهداً أمام المرحومة أنه لن يترك الصغيرة فى أيد غريبة وإن اضطر إلى تربيتها على صدره .

وكان دانييل (البوم) يرى فى ذلك مبالغة وتطرفاً واضحين .

كان جميع سكان البلدة باستثناء دانييل يحبون ماريوكا - أوكا ،كما كانوا يسمونها إشارة إلى أنها من خلفة الفقيدة . كانت طفلة زرقاء العينين ذهبية الشعر يغطى النمش أعلى وجهها . وقد تعرف دانييل على الطفلة مبكراً ، حتى إن أول ما يذكره عنها يبدو فى ذاكرته مشوشاً مطموساً . ثم يذكرها بعد ذلك وهى طفلة فى الرابعة تدرج فى الأعياد على مقربة من معمل الجبن ، كانت الطفلة توقظ فى أم دانييل غريزة الأمومة التى فقدتها باكراً . إنها تتمنى لو أن لها طفلة وإن ملأ النمش وجهها مثل ماريوكا - أوكا ، ولكن ذلك ما عاد ممكناً بعد أن أخبرها دون ريكاردو الطبيب بأن بطنها صار بعد الإسقاط يابساً . فقد شاخت أحشاؤها إذاً وما عاد هناك من أمل . ومن هنا يأتى احساس أم (البوم) نحو اليتيمة الصغيرة كإحساس الأم الوالدة ، تناديها عندما تراها تتسكع قريباً من معمل الجبن وتجلسها على المنضدة .

- ماريوكا - أوكا بنيّتى ، أتريدين شيئاً من الجبن المحلّى ؟

وترد الطفلة موافقة ، فتجلب لها أم (البوم) الجبن المحلّى .

- هل فيه كفاية من السكر ، صغيرتى ؟ هل أعجبك ؟

وتردّ الطفلة بالإيجاب دون أن تنطق بحرف . ثم تسألها أم دانييل ، بعد انتهائها من أكل الحلوى عن تفاصيل الأعمال المنزلية فى بيت كينو :

- ماريوكا أوكا بنيتى ، من يغسل لك ملابسك ؟ وتبتسم الصغيرة :

- أبى .

- ومن يعدّ لك طعامك ؟

- أبى .

- ومن يمشط لك شعرك ؟

- أبى .

- ومن يغسل لك وجهك وينظف أذنيك ؟

- لا أحد .

وتشعر أم دانييل بالشفقة فتنهض وتصب الماء فى الإناء وتغسل للطفلة أذنيها ثم تمشط لها بعناية شعرها . وكانت ، هى تقوم بذلك ، تتمتم ، وكأنها ترتل :

- يا للطفلة المسكينة ، يا للطفلة المسكينة ، ياللطفلة المسكينة . . .

وعندما تنتهى تقول لها وهى تضربها على عجزها مداعبة :

- هيا بنيتى ، فأنت أجمل هكذا .

وترسم الطفلة ابتسامة هادئة على وجهها فتأخذها أم دانييل (البوم) بين ذراعيها وتطبع على وجهها قبلات كثيرة . وربما أثر فى دانييل (البوم) حنان أمه المفرط تجاه ماريوكا - أوكا بما لا يترك لها هوى فى نفسه . ولكن لا . إن ما يغيظه هو أن الصغيرة كانت تحشر أنفها فى كل مسألة وتحاول المشاركة فى أمور لا تخص النساء ولاتعنيهن .

صحيح أن ماريوكا - أوكا كانت تتمتع بحرية تحسد عليها ، حرية متوحشة بعض الشىء ، ولكنها فى نهاية المطاف امرأة ، ولايمكن لامرأة أن تأتى ما يأتونه هم ، كما ليس فى مقدورهم هم أن يتحدثوا أمامها عن « هذا » فليس ذلك من الأدب ولا من اللياقة . أما مسألة حب أمه لها

ودعوتها لها أيـام الآحاد والأعياد لتناول الجبن المحلّى فذلك أمر لا يثـيرفيه حراً ولا برداً . كـانت تغيظـه من الصغيـرة نظراتهـا المتواصلة إلى وجـهه وحرصها على معرفة حركاته وسكناته .

- أين ستذهب اليوم ؟

- إلى الجحيم . هل تريدين أن تأتى معى ؟

- نعم - تردّ عليه الطفلة دون تفكر .

أما روكى (البـعرور) وجيرمـان (الأقرع) فكانا يضحكان ويثـيرانه قائلين له إن ماريوكا - أوكا مغرمة به .

وأراد دانييل (البوم) يوماً أن يتخلص منـها فأعطاها قطعة من النقود وقال لها :

- خذى هذه واذهبى إلى الصيدلية لتقيسى وزنى .

وذهب الأولاد إلى الجبل ، وعندمـا عادوا مساءً وجدوها قـاعدة عند باب معمل الجبن تنـتظر عودتهم .وما إن رأتهم حتى نهـضت واقتربت من دانييل ، أعادت له قطعة النقود وقالت :

- بوم . يقول الصيدلى إن عليك إذا أردت قياس وزنك ، أن تذهب بنفسك .

وانفجر الأصدقاء الثلاثة ضاحكين بينمـا كانت هى تنظر إليهم بعينيها الزرقاوين الحادتين دون أن يبدو عليها أنها فهمت شيئاً .

وقد تلجأ ماريوكـا - أوكا إلى كل حيلة لمصاحبة البوم . التقـيا عصر يوم فى الطريق العام فقالت له :

- بوم . أعرف مكاناً يعشش فيه (أبو زريق) مع أفراخه .

- أين هو ؟ قولى .

- تعال معى لأدلك عليه .

وذهب هذه المرة معهـا . لم تكف عن النظر إليه طول الطريق . كان عمرها آنذاك تسع سنوات وحسب ، ومع ذلك فقـد أحس بأثر حدقتيها فى

لحمه فكأنهما تحفرانه بمخرز .

- ماريوكا - اوكا . لماذا تنظر إلى هكذا بحق الشيطان ؟

وأحست هى بالخجل ولكنها لم تحرف نظرها عنه :

- يعجبنى النظر إليك .

- لاتنظرى إلى . هل سمعت ؟

لكن الطفلة لم تسمعه أو لم تعره أذناً صاغية .

- قلت لك ألا تنظرى إلى ألم تسمعينى ؟

وعندها خفضت عينيها .

- بوم . هل صحيح انك معجب بميكا ؟

واحمر وجه (البوم) واضطرب لبرهة وأحس وكأن شيئاً غريباً يفور فى رأسه . كان لا يدرى إن كان من الأنسب فى مثل هذه الحالات أن يغضب أو أن يبتسم ؟ واستمر الدم بالتجمع فى رأسه . ولم يشأ أن يطول تردده فاصطنع الغضب ، مع ذلك حاول إخفاءه متعللاً باجتياز حاجز أحد الحقول .

- وما دخلك أنت إن كانت ميكا تعجبنى أم لا ؟

فردت ماريوكا - أوكا بصوت منخفض :

- إنها أكبر منك . إنها تكبرك بعشر سنين .

وتخاصما . تركها (البوم) فى الحقل وعاد إلى البلدة وقد نسى تماماً موضوع العش ، لكنه لم ينس كلمات ماريوكا - أوكا طيلة الليل . ولما آوى إلى فراشه أحس بقلق غريب ، لكنه تغلب عليه ، وتذكر ، وهو على الفراش ، أن الحداد ،وهو يقص عليه حكاية (الفلفلة) الصغرى ودون دياس ، كان يستهلها دائما بقوله : « كان النصاب يصغر (الفلفلة) بخمسة عشر عاماً ... »

وابتسم (البوم) فى الظلام ، وفكر فى أن الحكاية قد تتكرر ، ثم نام يهدهده إحساس بعبير سعادة غريبة هائنة تحفّ به .

الفصل الثانى عشر

كتب اليهم الخـال اوريليو من استريمادورا . وكـان الخال اوريليو رحل إلى استـريمادورا لإصابته بالربو ولأن رطوبة الوادى ، القريب من الـبحر ، كانت تضايقه . أما المنـاخ فى استريمادورا فإنه أكثر جفافاً ومـلاءمة لصحته والخال أوريليو يعمل بغالاً فـى إحدى المزارع الكبيرة ، ومع أن الأجر الذى يتقاضاه بسيط فإنه يسكن مجانـاً ويحصل على ما تنتجه الأرض لقاء أسعار زهيدة « وليس لأحـد أن يطلب أكثر من هذا فى الوقت الحاضـر » - كتب لهم فى رسالته الأولى .

لم يبق لدانييل (البوم) من ذكـرى خاله غير صور مطمـوسة للهاث مخنوق ، فكأن قاطرة صاعدة بمشقة تلهث قريباً من أذنيه . كان الخال يضع الكمادات فى أعلى صدره ويستنشق أبخرة الكالبتوس فى حجرته ،ولكنه ، رغم هذه وتلك ، ما كـان يتعافى من حـشرجة النفس والصـدر إلا خلال الأيام الخمـسة عشـر الأشد جفـافاً من أيام الصـيف . لقد أخبـرهم الخال أوريليو فى رسالته الأخيرة أنه سيرسل للصغير دوقاً كبيراً أمسك به حياً فى حقل الزيتـون . وأحس دانييل بقشـعريرة وهو يقرأ الرسالة ، فـقد ظن أن الخال سـيرسل له شـيئـاً من قبيل دوق انطونـينو (المـاركيـز) تملأ صدره النيـاشين والميداليـات والأوسمة ، ومـا علم أن الدوق الكبيـر هو نوع من الطيور يجول طليقاً فى حقول الزيتـون وإن بإمكان البغّالين الإمساك به كما يمسك بالأرنب من دون أن تطالهم أية عقوبة .

وضحك الأب عندمـا عرض عليه الولد مـخاوفه ، وفـرح دانييل فى قرارة نفسه لأنه أضحك والده الذى ما عـاد فى السنوات الأخيرة إلا عابساً مكفـهر الوجـه لا يقوى عـلى اضحـاكه حـتى الهنغـاريين الذين يقدمـون عروضهم الكوميدية ويحركون الأرجوزات فى الساحة .وعندما كفّ الأب عن الضحك قال موضحا :

- الدوق الكبير هـو بوم عظيم ، وهو طعم جيد لصيـد الحدّان عندما نتسلّمه سآخذك معى للصيد فى جبل راندو .

كانت المرة الأولى التى يعده أبوه برحلة صيـد مع علمه بولوع الصغير بذلك .

كان الجـبّان ، مع بداية كل موسم صـيد ، يركب القطار ويتـجه منذ اليوم الأول إلى قشتاله ليعـود منها بعد يومين وهو يحمل أرنباً وعنقوداً من طيور الحـجل متـدلياً من نافـذة القطار بادياً لكل ذى عين . ما كـان يطلق نيران بـندقيتـه على طيور السـمّان «فـإنها - كـما يقول - لاتسـاوى ثمن الإطلاقة . أما العصافير فإما أن تقتلها بالمصيادة وإما أن تتركها حيّة » . أما هو فكان يتركها حـيّة ، وأما دانييل (البوم) فكان يقتلهـا بالمصيادة . كان الولد يخـفّ إلى المحطة لاسـتقبـال أبيه العـائد من رحلات الصـيد أوائل الخريف . وكان كوكو ، مأمور المحطة ، هو من يبلّغه بموعد وصول القطار متأخـراً أم فى وقته . وعلى أى من الحالين فقد كـان دانييل ينتظر ، بقلب فرح ونفس متشوقة ، طـلوع القاطرة من المنعطف ، وكان يحدد مكان أبيه دائماً من عنقود طيور الحجل . ثم يلتـقيان عند رصيف المحطة فيناوله أبوه البندقية بجدّية صياد رغم ثقلها ورغم ما يثيره زنادها فى نفسه . ثم ما كان يفـارق أباه وهو ينظف البندقيـة ويزيّتـها بل كـان يطرح عليه السـؤال تلو السؤال ، وكان الأب يشبع فضول ولده أولا يشـبعه بحسب ما هو عليه من مزاج. وكان الأب ، كلّما يحاكى صوت طيران الحجل ، يقول : پررررر ، حتى أيقن دانييل أن الحجل لابد وأن تحدث هذا الصوت « برررر » ، عند الطـيران وأنهـا لاتحسن أن تصوت بـغـيره . وقـصّ ذلـك على صديقه (الأقرع) وتجـادلا لأن الصديق ذهب إلى أن طيـور الحجل تحـدث بالفعل صوتاً عند الطيران ، ولاسيما فى الشتاء أيام هبوب الريح ، ولكن الصوت الذى تحـدثه هو « برررر» وليس « پررررر » كمـا يدّعى دانييل (الـبوم)

وأبوه . ولم يستطع أى منهما أن يقنع صاحبه برأيه حول حقيقة الصوت الذى تصدره طيور الحجل عند الطيران ، وافترقا ذلك المساء متخاصمين .

كان شعوره حينئذ شبيهاً بشعوره وهو ينتظر لقاء أبيه العائد منتصراً وهو يحمل زوجاً من الأرانب ونصف دزينة من طيور الحجل متدلية من نافذة القطار ، شعوره عند لقاء تولا ، كلبة الكوكر الصغيرة ، بعد يومين أو ثلاثة أيام من الفراق . كانت تولا تنط من القطار ، وما إن تراه حتى تضع يديها على صدره وتلعق وجهه بلسانها وتملأه بمداعبات رطبة متواصلة . وكان هو الآخر يداعبها ويلاطفها بكلمات حانية وصوت مختلج حتى إذا عادا إلى البيت كان دانييل (البوم) يخرج علبة قديمة من الصفيح فيها فضلات من الطعام مع جردل من الماء ويحملهما إلى الزريبة ليشهد بحنو وليمة حيوانه الصغير . كان خلو الوادى من طيور الحجل يثير فضول دانييل (البوم) ، فلو أنه كان واحداً من هذه الطيور لما فكّر فى مغادرة الوادى . إنه يتشوق للتحليق عالياً فوق المروج والتمتع بالنظر إلى الجبال وغابات الكستناء والكاليبتوس الكثيفة والقرى الحجرية والضياع البيض المتناثرة ولكن يبدو أن هذا لايروق لطيور الحجل لأنها تفضل الأكل وفيراً يسيراً .

وقصّ عليه أبوه أنه قبل سنوات كثيرة فر من اندريس الإسكافى زوج من طيور الحجل واتخذا عشاً لهما فى الجبل ، وبعد أشهر اتفق صيادو الوادى على اصطيادهما . واجتمعت اثنتان وثلاثون بندقية وخمسة عشر كلباً وجهّزوا لكل شئ عدته وخرجوا من البلدة فجراً ولكنهم لم يعثروا على ضالتهم إلا عند الغروب ، وجدوا الأنثى مع ثلاثة أفراخ هزيلة جائعة تلقت الموت دون أية مقاومة ، لكن الصيادين الاثنين والثلاثين تنازعوا حيازة الحجلات الأربع وانتهى بهم الأمر أن تبادلوا النار بين الصخور ووقع فى ذلك اليوم من الضحايا بين الرجال ما زاد على عددهم بين الحجل ..

وعندما قصّ (البـوم) ذلك على جيرمان (الأقـرع) قال له هذا إن قصة فرار الطيور من أبيه ولجوئها إلى الجبل صحيحة وليس ما عداها سوى سلسلة طويلة من الأكاذيب .

عند وصـول رسالة الخـال أوريليو أحـس دانييل (البـوم) باضطراب وتوتر شديدين . إنه لايتصور لحظة وصول الدوق الكبير وذهابه هو مع أبيه لصـيد الحـدآن وإن كـان لديه شيء من القلق فسـببـه الخوف من أن يـبدأ أصدقاؤه ، مع مـا جدّ من الأمور ، بتلقيبه بالدوق الكبـير بدلاً من دعوته بـ (البوم) . فتـغيير اللقب يؤلمه ، بعد كل هذا الوقت ، قـدر ما قد يؤلمه تغـيـير اسم العـائلة . ولقـد وصل الدوق الكبـيـر ، ومع ذلك لم يجـد الأصدقاء ، وكان فيهم من الانفعال مـا فى صاحبهم ، ما يكفيهم لملاحظة أن الطائر الذى خلب ألبابهم لم يكن إلا بوما كبيراً .

ربط الجبان الطائر من احدى رجليه فى زاوية من زوايا الزريبة وكان إن دخل أحدهم للتفرج عليه نفخ وكأنه قط هائج .

كان يأكل أكثـر من كيلو غرامين من فتات اللحم يومـياً ، حتى أن أم دانييل أشارت ذات مـساء تعريضاً إلى أن الدوق الكبيـر يستهلك فى الأكل أكثر مما تستهلكه البقـرة ، مع أنه خلافاً للبقرة التى تعطى اللبن ، لا يعطى شيـئاً البتة . ولـما بقى الجـبّان صامتـا سألته امـرأته إن كان ينتظر من ذلك الطائر ريعاً ما أم مـجرد ضيف مدلّل ؟ واهتز دانيـيل (البوم) وهو يتوقع أن يحطّم أبوه ، كما هى عادته عند الغـضب ، صحناً أو آنية فخارية ، ولكن الجبّان كظم غيظه هذه المرة واكتفى أن قال متجهماً :

– بل أنتظر منه ريعاً .

وفاجأ الأب ولده (البوم) ذات ليلة وقد هدأت أحوال الجو ، قائلاً :

– جهّز نفسك فسنخرج غداً لصيد الحدآن . سأوقظك عند الفجر .

وأحس دانييل (البـوم) ببرودة تسرى فى ظهره ، وبدأ أنفـه فجاة ومن

دون سبب يتحسّس أريج الزعتر المنبعث من البنطال الذى كان الجبّان يرتديه عند ذهابه للصيد ورائحة البارود الحادة الصادرة من الخراطيش المستعملة التى كان أبوه يعبّئها بصبر واقتصاد المرة تلو الأخرى إلى أن تصبح غير ذات نفع . كان الصغير يعيش المعركة مع الحدآن الماكرة السريعة قبل وقوعها ويدوّر فى رأسه تفاصيل الرحلة المقررة .

وخرجا مع الفجر . أعشاب السرخس ، على حافة الجادة ، تتلألأ مكسوة بالندى . وعلى أطراف الحشائش تكونت قطرات دقيقة بدت وكأنها من زئبق . ومع بداية انحدار جبل واندو كانت الشمس تطل من ورائه بينما التصق ضباب أبيض كثيف بقاع الوادى فبدا هذا من شاهق مثل بحيرة مملؤة بسائل خفيف غريب .

كان دانييل (البوم) ينظر إلى جميع الجهات مبهوراً وهو يحمل على ظهره الدوق الكبير محبوساً فى قفصه الخشبى ينفخ هائجاً كلما مروا بكلب فى الطريق .

قال دانييل لأبيه عند خروجهما من البيت :

- الا نأخذ تولا معنا ؟

- لا مكان لتولا اليوم .

وحزّ فى نفس الصبى أن يتركا الكلبة فى البيت بعد ما أبدته من لهفة وهى ترى البندقية وتشم رائحة حذاء الصياد وبنطاله . وتذكرها ثانية وهو يتسلق الجبل المغمور من ناحيته الجنوبية بضياء النهار وأريج الحقول . لكنه ما لبث ونسى كل شىء وما عاد غير وجه أبيه الذى يقبع متربصاً بين الصخور الرمادية وغير الدوق الكبير وهو يخفق بجناحيه ويزفر مسافة خمسة أمتار مربوطاً من رجله اليمنى . أما هو فقد اختبأ بين الأحراج قبالة أبيه .

- لاتتحرّك ولاتحدث أى ضجيج ، فالحدآن يتقنّ اللاتينية - قال له أبوه محذّراً .

فاندسّ دانيـيل فى مكمنه وراح يسأل نفـسه إن كان ثمّ عـلاقة بين أن تعرف الحدآن اللغة اللاتينية ، كما يقول أبوه ، ولون ريشها البنى الغامق ، ذلك اللون القاسى الخالص الذى يشبه لون قفاطين الرهبان ؟ أم تراه قال ما قال مازحاً ؟

وخيّل لدانييل (البوم) أنه لمح والده يسترعى انتـباهه وهو يشير بأصبعه إلى السماء . ونظـر بهدوء إلى أعلى فرأى ثلاث حدآن ببطء دوائر مـتحدة المركز فـوق رأسه . وأحس بقلق غـامض ، ونظر من جديد إلى أبيـه فرآه شاحب الوجه وهو يهيىء البندقية بـحذر . وانفعل الدوق الكبير وبدأ يزفر ، والتصق دانييـل بالأرض وحبس أنفاسه وهو يرى الحدآن تـنزل فوقهم ، بل كان فى مقدوره أن يراها بكل تفاصيلهـا . كانت إحداها عظيمة الحجم . وأحس (البوم) بـحكة مفاـجئة فى إحدى رـجليه ولكنه بقى ـساكناً لئلا يحدث حركة أوضجيجاً .

وتدلّت إحداها فجأة من السماء متعامدة وانقضت مسرعة لتمس رأس الدوق الكبير ، وانقضت الأخريان فى الأثر . كان قلب دانييل (البوم) يدق مسـرعا . وانتظر ، مـقطّب الوجه ، دوىّ الإطلاقة ، لكنـه لم يسمع أى دوىّ فنظر إلى أبيه منذهلاً .

كان أبوه يتـابع ببندقيته الحـدأة الكبرى التى عاودت التحليق عـالياً ، لكنه لم يطلق النار هذه المرة أيضاً . وظن دانييل (البوم) أن أمراً خطيراً ألم بأبيه ، فهو لم يشاهد من قبل حـدأة تقترب كل تلك المسافة دون أن تطلق عليها النار .

وعاودت الحدآن الانقضاض ، وازداد دانييل اضطراباً وتوتراً ، ومرقت الحدأة الأولى قريبة حتى أن (البوم) شاهد عينها البراقة المدورة مصوبة نحو الدوق الكبير كما شاهد مخالبهـا الجارحة المقوسة ومرقت الثانية بعد الأولى فيـما يشبـه سرباً من الطائرات تنقض متـتابعة . ثم برزت الـكبرى لتنقض

وهى تبسط جناحيها فتغطى جزءاً واسعاً من زرقة السماء . لابد أنها اللحظة التى ينتظرها الجبّان . ونظر دانيل إلى أبيه الذى كان يلاحق الطائر مصوباً إليه بندقيته . وحلّقت الحدأة فوق الدوق الكبير بجناحين ساكنين ، وهنا سمع دوىّ إطلاقة تردد صداها فى أرجاء الوادى وترك الطائر أخدوداً من الريش سابحاً فى الفضاء وخفقت جناحاه العظيمتان محمومتين عاجزتين تحاولا عبثاً الابتعاد عن دائرة الخطر ، ولكن الجبّان عاجله بإطلاقة ثانية فخرّت الحدأة وهى تطلق صيحة مأتمية فى بحر من الريش .

ولكن صرخة الفرح التى أطلقها الأب لم تجد صداها فى ولده ، فمع دوىّ الإطلاقة الثانية رفع هذا يده إلى خدّه عندما أحسّ وكأن سلكًا محمياً اخترق لحم وجهه ، أو لسعة سوط أصابته . وتأمل يده فوجدها ملطخة بالدم وأحس بشىء من الخوف ثم أدرك بعد ذلك بقليل أن أباه أصابه بعيار نارى .

– لقد أصبتنى ، أبتاه – قال باستحياء .

وتسمّر الجبّان فى مكانه وانحسر حماسه فجأة ، وعندما اقترب منه كان يوشك أن يبكى غيظًا :

– هل الأمر خطير يابنى ؟ هل الأمر خطير ؟ – سأله منفعلاً .

واسودّ كل شىء فى عين الجبّان لثوان ، الأرض والسماء وكل شىء . وما عادت مدخراته التى جمعها بحرص ، لحظتها ، مهمة ولا حياته الشحيحة ذات معنى . وما عساه يفعل لو أنه قتل ولده ؟ لو أن ولده لن يقوى على التقدم ؟ لكن أفكاره السوداوية ما لبثت أن تبددت عندما اقترب من الصبى . فأطلق قهقهة حادة منفعلة وراح يؤدى حركات مضحكة :

– آه لا بأس عليك . لا بأس .لقد ظننت الأمر خطيرا ، إنها مجرد كرة رصاصية . هل تؤلمك ؟ هل يؤلمك هذا ؟ ها . . . ها . . . ها . إنها كرة رصاصية واحدة وحسب .

لم يرق لدانييل (البوم) ذلك الاستخفاف بجرحه ، فلقد كان عياراً ناريأ صغر أم كبر . وتحسّس بلسانه وجود عقدة صغيرة فى باطن خدّه ، إنها الخردقة ، خردقة ربعية ، أى بمثابة طلقة ، طلقة صغيرة .

– الآن تؤلمنى أقل . إنها كالخدرانة ، لكنها كانت تؤلمنى من قبل .

كان الجرح ينزف لكن رأس أبيه اتجّه من جديد صوب الحدأة المجندلة ، فما حدث للولد ليس ذا بال :

– هل رأيت كيف سقطت ، دانييل ؟ هل رأيت كيف أرادت الماكرة أن تلتقط أنفاسها بعد الإطلاقة الأولى ؟

ولحقت بدانييل (البوم) عدوى حماس الأب فقال :

– بالطبع أبتاه ، لقد سقطت هناك .

وخفّ الاثنان نحو المكان المحدد . كانت الحدأة ، التى تبلغ المترين باعاً ، ماتزال تتلوى فى النزع الأخير .

وفى طريق العودة سأل دانييل (البوم) أباه :

– هل تظن والدى ، أن الجرح سيترك أثراً فى وجهى ؟

فرد عليه الجبّان دون أن يعيره اهتماماً يذكر :

– كلا ، بل سيندمل تماماً .

وأوشكت عينا دانييل أن تدمعا :

– لكن ... لكن ألم يترك الجرح ندبة ؟

– كلا بالطبع فليس الأمر ذا بال – قال أبوه بفتور .

واضطر دانييل (البوم) أن يشغل فكره بشئ آخر كى لا يجهش بالبكاء ، ولكن الجبّان أوقفه فجأة ممسكاً برقبته :

– اسمع . لاتخبر أمك بأى شىء مما حدث ، مفهوم . لاتتكلم عن هذا أن كنت تريد أن تصحبنى ثانية إلى الصيد ، هل اتفقنا ؟

وطاب لدانييل أن يشعر بأنه مشترك مع أبيه فى الجرم فقال :

– اتفقنا .

وفى اليوم التالى ذهب الجبّان إلى المدينة حـاملاً الحدأة القتيل ، وعاد في العصر فحمل الدوق الكبير فى قفصه وذهب به من دون أن يغير ملابسه إلى كويّرا ، الضيعة المجاورة .

وفى المساء ، بعد العشـاء ، وضع على الطاولة ، وهو يتوجه بالكلام إلى زوجته ، خمس أوراق نقدية من فئة المـائة قائلاً :

– اسمـعى ، هذا هو ريع الدوق الكبـير . وكـما ترين فـإنه لم يكن ضيفاً مدّللاً ، لقد بعته إلى قس كويرا بأربعمائة ، وأعطتنى جمعية مكافحة الحيوانات الضارة مائة أخرى لقاء الحدأة .

ولم تعلّق أم دانييل بشيء فقـد كان زوجها على الدوام عنيداً مـتصلباً في الدفاع عـن رأيه ولم يكن يخفى طبـعه هذا بل كان يقـول : « منذ يوم عرسى أعجـبنى أن أكون دائماً فوق امرأتى » ، ثم كـان يضحك ويضحك مقهقهاً لسبب هو أدرى به .

الفصل الثالث عشر

ثمة أمور لاتحكمها إرادة الانسان . ذلك ما اكتشفه دانييل (البوم) مؤخرا وكان من قبل يظن أن الإنسان حر فى الاختيار بين ما يريد وما لا يريد . بل إن فى مقدوره ، هو نفسه ، أن يذهب ، إن هو أراد ذلك ، ليقلع ضرسه الذى يؤلمه عند طبيب الأسنان الذى يقعد صباح كل خميس ليمارس عمله فى شرفة محل كينو (الأقطع) لقاء إيجار بسيط . وقد يبلغ الأمر ببعض الرجال أنهم يقررون الاستغناء عن عضو من أعضائهم إن تحوّل هذا العضو إلى مشكلة بالنسبة إليهم ، وهو ما فعله لوكاس (الابتر) .

اى أن (البوم) كان يظن حتى ذلك المساء الذى تسلقوا فيه سور مزرعة (الأمريكى) لسرقة التفاح وحتى افتضاح أمرهم إذ فاجأتهم ميكا ، أن بإمكان الرجال أن يتصرفوا على هواهم تجاه كل ما يقف حجر عثرة فى طريقهم سواء أكان متصلا بالجسم أم بالروح . لكنه ، ما إن غادر عزبة (الأمريكى) بأذنين معقوصتين وتفاحة فى كل واحدة من يديه ، حتى أدرك أن إرادة الإنسان هى ليست كل شىء فى الحياة وأن ثمة أشياء تفرض عليه إرادتها ، تقهره وتخضعه لسلطانها الطاغى المستبد . إنه يعى الآن بعض الأمثلة كحسن ميكا الأخاذ وارتيابية بالجو (الملحد) وحميّة دون خوسيه المتوقدة ونفور سارة من أخيها (البعرور) .

لقد أدرك دانييل (البوم) ، منذ محاولة سرقة التفاح الفاشلة ، أن ميكا رائعة الجمال وأن جمالها أشعل فى صدره جذوة لا يعرف كنهها ، جذوة تشوى وجهه عندما يذكر اسمها أمامه . كان ذلك شيئا غريبا عليه غيّر مجرى حياته التى كانت حتى ذلك الوقت فاترة وبلا ارتباط . وتقبل دانييل (البوم) هذه الحالة بخضوع من يتقبل الأمور المقدرة . إنه لا يستطيع أن يتجنب التفكير فى ميكا كل ليلة عند النوم أو وهو يأكل اللبن

المحلى أيام الآحـاد وأثناء الأعيـاد . وحملـه هذا على الاعتـقاد بأن مـيكا ستكون للسعيد الذى يفوز بحبها واحة سلام عذبة هانئة .

وحاول (البـوم) فى البداية التملص من هـذا الضغط الداخلى الذى كان يهدّد استـقلاليته التى ما كانت تقبل المسـاومة ، ولكنه تقبل فى النهاية حالة التفكيـر الدائم بميكا باعتبارها حـالة مكملة له وباعتبارها شـيئا يكّون جزءا حـميمـا من ذاته : تغيب عن البلدة فيـسود الوادى فى عينيـه وتبدو السماء والأرض جردابن مـفزعتين رماديتين ، وتعود فيتغـير الحال ويكتسب لونا آخر ، فخـوار البقر يصير أحـلى وخضرة الحقول تصـبح أشّد إغراءً ، حتى غناء الشحارير يكتسب،بين العوسج ، نغمات أوضح وأكثر شفافية . كان يحـدث وقتها ضـرب من الانبعاث العجـيب فى الوادى ، أو العرض المفعّـل لإمكانياته ولعطوره ولأصـواته ولهمـساته التى تميـزه . فكأن ليس للوادى من شمس غيـر عينى ميكا ، كأن ليس له من أنسـام غير تلك التى تهّب مع كلماتها .

كان دانييل(البوم) يكتم اعجابه الشديد بميكا ويحافظ عليه فى سرّه ، لايشاركه فى معرفته أحـد . مع ذلك فثمة شىء فى عينيه أو ربما فى صوته كان يفضح دواخله يصعب إسكاته .

كان أصدقاؤه معجبين كذلك بالفتاة : كـان يعجبهم منها جمالها كما يعجبهم من الحداد قـوته ، ومن القس ، وهـو القديس العظـيم ، رقّة قلبه ومن كـينو (الأقطع) ، قـبل أن يعـرف (البعـرور) أنه بكى يوم مـاتت زوجته ، فضلة يده . نعم كانوا هم أيضا معجبين بها .

ولكن إعجابهم كـان من قبيل الإعجاب بالإشياء الجـملية أو القوية التى لاتخلّف أثرا من بعدها . كانوا ، بلا شك ، يحسون فى حضرتها بما يشبه انفعالاجـماليا جديدا لا يلبث أن يتبدد أمام زرزور صرعـته مصيداتهم أو ضربة من مسطرة دون مويسيس المعلم .

وهكذا فان تولههم لم يكن دائما بل عابرا زائلا كالفرقعة .

لقـد لاحظ دانييل (البـوم) أن معنوياته وهى مـوجودة تخـتلف عن معنويات أصدقـائه ، إنها حالة خاصة ، وإلا ، فلماذا لايفـقد (البعرور) أو (الأقرع) ثلاثة كيلو غرامات من وزنهمـا عندما تسافر ميكا إلى أمريكا أو كيلو غـرامين إن هى اكتفت بالسفـر إلى المدينة ؟ ولمـاذا لايستعـيدان ما فقـداه من وزن ويزيدان عليه كيـلو غراما واحـدا إن هى عادت إلى الوادى لتقيم فيـه لمدة طويلة ؟ هنا يقوم البرهان على أن مشاعره نحو ميـكا متميزة ومختلفة جدا عن مشاعـر زملائه . وهم إن رسموا الصلبان وهم يتحدثون عنها أو أغلق (البعرور) عـينيه وأطلق صافرة حادة قصيـرة كما يفعل أبوه عندما يشاهد فتاة جميلة ، فـما ذاك إلا من قبيل التظاهر المجرد والإعجاب السطحى وليس هو بالحركة الجياشة المتواصلة الصادرة من الأعماق .

وتحدثوا عصر أحد الأيام فى حقل البلوطة عن ميكا . ذكروها بمناسبة الحديث عن الـقتيل الذى يقـال إنه مدفـون من زمن الحرب تحت الشـجرة المعّمرة وسط الحقل . قال (الأقرع) :

– لابد أنه صـار رمادا ولم تبق منه ولاحـتى العظام . أتعـتقـدان أنه عندما تموت ميكا ستنبعث منها رائحة كريهة كالآخرين وستصبح ترابا ؟

وأحس (البـوم) بدفقـة دم تصعد إلـى وجهه وهـّب غاضبـا فكأن أحدهم شتم أمه :

– لا . ذلك غيرممكـن أن تصدر عن ميكا رائحة كـريهة ، ولا حتى عندما تموت .

واطلق (البعرور) ضحكة خبيثة وقال :

– يا لك من غبى . فـعندما تموت ميكا سـتصدر رائحـة نتنة مثل أى آدمى .

ولم يستسلم (البوم) :

– إنها طيبة . ويمكن أن تموت برائحة القداسة .

– وماذا يعنى هذا ؟ – دمدم (البعرور)

- أنها رائحة القديسين .

واحتدّ (البعرور) :

- هذا كـلام فارغ . أو تظن أن للقـديسين رائحة الكولونيـا ؟ نعم ، هذا عنـد الرب ولكن لـيس عندنا نـحن الذين نشـم بأنوفنـا . عندك دون خوسيه ، لا أظن أن هناك قديسا مثله ، ولكن ، ألا تنبعث من فمه رائحة كريهـة ؟ إنه قديس قدر ما تـريد ، ولكنه عندما يموت ستنبـعث منه رائحة كريهة كما هو حال ميكا وحالك وحالى وحال جميع البشر .

وغيّر جيرمان (الأقرع) مجرى الحديث ، وكان قد مر أسبوعان على حادثة سطوهم على مـزرعة (الأمريكى) . قلب (الأقرع) عينيـه ليتكلّم فقد كان الكلام يكلفه جهدا كبيرا وكان أبوه الاسكافى يقول عنه إن الافكار تتسرب من قرعته . سأل فجأة :

- هل دققتم . . . هل دققتم فى جلد ميكا ؟ كأنه من حرير .

- هذا يسـمى بشرة . . . يقـال « عندها بشرة » - قـال (البعـرور) موضحا ثم أضاف - : ميكا هى الوحيدة التى لها بشرة ناعمة فى البلدة .

وأحس دانييل (البوم) بسعادة كبيرة وهو يسمع بأن ميكا هى الوحيدة التى لها بشرة ناعمة فى البلدة ، وقال باستحياء :

- إن جلدها يشبه تفاحة صقيلة .

وواصل (البعرور) كلامه :

- خوسيـفا ، التى انتحرت بسبب (الأقطع) ، كـانت سمينة ، مع ذلك فقد كانت لها ، حسبما يقول أبى وسارة ، بشرة ناعمة .

الكثيرات فى المدن يمتلكن بشرة ناعمة ، أما فى القرى فالأمر مختلف لأن الشمس تحرق الجلد والمـاء يجعّده .

كان جيرمان (الأقرع) يعرف شـيئا من ذلك ، فقد كان لديه أخ فى المدينة ، وكان هذا الأخ يحكى له أشياء كثيرة عن المدينة عندما يزورهم فى بعض السنين أيام أعياد الميلاد :

- ليس هذا هو السبب - قال مقاطعا بنـبرة من يمتلك معرفة مطلقة -

أنا أعرف لمـاذا . لأن الآنسات الصغيرات يضعن فى الليل الدهون ويتناولن العقاقير التى تزيل التجاعيد .

ونظر إليه الاثنان الآخران ببلادة :

– بل أعرف أكـثر من هذا . خفض صوته بينمـا اقترب منه صاحـباه مدفوعين بجو التكتم الغامض الذى أشاعه – .

هل تدريان لمـاذا لايتجعد جلد ميكا ولمـاذا تحافظ على بشرتها ناعمة طرية كالأطفال ؟

وامتزج استفهامهما فى صوت واحد :

– لمـاذا ؟

– لأنها تضع حقنـة شرجية كل ليلة قبل النوم ، وهـو ما يفعله أهل السينما . هذا ما يقوله أبى ، وقد قال دون ريكاردو إن هذا يمكن أن يكون صحيحا لأن الشيخوخة تخرج من البطن ، ولأن الوجه يتجعد عندما تمتلئ المصارين بالأوساخ .

وما كان أشدّ وقع هذا القول على دانييل (البوم) . لقد راحت ميكا والحقنة الشرجية ترسمان فى مخيلته صورة مهينة . « إنهما طرفا نقيض غير قابلين للالتقاء » . لكنه تذكر فجأة مـا كان دون مويسيس المعلم يقوله دائما من أن النقيضين قد يلتقيان ، فأحس بكآبة عمـيقة وكأن شيئا ما يغادر بدنه متدفـقا . فكلام (الأقرع) إذا صحيح ووارد تمامـاً . ولكنه ، عندما رأى ميكا بعـد يومين من ذلك ، شعر أن تلك الصـور الوضيعـة قد تلاشت ، وأدرك أن ريكاردو والإسكافى وجيرمان (الأقـرع) وجميع أهل البلدة إنما يقولون مـا يقولون عن الحقنـة الشرجيـة لأن أمهاتهم ونسـاءهم وأخواتهم وبناتهم لايمتلكن بشرة ناعمة كبشرة ميكا .

كانت صورة الفتاة ترافق (البوم) فـى جده ولهوه ، لقد استحكمت صورتها فى رأسـه حتى أصبحت هاجسـا ، وما كان يقدّر حـينها أن ميكا تكبره بعشرة أعوام ، وما كان يقلقه أنهما ينتميان إلى طبقتين اجتماعيتين مخـتلفـتين . وإن أسف على أنه ولد فقـيرا وولدت هى غنيـة ، وعلى أن

والده الجبان لم يهاجر إلى الأمريكتين كأبيهما خيراردو ، الابن الأصغر للسيدة ميكائيلا ، ولو أنه فعل ذلك لامتلك مطعمين فاخرين ومحلا لأجهزة الراديو وثلاث بواخر ملاحية ، أو على الأقل معرضا تجاريا للاجهزة الكهربائية المنزلية كذلك الذى يديره « خيال الأمريكى » فى المدينة . فلو أنه امتلك مثل ذلك المعرض لما فصله عن ميكا غير المطعمين والبواخر الثلاث ، وفضلا عن هذا وذاك ، محل أجهزة الراديو ، وما هو بالشيء التافه القليل .

ومع إعجاب (البوم) بميكا وحبّه لها ، فقد مرّت سنوات قبل أن يتمكن من الكلام معها ، إذا استثنينا بالطبع التوبيخ الرقيق يوم حادثة التفاحات . كان يكتفى بوداعها والترحيب بها بنظرة حزينة أو مشرقة تبعا للظروف ،حتى حدث صباح يوم صيفى أن حملته إلى الكنيسة فى سيارتها ، تلك السيارة الطويلة السوداء اللامعة التى ما كانت تصدر صوتا أثناء سيرها . لم يكن هو قد أكمل العاشرة ، ولم يكن أمامه سوى عام واحد للدخول إلى المدرسة وبدء مسيرة التقدم . أما هى فكانت قد أكملت التاسعة عشرة دون أن تؤثر السنوات الثلاث التى مرّت منذ ليلة التفاحات على بشرتها الناعمة ولا على وجهها ولا على جسمها ، بل لقد جعلت بشرتها ووجهها وجسمها أكثر تناسقا واكتمالا .

كان يرتقى العقبة وقد أتعبته شمس أغسطس بينما كانت تتلاحق فى أرجاء الوادى أجراس الإعلان الأخير عن القداس . كان ما يزال أمامه نحو من كيلو متر واحد ، فراح يحث الخطى للوصول قبل أن يبدأ دون خوسيه بقراءة الإنجيل . وفجأة سمع بوق سيارة ميكا السوداء قريبا منه . والتفت مفزوعا فتلقته من لدن الفتاة ابتسامة صادقة غير متوقعة . وشعر دانييل (البوم) بخدر وتساءل إن كانت ميكا ما تزال تذكر المحاولة الفاشلة لسرقة التفاح . لكنها لم تشر إلى ذلك الفصل المؤلم .

- هل أنت ذاهب إلى القدّاس ، أيها الصغير ؟

وفقد (البوم) لسانه فلم يردّ بغير حركة من رأسه . فتحت بنفسها باب السيارة ودعته :

- اصعد فالوقت متأخر والجو حار .

وعندما ثاب دانييل (البوم) إلى وعيه وجد نفسه جالسا إلى جنب ميكا يستعرض الأشجار وهى تمر مسرعة من خلف زجاج السيارة .

وأحس قرب الفتاة فى عروقه وفى ضغط أعصابه المضطرب . كان ذلك يبدو كالحلم الذى يؤلم ويوجع وهو فى قمته . « ربّاه - فكّر - هذا يفوق ما كنت أتصوّره ، وتسمّر وتيبّس لما داعبت بيدها الناعمة قفاه ، وسألته برقة :

- ابن من أنت ؟ .

وتلعثم (البوم) وهو يجاهد أعصابه :

- ابن . . . بائع الجبن .

- ابن سلفادور ؟

وخفض رأسه موافقا ، وقدّر أنها كانت تبتسم . وفكر ، لما لامس جلدها الناعم قفاه ، أن الفتاه تمتلك بشرة حتى فى راحة يدها .

وبدأ برج الكنيسة يلوح من بين الأشجار .

- هل يمكنك أن تأتينى بقطعتين من جبن القشدة هذا العصر - قالت .

وعاود دانييل (البوم) اجابته الآلية برأسه بعد أن أعياه الكلام . ولم يحدد وهو يصلي ، مكان رأسه من مكان قدميه ، فأدى علامة التصليب مرتين فى غير وقتها بينما راح آنخل ، عريف الحرس المدنى ، يضحك بانفعال مغطيا وجهه بقبعته المثلثة وهو يرى سوء أداء الصغير .

وفى العصر ارتدى ثيابه الجديدة وصفّف شعره وغسل ركبتيه وانطلق إلى بيت (الأمريكى) حاملا الجبن . وذهل وهو يتأمل فخامة بيت ميكا :

أثاث لامع وأرضية صقيلة ناعمة فكأن لها ، هى الأخرى ، بشرة ناعمة .

ومع ظهور ميكا أضاع (البوم) ما جمع من شجاعة أثناء الطريق ، وبينما تتفحص الجبن وتدفع له ثمنه راحت تطرح عليه السؤال تلو السؤال . إنها فتاة بسيطة لطيفة ولاتتذكر إطلاقا حادثة التفاحات المزعجة . سألته :

– ما اسمك ؟

– دا . . . دانييل

– هل أنت تلميذ فى المدرسة ؟

– نعم .

– هل عندك أصدقاء ؟

– نعم .

– ما أسماؤهم ؟

– الـ . . . (بعرور) والـ . . . (اقرع)

وأبدت الفتاة إيماءة امتعاض وقالت :

– ما هذا ؟ لماذا تدعو أصدقاءك بهذه الأسماء القبيحة ؟

وارتبك دانييل (البوم) وأدرك أنه ردّ بغباء ومن دون تفكير . كان عليه أن يقول إن أسماءهم هى روكيتو وجيرمانين . فميكا فتاة رقيقة مهذبة وقد جرح بألفاظه تلك أحاسيسها . وندم فى أعماق نفسه على تسرعّه ، وشعر فى تلك اللحظة ، أمام وجه ميكا الباسم الجذاب . بأن فكرة الذهاب إلى المدرسة للتقدم تروق له . سيجتهد فى دراسته ، وقد يكسب بعد ذلك أموالا طائلة ، وعندها سيكون وميكا على قدم المساواة وسيمكنه الزواج منها وربما ستلقى ماريوكا – أوكا بنفسها ، بعد سماعها بزواجه ، إلى النهر عارية كما فعلت خوسيفا يوم زفاف كينو . ولازمه شعور بالارتياح والحماس وهو يفكر فى المدينة وفى أنه قد يصبح فى يوم من الأيام رجلا ذا شأن وخطر وفى أن ميكا ، هكذا ، ستفقد مسافتها وستكون

على مقربة من امكانياته . سيترك ، عندها ، عادة النطق بالالقاب والكلمات البذيئة ، ولن يتبادل الضرب مع أصدقائه بالروث اليابس بل سيفوح منه أريج العطور الثمينة بدلا من رائحة القريش . ولن تعامله ميكا ، حينها ، معاملة الصبى القروى غير المهذب .

عندما غادر دانيل (البوم) بيت (الأمريكى) كان الوقت ليلا ووجد الفتى أن التفكير فى الظلمة يبعث فى نفسه المتعة . ولكنه فزع عندما شعر بأصابع تضغط على لحم يده . كانت أصابع اوكا - اوكا :

- لماذا تأخرت كل هذا الوقت فى ايصال الجبن إلى ميكا ؟

وساءه أن تفسد اوكا - اوكا عليه وحدته بهذه السهولة ، وألا تدعه وشأنه وهو ينضج أو وهو يفكر فى مستقبله .

وانتصب ، بظرف ، متعاليا :

- هلّا تركتنى وشأنى وإلى الأبد أيتها التافهة ؟

كان يسير مسرعا وكانت ماريوكا-أوكا تجاريه عدوا وهو ينزل العقبة :

- لماذا ارتديت بدلتك الجديدة وأنت توصل الجبن ؟ أجبنى .

وتوقف هو فى وسط الطريق مغتاظا ، وفكّر للحظة فى صفع الطفلة قبل أن يقول لها :

- لا دخل لك أنت فى شؤونى . هل فهمت ؟

وردّت ماريوكا - أوكا بصوت مرتعش :

- الأن ميكا تعجبك أكثر منى ؟

فأطلق (البوم) قهقهة واقترب من الطفلة صارخا فيها :

- اسمعى. ميكا هى أجمل فتاة فى الوادى . إنها ذات بشرة ناعمة ، أما أنت فقبيحة كجوزة الهند ووجهك ملىء بالنمش ، ألا ترين الفرق ؟

وواصل طريقه إلى البيت ، أما مأريوكا - اوكا فتوقفت عن متابعته وجلست على جانب الطريق الأيمن ثم أخفت وجهها الصغير المنمش بين يديها وراحت تبكى بكاءً مرّاً .

الفصل الرابع عشر

ليقل الآخرون مايحلو لهم ، فليس أحد بقادر على منعهم من ذلك ، ولكن ليس كل ما يقول هؤلاء عنهم هو الحقيقة . فلا الذنب كله يقع على روكى (البعرور) ، ولاهم يريدون أكثر من قضاء الوقت على أفضل وجه ممكن . أما ألا تروق طريقتهم فى قضاء الوقت لـ (الفلفلة) الكبرى وللجبّان ولدون مويسيس المعلم فذلك شئ آخر . ولكن من يستطيع أن يقرر أن السبب فى ذلك لا يكمن فى سلوكهم الشيطانى بل فى غرابة طبع الفلفلة والجبّان والبيدق ؟ فالناس تنحى باللائمة مباشرة على الصغار وإن صدر غضب الكبار فى أحيان كثيرة عن طبيعتهم النزقة المرتابة لا عن أفعال الصغار الخبيثة . خذ باكو الحداد مثلا . أنه يفهمهم لأنه يتمتع بصحة جيدة ومعدة صحيحة ، بينما لايفهمهم (البيدق) بسبب أحماضه ووجهه الملتوى وكبده المعلولة . أما أبوه الجبّان فإن حرصه الشديد على الإدخار يمنعه من رؤية الأشياء بمنظار متفائل منشرح وبالوضع الذى هى عليه عادة . أما (الفلفلة) الكبرى فلأنها فى نهاية المطاف صاحبة القط الذى تحبه وكأنه ثمرة غير منطقية لبطنها اليابس . كما لا ذنب لهم فى أن تحمل (الفلفلة) ذلك الشعور الودود وغير المنتظم تجاه الحيوان ، ولافى أن يدخل القط الواجهة الزجاجية عندما تطل الشمس بوجهها المحتقن الأشقر على الوادى فى غفلة من الغيوم . لا ذنب لأحد فى ذلك حقا . ولكن دانييل (البوم) يستنتج أن الأطفال يحمّلون وزر كل ما لا يقع وزره على أحد ، وأنهم لايستطيعون من ذلك خلاصا .

أمـا ماجـرى للقط فلم يكن خـارجا على المألوف . ولو أن القط كـان لانطونيو (الحـوصلة) أو حتى للأرنبات لمـا حدث شئ ، أما الفلفلة فـإنها ميّالة لإثارة الفضائح ، وهى بـحبها للقط تبدى نزعة مريضة وغيـر طبيعية فيها ، فلو كانت الفعلة خطرة أو كان فيها مقدار ذرة من الخطيئة لما ضحك دون خوسيـه القس كل ذلك الضحك عندما حكيت له . لقد كـان الحيوان بخروجه إلى الواجهـة الزجاجية للتشمس يبـحث عن المشاكل ، وإن كانت هذه العادة ، من نـاحية أخـرى ، تمثل مكسبـا اقتصـاديا جيـدا لـ (البوم) وأصدقائه . فـقد كانت (الفلفلة) تسـألهم حين يذهبون إلى محلـها لشراء ريال من الكعك المحمّص :

- أتريدون من كعك العلبة أم من الكعك الذى داسه القط ؟

فيردّون عليها دائما :

- من الكعك الذى داسه القط .

فالكعك الذى داسه القط كان للعـرض ، ومنه كانت (الفلفلة) الكبرى تبـيع كل أربع بريال ، بينمـا تبيع كل اثنتـين بريال إذا كـانتا من العلبـة . وماكـان يهم الأولاد كثيرا أن يكون القـط قد داس الكعكات ، بل لم يكن القط أحيانا يكتفى بأن يدوس الكعك ، وماكـان ذلك يقلقهم كثيرا ، فأربع خير من اثنتين دائما ومهما كانت الأحوال .

أما العدسة المكبرة فقد كان جيرمان (الأقرع) هو من حملها إلى المدرسة صباح ذلك اليوم الربيعى . كان أبوه يحتفظ بها فى دكانه لفحص الأحذية . ولما كان نظر اندريس قويا فما كان يستخـدمها إلا نادرا . كان سـيستعملها لو أنهـا قدرت على رفع ثيـاب النسوة قليـلا ولكنه كان يقـول : «لاداعى لاستخدام آلات لرؤية السيقان أغلظ مما هى عليه» .

وقام الأولاد صباح ذلك اليـوم بكل أنواع التجارب مستخـدمين عدسة جـيرمـان (الأقرع) المكـبرة . فـأحرق روكى (البـعـرور) ودانييل (البـوم) سيجارتين رديئـتين مصنوعتين من ورق البطاطا بعد أن ركـزا أشعة الشمس عليهما ، ثم تفحصا الندب ، التى بدت من خلال الزجاج الغليظ تضاريس مرعـبة غير منتظمـة . ثم عاين كل منهمـا عين الآخر ولسانه وأذنيـه حتى تعبا منها ومن الصور الغريبة التى كانت تحدثها .

وبينمـا كان الأولاد يقطـعون البلدة فى طريق الـعودة إلى بيـوتهم من المدرسـة شـاهدوا قط الفلفـلات مـتكورا على صـحن الكعك فى أقـصى الواجهة الزجاجية من الدكـان . كان يغط فى نوم هانئ وهو يعرض كرشه الأسود المشعر للشـمس وينعم بالدفء . واقتربوا ففتح مرتـابا عينا خضراء مدورة مرعـبة . ولكنه عاود إغماضـها مطمئنا إلى الحمـاية التى يكفلها له زجاج الواجهة ويبقى سـاكنا مستلقيا . ليس فى مقـدور أحد أن يعين على الدماغ المكان الذى تولد فيه الأفكار العظيمة . ولا حتى دانييل (البوم) يقدر أن يقول صـادقا فى أية ثنية أو فى أى ركن من دماغـه ولدت فكرة توسيط العدسة المـكبرة بين الشمس وكرش القط الأسـود . لقد ولدت الفكرة فى رأسه ولادة عفوية ، بل تكاد تكون طبيعـية ، شئ من قبيل تدفق المياه من النبع . لقد تركزت أشعة الشمس على شعر القط الأسود مؤلفة لثوان خالا برّاقـا . وراح الأصدقـاء الثلاثـة ينتظرون حدوث العـمليـة الفيـزياوية ، ولاحظوا كيف أن طبقة الشعر العلوية بدأت تطلق شررا بينما الحيوان ملتزم بوضعه الحـالم الهانئ . وفجأة ارتفع من الخـال النارى المثبت على الكرش الداكن خيط من الدخان فـانتفض قط الفلفلات فى قفزة بهلوانيـة مصحوبة بمواء وحشى :

- ماررامياوو . . . مياووو . . .

ثم راح المواء المتألم يخفت شيئا فشيئا فى داخل المحل .

ومن دون سابق اتفاق ، انطلق الأصدقاء الثلاثة يعدون ، ولكن (الفلفلة) الكبرى كانت أسرع منهم . وأطلت بوجهها المعكر من الباب قبل أن يفلح الصبيان فى الاختفاء نزولا من العقبة . كانت ترفع قبضتها عاليا باكية وهى تحس بالغضب والعجز :

- يا أنذال ، ياسفلة ، ومن سواكم يفعل هذا ؟ لقد أحرقتم القط ولكنى سأنتقم منكم وستذكرون ذلك .

وتذكرونه فعلا . فقد فاقت فعلة دون مويسيس المعلم بهم فعلتهم بالقط ، وأنزل بهم عقوبة الاعتبار ، فكان (البوم) يسأل نفسه : «لماذا نعاقب بدزينة من ضربات المساطر فى كل يد وبالبقاء طول النهار حاملين مجلد «التأريخ المقدس» الضخم بلوحاته الملونة التى تزيد على المائة لمجرد أننا أحرقنا القط ؟ ولماذا لايفرض أحد على من يخضعنا إلى هذا العقاب المتعسف عقوبة أشد لنصل هكذا ، من عقوبة لأخرى ، إلى عقوبة الإعدام؟» ولكن لا . فمع أنه مصيب فى حجته فلابد أن يحل العقاب به دائما . فهذا هو حال النظام التربوى القائم وهكذا تجب طاعته بإذعان . إنها عدالة الرجال المبنية على المزاج وغياب المنطق وانعدام المساواة .

وتمر الدقائق بطيئة ، إن ركبتاه تؤلمانه وساعده يرتجف ، إنه يحس بوخز الأعصاب فيه وهو يرفع «التأريخ المقدس» عاليا ، وراح (البوم) يفكر فى أن التجارة الوحيدة الرابحة فى الحياة هى أن يعجل فى ترك مرحلة الطفولة والانتقال إلى مرحلة الرجولة . فى هذه الحالة فقط سيكون فى إمكانه

مطمئنا حرق قط بعدسة مكبرة دون أن تهتـز قواعد البلدة الاجتماعية ودون أن يتعسف المعلم مـويسيس فى استخدام صلاحيـاته دون أن يتعرض بدوره للعقاب .

وماذا عن حـادثة النفق ؟ لقد نتج عـن حادثة العدسـة المكبرة سـقوط ضحـية بريئة هو القط ، أما فى حـادثة النفق فلم تسقط أية ضحـية . ولو قدر لضـحية أن تسـقط لكانوا هم الضحيـة . مع ذلك فقد انهـال الضرب على راحتـهم وأمضـوا الساعات راكـعين على ركـبهم وحاملـين «التاريخ المقدس» بأيديهم المرفوعة دائما فوق رؤوسهم . ياله من عمل غير إنسانى ، إنه بالمخـتصر المـفيد استـغـلال واضح للسلطة . أمـا كان دون مويسـيس (البيدق) سيرتاح لو أن القطار السريع جـرفهم ثلاثتهم ذلك المساء ؟ فلماذا عوقـبا إذا ، هل لأن القطار لم يجرفـهم أمامه ؟ لقـد كانوا فى الواقع فى ورطة ، وكان الموقف صعـبا : فإما الموت تقطيعا بين عـجلات القطار وإما قضاء ثلاثة أيام ركـوعا على الركبتين ، و«التـأريخ المقدس» بلوحاته الملونة التى تزيد على المائة مرفوعا فوق مستوى رؤوسهم .

روكى (البعرور) هو الآخر لايحسن تحديد المكان الذى انبثقت منه تلك الفكرة الغريبة :

فكرة نزع السراويل الداخلية داخل النفق وانتظار القطار السريع هناك . كانـوا من قبل ينتظرون القطار المخـتلط أو قطارا المحـافظات داخل النفق ، ولكن هذين القطارين بطيئان ولايحـدث مرورهما فى النفق المظلم إلا تأثيرا طفيفا فى نفوسهم . فكان لابد إذا من الإبداع . واقترح روكى عليهم هذه التجربة الجديدة : أن ينتظروا القطار السـريع داخل النفق ويتغوطوا ثلاثتهم مع مروره .

وأبدى دانييل (البوم) اعتراضا حكيما قبل أن يوافق ، قال :

- ومن لاتحدث عنده رغبة ؟

فرد عليه (البعرور) بحزم :

- ستحدث بمجرد أن يحس باقتراب القطار .

وناقشوا مسألة وضع السراويل . ولو أنهم أحسنوا التصرف فى هذه النقطة لما افتضح أمرهم ، ولو أن الشمس قبلها لم تشرق يوم حمل (الأقرع) العدسة إلى المدرسة لما حدث ماحدث . ولكن ثمة كيانات شيطانية تطير فى الهواء دائما وتتلذذ بتعقيد أفعال الأطفال البريئة وتعقيد كل ماهو بسيط وطبيعى .

فمن ذا الذى كان يفكر فى مصير سرواله وهو الذى يغامر بمصيره ذاته ؟ وهل يلتفت مصارع الثيران إلى قطعة القماش عندما يكون القرنان على بعد شبرين من ردفيه ؟ وحتى لو مزق الثور تلك القطعة فلن يسمع المصارع توبيخا من أمه ولن ينتظره معلمه الغاضب ليعاقبه بدزينتين من المساطر وبالركوع على ركبتيه رافعا «التأريخ المقدس» فوق مستوى رأسه . ثم إن المصارع يكسب فوق هذا نقودا كثيرة ، أما هم فإنهم يغامرون دون أن ينتظروا مكافأة أو تصفيقا ، ودون أن يأملوا الحصول على مدخنة أو عجلة من عجلات القطار . إنهم يحاولون وحسب إثبات جدارتهم أمام أنفسهم ، فهل يستحق ذلك كل هذا العقاب الصارم ؟

ودخل القطار السريع النفق مصفّرا نافخا يطلق الشرر فتهتز لحركته الجبال والصخور . أما الأولاد الثلاثة فقد قعدوا القرفصاء ، شاحبى الوجوه مُكشفين عن أعجازهم على مقربة نصف متر من السكة . وأحس

دانييـل (البوم) أن الأرض تميد مـن تحت قدميـه ورسم علامـة الصليب فى ذهنه . مر القطار يزأر من جنبه فلسع سوط من البـخار الساخن مؤخرته ، وارتجت جـدران النفق الذى عج بصـخب حديد مـدو . ومن بين قـصف الحديد وهدير السـرعة المحصورة بلغ سـمعه صوت (البعـرور) الجالس إلى جواره محذرا :

- امسكوا بركبتيكم .

وأمسك قويا بركبتيه تنفـيذا لأمر الزعيم ولأن جذب القطار كان شديدا لايقاوم ، أمسك بركبـتيه وأغمض عينيه وقلّص احشاءه . وأحس بسعادة وهو يرى أنه أنجز تماما ما طلبه روكى منه .

وبعد مرور القطـار أطلق الأصدقاء الثلاثة ضحكات مـكتومة . ونهض (الأقرع) وهو يسـعل بعد أن امـتلأ جوفـه بالدخان ، ثم سـعل (البوم) ، وأخـيرا سـعل (البعـرور) . لـم يكن (البـعرور) فى يوم من الأيام البـادئ . بالسعال وإن شعـر بالحاجة إلى ذلك . كانت ثمة منافسة غـير معلنة بينهم حول هذه المسألة .

كانوا لايزالون يضحكون عندما صاح روكى (البعرور) منبها :

- السراويل غير موجودة .

وتوقـفوا عن الضـحك فى الحال . وقـال (البـوم) وهو يتحـسس فى الظلام :

- لابد أنها هناك .

وقال الأقرع :

- احذرا لا تدوسا . . .

ونسى (البعرور) للحظة موضوع السراويل وسألهما :

- هل تغوطتما ؟

وامتزجت فى ظلمة النفق الداكنة ردود (البوم) و (الأقرع) المرضية :

- نعم .

- وانا كذلك - اقر (البعرور) وضحك عندما تأكد من إجماع أحشائهم الغريب . ولم تظهر السراويل . وواصلوا التفتيش حتى بلغوا فتحة النفق . كانت أعجازهم ملطخة برذاذ السخام ، وكانت خشيتهم من فقدان سراويليهم تطبع على وجوههم علامة ذهول مضحكة . مع ذلك لم يجرؤ أحد على الضحك . ماكانت معرفتهم بأبوين ساخطين ومعلم قاس تترك لهم مجالا كبيرا للشعور بالابتهاج . ولاحظوا فجأة على مسافة أربعة أمتار إلى الأمام وفى وسط السكة ، خرقة مشوهة المعالم مسوّدة . تناولها (البعرور) وعاينها الثلاثة وأخيرا تجرّأ (البوم) ليقول متمتما وبصوت خافت :

- إنها قطعة من سروالى .

أما بقية الملابس فراحت تظهر على طول الطريق قطعا صغيرة ممزقة . كانت قوة العصف قد انتزعت الملابس من مكانها ليتلقفها القطار بين حديده وليمزقها مثل وحش ضار . ولولا ذلك العارض ماعلم أحد بالمغامرة ، ولكنها الكيانات المنحوسة الطائرة على الدوام فى الفضاء تظهر من جديد لتعقد عليهم الأمور . بالطبع فإن عقوبة دون مويسيس مبررة حتى قبل

معاينة تصرفهم الشيطانى من كل جوانبه ، فهو متطرف فى العقاب دائما . ويبدو أن معاقبة التلاميذ كانت تمنحه متعة كبيرة ، فقد كان شدقه الأيمن ينفرج فى مثل هذه الحالات حتى يوشك على بلوغ سالفه قاطع الطريق السوداء .

وربّ سائل يسأل إن كانوا أثاروا فضيحة وهم يدخلون البلدة من دون سراويل؟ هذا ماحدث بالطبع . وماذا عساهم فاعلين فى مثل هذا الموقف ؟ هل كان يتوجب عليهم ، لمجرد أنهم أضاعوا سراويلهم ، عدم العودة إلى البلدة ؟ ما أفضح ماكان يعنيه عندهم ثلاثتهم وقوفهم دائما فى موقف القرار والاختيار بين مفترقات صعبة جدا . وكم كانت صعبة عليهم ماكانت تحدثه أشياؤهم من حدة فى دون مويسيس المعلم ، أشياؤهم التى ماكانت تعنيه من قريب ولا من بعيد .

الفصل الخامس عشر

طالما صرخ المعلم دون مويسيس أن حاجته إلى المرأة تفوق حاجته إلى الطعام . إنه يردد ذلك فى البلدة منذ عشر سنوات ، مع ذلك فمازال محروماً من المرأة المنشودة (الفلفلات) ، و(الأرنبات) ودون خوسيه القس ، وهو القديس الكبير ، يقرّون بحاجته تلك وخاصة لدواعى مكانته الوظيفية . إذ لايمكن لمعلم الذهاب إلى المدرسة كيفما اتفق ، فليس المعلم جبّاناً ولا حدادا بل هو موظف ، وللوظيفة متطلباتها ، وأولى متطلبات الوظيفة أن يحصل الموظف على أتعاب كافية ، ولكن دون مويسيس لايتقاضى أية أتعاب ، فليس غريباً إذا أن يرتدى كل يوم بدلته البالية المرقعة التى جاء بها إلى البلدة من عشر سنوات خلت . وليس غريبا ألا يرتدى ملابس داخلية ، لأنها تكلف ماتكلفه إحدى العينين ، وهو بحاجة إلى كلتا عينيه لمواصلة عمله . ولاشك أن (الأرنبة) كاميلا أخطأت فى حقه ، فقد شغف المعلم بها حبا فى وقت من الأوقات ولكنها صدته بدعوى أن وجهه ملتو وأن فمه منحرف ، ويالها من حماقة . وقد أصاب باكو الحداد إذ قال إن ذلك ليس عيباً كبيرا لأن (الأرنبة) قادرة ، إن هى تزوجت منه ، على إعادة فمه إلى مركزه وتعديل وجهه بالإكثار من تقبيله . ولكن كاميلا لم تكن متحمسة للفكرة وكانت تكرر أنها لكى تقبل المعلم فى فمه فإن عليها إن تقبله فى أذنه وهى غير راغبة فى ذلك . ولم يرد عليها باكو الحدّاد سلباً ولا إيجاباً ولكنه فكر فى أن تقبيل رجل فى أذنه ليس أسوأ من تقبيل أرنبة فى مشفرها . وهكذا انتهى المسعى دون نتيجة ، وواصلت هى عملها فى البدالة وواصل هو الذهاب إلى المدرسة يوميا دونما ملابس داخلية وبسترة تمزقت أطراف

أكمامها وامتلأت منطقة الكوع فيها بالثقوب . كان اليوم الذى عرض فيه روكى (البعرور) أفكاره على صاحبيه يوماً مشمساً من أيام العطلة بينما كان باسكوال ، عامل الطاحونة ، وأنطونيو (الحوصلة) يلعبان فى ملعب البولو .

- اسمع (بوم) ، لماذا لاتتزوج سارة من (البيدق) ؟ - قال (البعرور) فجأة .

ومرّت لحظة أحسّ دانييل فيها وكأن أبواب السماء انفرجت . فكيف لم تخطر هذه الفكرة البسيطة المناسبة على باله من قبل ؟ فأجاب :

- حقا لماذا لا يتزوجان ؟

وأضاف (البعرور) فى صوت منخفض :

- فلكى يتزوج اثنان يكفى أن يتفقا على أمر من الأمور ، وسارة و (البيدق) يتفقان على أن أيا منهما لايطيق النظر اليّ ولو فى الصورة .

وبدأ (البعرور) لدانييل (البوم) مخلوقاً ذكياً . لم يكن قادراً على تغيير نبرة التعجب فقد بدا له كل ذلك صحيحا تماما وباعثا على التأمل :

- حقاً .

وواصل (البعرور) كلامه قائلاً :

- تصور وضعى وأنا مع أبى فى البيت وحيدين بلا سارة ، وفى المدرسة حيث سيرعانى دون مويسيس دائما لكونى شقيق زوجته ، بل سيرعاكما لكونكما خير أصدقاء شقيق زوجته . أظن أن الصورة واضحة ؟ كان إصرار (البوم) يعكس حماسه الطاغى :

- بالطبع .

وكرر (الأقرع) وقد أصابته عدوى التعجب :

- بالطبع .

وهزّ (البعرور) متشككاً رأسه :

- ولكن المهم أن يكونا راغبين فى الزواج .

- ولماذا يمانعان ؟ - قال (البوم) . فمنذ عشر سنوات و (البيدق) يبحث عن امرأة . أما سارة فلن تمانع أن يغازلها رجل فأختك ليست جميلة .

- إنها قبيحة كالشيطان . أعرف ذلك . ولكن (الأرنبة) قبيحة هى الأخرى ؟

وسأل (الأقرع) :

- هل تؤمن سارة بالوساوس ؟

قال (البعرور) :

- على الإطلاق . فلو أن ذبابة سقطت فى اللبن لضحكت وقالت لها : «استعدى للرحلة» ثم تشربها مع اللبن وتعاود الضحك كأن شيئا لم يكن .

- وإذا ؟ - سأل (الأقرع) :

- الذبابة لن تضايقها من جديد لأنها شىء عابر ، ولكن الزواج مختلف - قال (البعرور) .

وظل الثلاثة صامتين هنيهة وبعدها قال دانييل (البوم) :

- لماذا لانرتب موعدا بينهما ؟

- كيف ؟ سأله (البعرور) .

ونط (البوم) نافضًا التراب عن ردفيه :

- تعالا معى وستريان .

خرج الأولاد من الملعب إلى الطريق العام . كان جواب صاحبهم يوحى بإثارة محمومة - سنكتب رسالة لـ (البيدق) عن لسان سارة ، أتفهمانى ؟ . أختك تخرج عصر كل يوم إلى الباب للتطلع إلى المارة . سنقول له إنها تنتظره . وعندما يذهب هو ويراها سيظن أنها تنتظره حقا .

وبدت على وجه روكى (البعرور) علامات التجهم والغضب ، وهو مايبدو عليه عادة عندما لايكون مقتنعا تماما :

- وأن تعرف (البيدق) على الخط ؟

- سنغيّره - تدخّل (الأقرع) مندفعاً .

وأضاف (البعرور) :

- وإن أطلع سارة على الرسالة ؟

وتروّى دانييل (البوم) قليلا :

- سنقول له أن يحرقها قبل أن يذهب للقاء سارة وألا يذكر لها شيئاً عنها إن هو أراد ألا تموت الفتاة حياء وشاء أن تعاود النظر إليه .

- فإن لم يحرقها ؟ - عاود (البعرور) السؤال .

- سيحرقها - قال (البـوم) . لأن (البيدق) المقرف يخشى ، وقد صار كهـلا ، أن يبقى دون زواج ، فضـلا عن أنه يعلم أن فمـه أعوج وأن هذا عيب فيه وأن النساء لايرغبن فى تقبيل رجل فى أذنيه كما قالت (الأرنبة) .

وأضاف (البعرور) وكأنه يكلم نفسه :

- إنه لن يرفض بسـبب ماجرى له من قـبل . فمازالت فـيه بقـية من الخوف منذ أن خيبت كاميلا أمله . معك حق .

كانت الثقة تنبعث فـى صدره العريض شيئا فشيئـا . فها هو يرى نفسه من دون سارة فى البـيت ومن دون تهديد مـسطرة (البيـدق) فى المدرسة ، متمتعا بالاستقلال الذى لم يعرفه من قبل ، قال :

- متى نكتب الرسالة إذا ؟

- الآن .

ودخلوا معمل الجبن ، وكانوا يقفون قبالته . وتناول (البوم) قلما وورقة وكتب بحروف كبيرة : «دون يسـيس . إن كنت فى حاجة إلى امرأة ، فأنا فى حاجـة إلى رجل . سأنتظرك الساعـة السابعة عند باب بيـتى . لاتذكر شيئا عن هذه الرسالة . أحرقها وإلا مُت من شدة الحياء وامتنعت من النظر إلى وجهك ثانية . تصنّع أنك التقيت بى صدفة . سارة» .

وحشـر جيـرمان (الأقـرع) الرسـالة سـاعة الغـداء مـن تحت باب بيت المعلم .

وفى السـاعـة السـابعـة إلا ربعـا دخل (الأقـرع) و (البـوم) إلى بيت (البعرور) لمراقبة الأحداث من كوة المتبن .

ومع أن الخطة كانت محكمة الإعداد فقد حدث ماهدد بإفشالها . كان (البعرور) عند وصولهما محبوساً كالعادة فى المتبن . وقدر دانييل أن (البيدق) الذى يبحث منذ عشر سنوات عن زوجة لن يتأخر دقيقة واحدة عن السابعة .

كان صوت سارة ينساب من فتحة السلم . ومع أن دانييل (البوم) كان سمع تلك الاسطوانة آلاف المرات ، فإنه لم يستطع تجنّب الإحساس بالرعشة :

– عندما تسمّر عيناى الزجاجيتان الجاحظتان نظراتهما الواهنة المحتضرة فيك فرقا من الموت الوشيك . . .

ولابد أن (البعرور) كان يعرف أن الساعة تقترب من السابعة لأنه كان يرد بسرعة دون أن ينتظر انتهاء سارة من جملتها :

– رحماك يايسوع !

وتوقفت سارة عندما سمعت وقع خطوات (البوم) و (الأقرع) وهما يصعدان السلم .

– مرحبا سارة . – قال (البوم) متلهفا – اصفحى عن (البعرور) . إنه لن يعود إلى فعل ذلك .

– وما أدراك أيها الفضولى بما فعل ؟ – قالت .

– لابد أنه قام بفعل سئ . فأنت لا تعاقبينه أبداً دون سبب لأنك عادلة .

وتبسمت سارة راضية .

- انتظر لحظة - ثم استمرت على عجل متلهفة لبلوغ قمة عقابها .

- عندما أفقد حواسي ويختفي العالم من ناظري وأئن تحت وطأة النزع الأخير ومغالبة الموت . . .

- رحماك يايسوع . سارة هل انتهيت ؟

وأغلقت هي كتاب الصلوات :

- نعم .

- هيا افتحي .

- هل اعتبرت ؟

- نعم سارة . لقد اخفتيني اليوم .

ونهضت سارة وفتحت باب المتبن وقد بدت عليها علامات الرضى . وبدأت بنزول السلم ببطء ، والتفتت عند الدرجة الأولى وقالت ، وقد اهتزت لهاجس غامض يلفها :

- حذار أن تخبثوا .

وخف (البعرور) و (البوم) و (الأقرع) صوب الكوة دون أن يتفوّهوا بشيء . وأزاح (البعرور) بيده نسيج عنكبوت ليطل على الشارع . وسأل (البوم) متلهفاً :

- هل خرجت ؟

- إنها تخرج الكرسي ولوازم الخياطة . . . إنها تجلس - واختنق صوته فجأة :

- (البيدق) قادم من ناحية الشارع . . .

وراح قلب (البوم) يرقص كالمجنون . إنه ليسرع أكثر مما كان عليه لحظة سماع صفارة القطار وهو يدخل النفق بينما هو بالانتظار من دون سروال . كما أنه ليسرع أكثر مما كان عليه عندما سألت أمه أباه مستغربة إن كان الدوق الكبير قد حلّ عليهم ضيفاً كريماً . أما حادثة اليوم فإنها أكثر تأثيراً وأهم من كل ذلك . ووضع (البوم) وجهه بين وجهى صاحبيه ورأى دون مويسيس يتوقف قبالة سارة وقد أمال جسمه قليلا ووضع يديه خلف ظهره . كان يغمز لها بإحدى عينيه ويبتسم لها فارجا فمه من ناحيته اليسرى حتى أذنه ، أما سارة فكانت تنظر إليه مستغربة ثم مضطربة لكثرة غمزاته وابتساماته الجانبية . وتمتمت :

- مساء الخير ، دون مويسيس . ماذا جرى ؟

وعندها جلس على الدكة الحجرية إلى جانبها وعاود سلسلة الإيماءات السريعة بفمه للتعبير عن سعادته .

كانت سارة تراقبه مستغربة . قال :

- ها أنا ذا أيتها الصغيرة . لم أتخلف عن الموعد ، أليس كذلك ؟ أما عن بقية الأمور فلن أنطق بكلمة . لا تقلقى .

كان المعلم يجيد الكلام . وإذا لم يوجد فى البلدة اتفاق على أفضل المتكلمين فقد كان هناك اتفاق على أن المرشحين هم دون خوسيه القس ودون مويسيس ودون رامون العمدة . وأربك صوت (البيدق) العذب الغريب ولغته الغامضة التى كان تستعملها الفتاة . فسألته :

- هل . . . جرى لك اليوم شيء دون مويسيس ؟

ولم يرد عليها ، بل عاود الغمز ليوحى لها بالتفاهم والمواطأة .

وهناك فى كوة المتبن همس (البعرور) فى أذن (البوم) :

- ياله من خنزير مهذار . إنه يتكلم عما لايجب الحديث عنه .

- اسكت .

وانحنى (البيدق) فى هذه اللحظة نحو سارة وأخذ يدها بجرأة :

- إن أشد ما يعجبنى فى النساء هى الصراحة ياسارة ، فشكرا لك . أنا وأنت لسنا بحاجة إلى لف ولا إلى دوران .

واحمّر وجه الفتاة بما فاق حمرة شعرها . وسحبت يدها من يده لما رأت (الفطساء) تقترب وهى تحمل جرة الماء على كتفها . مع ذلك فقد قالت وهى فى نشوة لذيذة مكتومة :

- دون مويسيس ، سألتك الله ، فقد يرانا أحد .

أما الأولاد الثلاثة فكانوا فى كوة المتبن يبتسمون ببلادة دون أن يتبادلوا النظرات . وعندما طوت (الفطساء) عطفة الشارع عاود (البيدق) نشاطه :

- هل تريدين أن أساعدك فى خياطة هذا ؟ - قال .

وأمسك بيديها كلتيهما هذه المرة . وتنازعا . وأخفت سارة القطعة التى كانت تخيطها دونما إرادة بعد أن ضايقها فرط الخجل . ودمدمت :

- أبعد يديك ، دون مويسيس .

وضحك (البعرور) من مكمنه بصوت خافت :

- خى . . . خى . . . خى . . . إنه سروال داخلى .

وضحك صاحباه كذلك . ولم يفلح اضطراب سارة وغيظها الظاهر فى إخفـاء تلذذها الجارف . وعندها بدأ (البيـدق) يسمعهـا كلاما جمـيلا عن عينيها وعن فمها وعن شعـرها دون توقف ودون أن يمنحها فرصة لالتقاط أنفاسها . ومن بعد فـرسخ كان يلاحظ أن قلب سارة البكر ، المحروم من تذوق طعم الغـزل ، كان يذوب كـما الثلج تحت حـرارة الشمس . وبـعد انتهائه من ترتيل سلسلة كلمات الغزل راح المعلم ينظر عن كثب ويحدق فى سارة . ثم قال :

- هل تعلمين الآن كيف هى عيناك أيتها الصغيرة ؟

وضحكت هى ببلادة :

- ما أظرف كلامك دون مويسيس .

وعـاود هو الكرّة . كان يـلاحظ أن سارة كـانت تتـجنب الكلام لكى لاتخيب بعباراتهـا السوقية ظن (البيدق) فيـها ، وهو الذى يعد بين أفضل المتكلمـين فى البلدة . ولابد أنها كـانت تحاول أن تتذكـر شيـئاً من الكلام الجميل الـذى كانت قرأته . كلاماً رفـيعاً وشاعـرياً ، ولكن ما خطر على بالها كان هو ذاته الذى طالما رددته :

- عيونى . . . عيونى . . . زجاجـية جاحظة ، دون مويسيس - قالت وهى تطلق ضحكات قصيرة ومنفعلة .

وبدت الفتاة عـلى أفضل حال . لم تكن سارة ذكيـة . كانت تظن أن تلك النعوت ، لمجرد ورودها فى الكتب ، هى مما يناسب الملائكة أكثر من مناسبتها لبنى البشر ، لذلك فقد بدت مرتاحة . وفسرت علامة الاستغراب التى ارتسمت موجزة على وجه المعلم بأنها دليل على أنه فوجئ عندما تبين

له أنها ليست جـاهلة فظة كما تصورها . أما (البعرور) فـتساءل من مكانه المرتفع :

- لابد أن سارة تفوهت بحماقة . أليس كذلك ؟

وشرح (البوم) قائلا :

- العيون الزجاجية الجاحظة هي عيون الموتى .

وشعر (البعـرور) رغبة فى إلقاء حجر على رأس أخـته . مع ذلك فقد ابتـسم (البيـدق) من جانب أذنه اليـمنى بعد صـحوته من ذهوله العـابر . لاشك أنه فى حاجة شديدة إلى امـرأة ، وإلا لما أجاز دونما اعتراض ودونما تعليق ماتـفوهت به الفتـاة . وعاد إلى المغازلة بـحماس أشـد ، وبعد ربع ساعة كانت سارة كالبلهاء وقد توردت وجنتاها وضاعت نظراتها فى الفضاء فكأنها تمشى فى نومها . وأراد (البيدق) أن يضمن المرأة التى يحتاجها :

- أحبك سارة . أتعلـمين ذلك ؟ وسأبقى أحبك حتى نـهاية العالم . سآتى لرؤيتك كل يوم فـى هذه الساعة . قولـى أنت - وضغط على يدها بعاطفة جياشة - هل ستحبيننى دائماً ؟

ونظرت إليه سارة مذهولة . وراحت الكلمات تجرى على لسانها بطلاقة غريبة ، فكأنها ليست هى ، وكأن غيرها كان يتكلم بلساتها من داخلها .

- سأحبك ، دون مويسيس ، - قالت - حـتى أفقد حواسى ويختفى العالم فى ناظرى وأئن تحت وطأة النزع الأخير ومغالبة الموت .

- هكذا قال المعـلم منشرحاً . وضـغط على يديها وغـمز لهـا مرتين وانفرج فمه أربع مرات حـتى أذنه ثم انصرف ، وقبل أن يصل إلى الناحية التفت إليها عدة مرات مبتسماً بانفعال .

وهكذا أصبح (البيدق) وسارة خطيبين ، ولكنهما لم يراعيا دانييل (البوم) ، إذا أخذنا بالحسبان الدور الذى لعبه فى أن يبلغا التفاهم . لقد دامت الخطوبة عاماً ونصف العام ، وهاهما يحددان موعد الزواج فى الثانى من نوفمبر وهو «يوم الأرواح المباركة» بينما يستعد (البوم) للرحيل إلى المدينة لكى يبدأ التقدم . اندريس ، الرجل الذى لايرى من جانبيه ، لم يوافق هو الآخر على موعد الزواج وقال :

– الرجال الذين يبحثون عن زوجة يتزوجون فى الربيع ، أما الذين يبحثون عن خادمة فإنهم يتزوجون فى الشتاء قاعدة لاتقبل الخطأ .

وفى ليلة الميلاد التالى كانت سارة منشرحة جداً . لقد تحسّن طبعها كثيراً منذ أن خطبها (البيدق) ، فلم تحبس (البعرور) فى المتبن لتتلو عليه نصائح الروح سوى مرتين ، وفى ذلك شىء من الربح ، فضلا عن أنه صار ينال درجات أعلى فى المدرسة ولم يضطر من ساعتها إلى رفع «التأريخ المقدس» بلوحاته الملونة التى تزيد على المائة فوق مستوى الرأس . أما دانييل (البوم) فلم يخرج من ذلك كله إلا بالقليل .

كان أحيانا يلوم نفسه على ضلوعه بالعملية ، أفليس من الأفضل له أن يرفع «التأريخ المقدس» و (البعرور) إلى جانبه يرفع آخر مثله من أن يضطر إلى حمله من دون صحبة ؟

وفى يوم الميلاد سألت سارة أخاها (البعرور) بينما كانت تقلب الدجاجة فى الفرن ، وكانت سعيدة منشرحة :

– قل لى روكى ، هل قمت أنت بكتابة رسالة إلى المعلم تخبره فيها أننى أحبه ؟

- كلا سارة ، كلا .

- هل أنت متأكد ؟

- أقسم لك سارة .

ورفعت أصبعها الذى لفحته النار إلى فمها ، وعندما أخرجته قالت :

- كنت أحسب ذلك . ولو أنك قمت بتلك الفعلة لكانت خير ما فعلت فى حياتك . هيا انصرف من هنا أيها الماكر .

الفصل السادس عشر

كان دون خوسيه القس ، وهو قديس كبير ، يستخدم من على المنبر كل ضروب الإقناع ، فيعصر قبضتيه ويرفع عقيرته ويعنف فتتصبب جبهته وعنقه عرقا وينتف شعراته البيض القليلة ويتجوّل بين المقاعد رافعا أصبع الاتهام ، بل لقد شق فى إحدى المرات عباءته طولا فى واحد من أكثر المشاهد إثارة وعنفا فى تاريخ الوادى . مع ذلك فما كان الناس ، والرجال منهم خصوصا ، يعيرونه اهتماما كبيرا . كانوا يستحسنون الصلاة ، لكنهم ، حين يبدأ الموعظة ، يقلبون الوجوه ويقطبون الجباه . إن تعاليم الرب لاتأمر بالاستماع كل أحد وكل عيد إلى موعظة مطولة . فالقس كان يبالغ إذاً فى تطبيق شريعة الرب . يقولون إنه يحاول أن يكون بابوياً أكثر من البابا ، وليس هذا بالتصرف المطلوب من راهب ، ولاسيما إذا كان من قدر دون خوسيه المفرط فى ورعه والعالم بنقاط الضعف لدى الرجال . كان فى رجال الوادى شىء من التجهم والبؤس ، غير أن روحاً رياضية صادقة فيهم كانت تضفى عليهم مسحة إنسانية واضحة . كان منتقدو خطابة دون خوسيه يقولون إنه لايمكن وصف رجل لايكف عن ترديد عبارة «فى الواقع» بأنه فصيح . ولكن لماذا لايمكن أن يكون فصيحاً من لايكف عن ترديد عبارة «فى الواقع» ؟ الأمران ، فى رأى (البوم) ، غير متنافرين ، ولكن بعض الناس لايفهمون الأمر هكذا ، وهم إذا حضروا خطبة دون خوسيه ، فلكى يتراهنوا على عدد المرات التى ينطق فيها بعبارة «فى الواقع» من على المنبر : أهو عدد زوجى أم فردى ؟ كانت (الفلفلة) الكبرى تؤكد أن القس يردد هذه العبارة متعمدا ، وأنه يعلم أن الرجال اعتادوا المراهنة أثناء خطبه على العدد الزوجى أو الفردى ، مع ذلك فإنه يفضل الاستمرار

فى ذلك لأنهم ، وإن لم يستمعوا إليه ، فلابد أن شيئا ما سيعلق بأذهانهم بين «فى الواقع» و «فى الواقع» ، وبخلافه فإنه يغامر بتركهم يفكرون فى أثناء الخطبة فى العشب والمطر والذرة والبقر ، وسيكون ذلك شرا لايرتجى له صلاح .

كان سكان الوادى أناسا ذوى نزعة فردانية متأصلة ، وماكان دون رامون العمدة يبالغ عندما يقول إن كل فرد فى البلدة ليموت قبل أن يحرك ساكناً خدمة للآخرين . الناس يعيشون فى عزلة ولاتهمهم إلا أنفسهم . والحقيقة إن هذه النزعة القوية لاتنحسر إلا عصر أيام الأحد عند الغروب ، حين يلتقى الفتيان والفتيات ويذهبون إلى الحقول أو الغابات ، وحين ينحشر الشيوخ فى الحانات للتدخين أو للشرب . وهذه هى المصيبة ، لأنهم لايتخلون عن تلك النزعة الفردانية إلا إرضاءً لملذاتهم الدنيوية .

وحمل دون خوسيه ذات صباح على أولئك الفتية والفتيات الذين ينسلون إلى الحقول والغابات أيام الأحد ساعة الغروب ، وعلى اللائى يتزاحمن فى حلقات الرقص وعلى الذين يسكرون ويقامرون حتى بشعورهم فى حانة الجانو وعلى كل من يحصد القت أو يحفر البطاطس أو يمشط حقول الذرة أيام الأعياد . إنه اليوم الذى احتد فيه دون خوسيه وشق عباءته طولا . إنه اليوم الذى كشف فيه الجميع ، فالذين لايمضون عطلتهم أو احتفالاتهم فى الحقول والغابات ، والذين لايتزاحمون فى حلقات الرقص أو السكر أو اللعب فى الحانة ، والذين لاينفقون أعيادهم فى حصاد القت أو حفر البطاطس قليلون ويعدون على أصابع اليد الواحدة . لقد أكد القس قائلا : «إن أناسا قليلين ، فى الواقع ، سيقفون يوم الحساب على ميمنة الرب إذا لم تصلح التقاليد السائدة جذرياً .

وزار وفد ترأسه (الفلفلة) الكبرى القس فى مقر إقامته فى الكنيسة عقب انتهاء الصلاة :

- أخبرنا ، حضرة القس ، إن كان فى أيدينا تبديل هذه العادات الفاسدة ؟ - قالت (الفلفلة) .

وتنحنح الراهب العجوز وقد بدا عليه أنه فوجئ ، فما كان ينتظر أن يكون رد الفعل سريعا إلى هذا الحد . وتفحص تباعا تلك الوجوه القريبة من الرب وتنحنح من جديد كسباً للوقت ثم قال :

- فى أيديكن ، بناتى ، إن أردتن ذلك .

وفى فناء الكنيسة كان أنطونيو (الحوصلة) يسدد لأندريس الاسكافى بيزتتين لأن دون خوسيه نطق بعبارة «فى الواقع» أربعا وأربعين مرة بينما راهن هو على عدد فردى .

وأضاف دون خوسيه فى مكتبه :

- فى إمكاننا أن نقيم مركزا يلهو فيه الشباب دون أن يغضبوا الرب . فإن توفرت الإرادة الخيرة فلن يكون ذلك صعبا : قاعة كبيرة تحتوى على كل أنواع التسلية . وفى الساعة السادسة من أمسيات الأحد والأعياد نستطيع عرض فيلم سينمائى . سنقتصر بالطبع على عرض الأفلام الأخلاقية والدينية الصرف .

وصفقت (الفلفلة) الكبرى وقالت متحمسة :

- المكان يمكن أن يكون اسطبل بالجو فما عادت لديه أغنام ، وهو يريد بيع الاسطبل . فى إمكاننا أن نستأجر المكان ، دون خوسيه .

وتدخلت كاتالينا (الأرنبة) :

- لكن هذا الكافر لن يترك لنا الاسطبل ، ياحضرة القس . إنه مكار ملحد ، وأنه ليفضل الموت على أن يتركنا نستخدم الاسطبل لأغراضنا المقدسة .

وكان دانييل (البوم) ، الذى شارك فى إقامة القداس ، يستمع وقد فغر فاه لحديث دون خوسيه مع النسوة . وعزم على الانصراف ، ولكن فكرة إقامة دار للسينما فى البلدة أوقفته . وقال دون خوسيه محاولا تهدئة (الأرنبة) :

- لاتصدرى أحكاما متهورة يا بنية . فليس بالجو فى داخله رجلا سيئا .

وانتفضت (الفلفلة) الكبرى كالملدوغة :

- أبتاه . وهل يمكن أن يكون الإنسان طيبا وهو غير مؤمن ؟

أما (الأرنبة) كاميلا فقد نفخت صدرها العظيم وقالت مقاطعة :

- إن بالجو على استعداد لبيع نفسه للشيطان مقابل بيزيتة واحدة . إننى واثقة من ذلك .

وتدخلت ريتا (البلهاء) زوجة الاسكافى منفعلة :

- بل لقد وهبه إياها هذا المكار ، فليس الشيطان مضطرا إلى أن يعطيه ولا حتى ريالين ثمنا لها . كلنا نعرف ذلك .

وأخيرا قال دون خوسيه كلمته ، فألف لجنة ترأسها (الفلفلة) الكبرى للسعى لدى بالجو (الملحد) وللذهاب إلى المدينة لشراء جهاز عرض

سينمائى . وبدا القرار رائعا للجميع ، وأعلن ، بعد انتهائه من كلمته ، أن صدقات الشهـرين القادمين ستخصص لشـراء عباءة جديدة للراهب . وأيد الجميع الفكرة ، وبادرت (الفلفلة) فبدأت حـملة التبرعات بمبلغ قدره دورو واحد .

بعد ثلاثة أشهر تحول اسطبل بالجـو (الملحد) ، وقد صبغ وطهر ، إلى دار للسينمـا . ولاقى العرض الأول نجـاحا كبـيرا فلم يبق فى الجـبال وفى الغـابات غيـر متمـردين اثنين . ولكن المشكلة ظـهرت بعـد أسبوعـين ، فالأفلام الكاثوليكية الخالصة قليلة . فـخففت القيود بعض الشىء وظهرت الحاجـة إلى السماح بعرض بعض السـفاهات . وصار دون خوسـيه القس يعلل نفسه بمبـدأ أهون الشـرين ، كالغريق الذى يتشـبث بلوحـة النجاة . كان يقول :

– إن يكونوا مجموعين هنا أفضل من أن يتغازلوا فى الحقول .

ومرّ شـهر آخـر ازدادت فيـه الأفلام المرسلة من المدينة تفـاهة . ثم إن الفتيان والفتيات الذين كانوا من قبل يذهبون إلى الغابات عند حلول الظلام صاروا يستغلون ظلمة الصالة ليـتغازلوا بوقاحة وقلة أدب . وأنيرت الصالة ذات مساء أثناء العرض فشوهد باسكوالون ، عامل الطاحونة ، وقد أجلس صديقته على ركـبتيه . وراحت الأمور تتدهور فـاستدعى القس اللجنة إلى بيته فى نهاية شهر نوفمبر :

– يجب اتخـاذ إجراءات سريعـة . فلا الأفلام عـادت ، فى الواقع ، أخلاقية ، ولا المتفرجون ملتزمـين بالرصانة واللياقة . لقـــد وقعنا أسرى ما كافحناه .

- لنضع أضواء فى الصالة ولنمارس رقابة صارمة على الأفلام - قالت (الفلفلة) الكبرى .

وبعد مناقشات طويلة أجيزت مقترحات (الفلفلة) . وشكلت لجنة رقابة مؤلفة من دون خوسيه القس و(الفلفلة) الكبرى وترينو السادن . كان الثلاثة يجتمعون أيام السبت فى الاسطبل لمشاهدة الفيلم المقرر عرضه فى اليوم التالى .

وأوقفوا الفيلم ذات مساء فى لقطة مشكوك فيها :

- ألا ترى ، دون خوسيه ، أن هذه السافلة تبالغ فى الكشف عن ساقيها ؟ - قالت (الفلفلة) .

- هذا ما بدا لى - قال القس .

ولما التفت إلى ترينو السادن وجده يتطلع إلى صورة الممثلة بعينين مفتوحتين وفم فاغر فحذره قائلا :

- ترينو . إما أن تترك التطلع هكذا أو أن أعزلك من اللجنة .

كان ترينو رجلا مسكينا بلا رأى ولا إرادة ، وكان ذا نظرة رقيقة ندية ومن دون ذقن مما يضفى على وجهه تعبيرا ينم عن بلادة وغفلة . وكانت تلك البلادة تزداد وضوحا عندما يمشى ، إذ يبدو وكأن كل خطوة يخطوها تكلفه كمية الهواء التى يحتاجها جسمه .

بالطبع فإن كل إنسان ينفع فى شىء ، حتى أكثر الناس سذاجة . أما ترينو السادن فكان عازفا بارعا على الأرغن .

وإزاء توبيخ الراهب خفض ترينو عينيه وابتسم ببلاهة مغتماً . إن القس على حق ولكن ، مــاأروع ساقى المرأة التى تظهــر فى الفيلم ، ســاقان من تلك التى لاتشاهد عادة بين الناس .

وبدا لدون خــوسيــه أن الصعــوبات تزداد يومــا بعد يوم . وصــار من الصعب الوقــوف فى وجه الرغبات الغــريزية للوادى كله . فترينو نفــسه ، وهو الرقيب والسادن ، اقترف خطيئة الرغبة والتفكير فى تلك النسوة اللاتى يكشفن بمجون فاضح عن سيقانهن فى الشاشة . إنها لمهمة شاقة عليه وهو الرجل المسن المتعب .

وقابل أهل البلدة الإنارة الموزعة فى أرجاء الصالة أثناء العرض محتجين بالصفــير ، فى اليــوم الأول ، وبالكسر ، فى اليــوم الثانى ، بأن قــذفوها بالبطاطس . واجتمعت اللجنة من جديد : يجب أن تكون الأضواء حمراء اللون كى لاتؤذى النظر . ولكن الناس تجادلوا حينها حول المشاهد المقطوعة ، وكان باسكوالون ، عامل الطاحونة ، أول من بدأ التمرد :

– ياسيــدة لولا إن منع ظهور الســيقان والقــبل فليــس للسيــنما عندى معنى .

وأيده آخرون :

– إما أن تعرضوا الأفلام دون قطع أو نعود إلى الغابات .

وعاودت اللجنة الاجتماع ، وكان دون خوسيه منفعلاً جداً :

– انتهى أمر الســينما وانتهى كل شيء . أقتــرح على اللجنة أن تعرض الجهاز للبيع على بلديات المناطق المجاورة .

وصاحت (الفلفلة) :

- ولكننا سنبيع ماكاد أن يكون خطيئة ، دون خوسيه .

وطأطأ الراهب رأسه مغموما . فـ (الفلفلة) محقة فى كلامها . بل إنها أكثر من محقة هذه المرة ، لأن بيع الآلة السينمائية يعنى المتاجرة بالخطيئة .

- سنحرقها إذا - قال متجهما .

وأحرق جهاز العرض فى اليوم التالى بحضور أعضاء اللجنة الذين اجتمعوا فى زريبة بيت الراهب . وقريبا من رماده أعلنت (الفلفلة) الكبرى ، فى ذروة حماستها التفتيشية ، عن ولائها للأخلاق وعزمها الأكيد على عدم الرضوخ حتى تسود الأخلاق فى الوادى . قالت وهى تودع القس :

- دون خوسيه ، سأواصل كفاحى ضد الفساد . صدّقنى . أنا أعرف كيف أحاربه .

وفى الأحد اللاحق حملت عند الغروب مصباحاً يدوياً وخرجت بمفردها تطوف فى الحقول والجبال . ووجدت خلف أكوام العوسج المعزولة الكثيفة عاشقين يتغازلان . وسلطت حزمة الضوء على الوجهين المرتبكين :

- باسكوالون وألينا . إنكما ترتكبان خطيئة كبيرة .

ماكانت تقول أكثر من ذلك ثم تنسحب . وهكذا طافت دون كلل وهى تردد تحذيرها المروع :

- فلان وفلانة . إنكما ترتكبان خطيئة كبيرة .

وكانت تقول فى نفسها : «مادامت ضمائرهم غائبة ، فسأحل أنا مكانها» .

وهكذا حملت على عاتقها تلك المهمة الشاقة التى لم تكن تخلو ، مع ذلك ، من متعة . واحتمل شباب البلدة الثلاثة آحاد متتالية تدخل (الفلفلة) فى شئونهم ، ولكنهم تحركوا فى الأسبوع الرابع : أحاطوا بها فى أحد الحقول ورأى فريق أن تضرب ، ورأى فريق آخر أن تجرد من ملابسها وأن تترك فى رطوبة الليل مربوطة إلى جذع شجرة . ولكن فريقا ثالثا فرض رأيه بالإلقاء بها فى النهر على رأسها . وسقط المصباح من يد (الفلفلة) المرتاعة التى استعدت للدخول فى قوائم شهداء المسيحية الطويلة ، وإن بكت بين حين وحين وطلبت بين شهقة وأخرى قليلا من الرحمة .

وقادوها وهى تصرخ وتشتم إلى الجسر حيث يصب النهر بشدة فى بركة الانكليزى .

كان يخيم على ليل الوادى جو كئيب قاتم . وبدا الحشد وكأن به مسا ، وبدا كل شئ معدا لقدره المحتوم ، وصارت (الفلفلة) تصلى فى ذهنها صلاة التوبة .

ولكن (الفلفلة) لم تبت ليلتها تلك فى قاع النهر بفضل كينو (الأقطع) على الرغم من أنها قالت فى حقه وحق المرحومة ماريوكا إنهما أكلا الطبيخ قبل الثانية عشرة ، إذ يبدو أن (الأقطع) كان لايزال فى صدره بقية من حمية وجذوة من مروءة متوهجة . فلقد حال بين الشبان و (الفلفلة) ودافع عنها دفاع الرجال حتى بلغ به الغضب مبلغه فلوح بفضلة يده المقطوعة فى الهواء فبدت مثل سارية علم منكس . أما الفتيان فقد بدا لهم ، وقد هدأت سورة غضبهم أثناء الطريق ، أن يكتفوا بما بثوه فى قلبها من رعب ، وانسحبوا .

وبقيت (الفلفلة) وحـيدة ، وجهاً لوجه مع (الأقـطع) . ماكانت تدرى ماتفـعل . كان الوضع صعـبا بالنسبـة إليها . وأطلقت ضـحكة واعدة ثم بدأت تنظر إلى أطراف قدميها . وعاودت الضحك ثم قالت :

- حسنا .

وأخيـرا ، ودون أن تعى جيـداً ماتفعـل ، انحنت وقبّلت بقـوة فضلة طرف كينو . ثم انطلقت راكضة خائفة نحو أعلى الطريق العام كالمجنونة .

وفى اليـوم التالى اتجهت (الـفلفلة) الكبرى إلى كـرسى الاعتـراف قبل الصلاة :

- السلام عليك يا مريم الطاهرة . أبتاه .

- يامن ولدت دون خطيئة . بنيتى .

- أبتاه إننى أتهم نفـسى . . . أتهم نفسى بأننى قبلت رجـلا فى ظلمة الليل .

ورسم دون خوسيـه علامة الصليب على صدره وربع عـينيه إلى سقف كرسى الاعتراف مستسلما :

- تعاليت أيها الرب . - غمغم وأحس بألم شديد لحال تلك البلدة .

الفصل السابع عشر

إن غفر دانيل (البوم) للفلفلة كل شئ فإنه لن يغفر لها حادثة فرقة الإنشاد ، لن يغفر لها تلك الطريقة القاسية التى فضح بها أمام أنظار جميع أهل البلدة بعد أن اقتنعت بافتقاره للوضوح فى جنسه . إنه لن يغفر لها ذلك وإن عاش ألف سنة .

كانت تلك الحادثة وصمة عار ، بل كانت أكبر إهانة يمكن أن تلحق برجل . وكان لابد له ، بإزاء تلك التهمة المعيبة ، من إجراءات مضادة للبرهنة على رجولته التى لاجدال حولها .

كان مع أولاد المدرسة وبناتها فى الكنيسة ينتظرون ، وكان ترينو السادن ساعة وصولهم ينتزع من الأرغن نوتاته الحادة المتأوهة . ووقفت كذلك (الفلفلة) المقرفة وهى تحمل عصا ، ثم مالبثت أن اتخذت هيئة المديرة المشرفة . فصفت التلامذة لدى دخولهم حسب الطول ثم رفعت العصا فوق رأسها وقالت :

– هيا . أريد أن أتمرن معكم على نشيد «الراعية الإلهية» كى ننشده فى يوم العذراء . فلنتدرب .

وأشارت إلى ترينو ثم خفضت العصا ، وغنى الأولاد والبنات كل على هواه :

أيتها الراعية الإلهية

أريد أن أتبعك

وعندمـا بدأت الأصـوات الاثنان والأربعـون بالإنشـاد أبدت (الفلفلة) الكبرى إيماءة يأس مضحكة وقالت :

– كفى . . . كفى . ليس هكذا . ليس «را» بل «رااا» وأنشدت :

أيتها الراااعية الإلهية

أريد أن أتبعك

عبر الوديان

ورااااء آثارك .

هيّا .

وضربت على غطاء الأرغن بالعصا لينتبه إليـها الجميع ثانية . واهتزت جدران المعـبد للنبرات الطفـولية الحادة . ولكن (الفـلفلة) أبدت من جديد استياءها وخاطبت (البعرور) مشيرة إليه بالعصا :

– روكى . بإمكانك الانصـراف . لا أحتـاجك . ولكن ، متى تغـير صوتك ؟

وخفض (البعرور) رأسه :

– ومـاأدرانى أنـا . يقـول أبى إننـى كنت أناغى بصـوت رجل منذ ولادتى .

ومع أن (البـعرور) قال ذلك وهو مـطأطئ الرأس ، إلا أنه قال مـاقال متـبجحـا ، فالرجل الحقـيقى عنده هو من تحددت رجـولته منذ ولادته .

وقابل المتفوقون فى الدراسة رده بضحكات متعالية ، بينما نظرت البنات إليه بإعجاب كبير . واستغنت السيدة لولا ، بعد تمرين آخر ، عن ولدين آخرين كانا ينشزان ، وبعد ساعة من الوقت أبعد من الفرقة جيرمان (الأقرع) لأنه صوته كان يمر فى مرحلة تحول وانتقال ، ولأن (الفلفلة) كانت «تريد تشكيل فرقة من أصوات حادة وحسب» . وفكر دانييل (البوم) فى مكانه بين أعضاء الفرقة وتمنى مخلصا أن يبعد هو الآخر عنها . إنه لايريد أن يكون له صوت حاد رفيع كصوت النساء أو كصوت الأطفال . ولكن تمارين اليوم الأول انتهت دون أن تقرر (الفلفلة) الاستغناء عنه . وعادوا فى اليوم الثانى ولكنها لم تستغن عنه كذلك . كان الوضع يزداد سوءا لأن البقاء فى الفرقة كل هذا الوقت يشكل وصمة عار ، إنه ضرب من التشكيك برجولة المرء ، ولأن دانييل (البوم) يحسب للرجولة حسابها ، فإنه لايستطيع تجاهل ذلك الانتقاء . ولكنه بقى عضوا فى الفرقة على الرغم من أمنياته وعلى الرغم من أن الفرقة خلت إلا منه ومن خمسة ذكور سواه . وتلك كانت الكارثة . وقالت (الفلفلة) الكبرى فى اليوم الرابع وعلامات الرضى بادية عليها :

- لقد تمت عملية الاختيار . وبقيتم أنتم أصحاب الأصوات الصافية : خمس عشرة بنتا وستة أولاد . وأرجو - وتوجهت بالكلام للذكور الستة - ألا يغير أى منكم صوته من الآن حتى يوم العذراء .

وابتسم الأولاد والبنات فخورين بامتلاك «أصوات صافية» ، إلا دانييل (البوم) الذى لم يفلح فى إخفاء خيبة أمله ، ولكن (الفلفلة) ضربت فى تلك اللحظة على غطاء الأرغن لتنبيه ترينو السادن بينما راحت الأصوات الصافية الإحدى والعشرون تشيع فى المكان صلوات العذراء :

أيتها الراااعية الإلهية

أريد أن أتبعك

عبر الوديان

وراااء آثارك .

كان دانييل يعرف ماذا سيقع ذلك المساء عند الخروج من الكنيسة . كان الأولاد المبعدون من الفرقة ، يرأسهم روكى (البعرور) ، ينتظرون فى الباحة ، وما إن شاهدوا الأصوات الصافية الستة يخرجون حتى تحلقوا حولهم وراحوا يصرخون مرددين ساخطين :

- يابنات ، يامخنثون . يابنات ، يامخنثون . . .

ولم يجد نفعا تدخل (الفلفلة) ولا جهود ترينو المتواضعة وهو السادن العجوز ، كما لم تنفع فى شىء نظرات دانييل المتوسلة إلى صديقه (البعرور) لقد نسى هذا حتى أبسط قواعد الصداقة ، فقد كان يفور فى أعماقه وأعماق مجموعته الباغية غيظ متفجر سببه إبعادهم من الفرقة التى ستنشد فى يوم العذراء . ولكن لا أهمية لذلك فى الوقت الحاضر ، مايهم إنقاذه الآن هى رجولة دانييل (البوم) التى بدت موضع شك. وخطرت له ، وهو يهم بالنوم فكرة : لماذا لايغير صوته وهو ينشد «الراعية الإلهية» وهكذا ستبعده (الفلفلة) كما فعلت مع (البعرور) و (الأقرع) ؟. والحق أن أكثر ماكان يؤلمه هو استبعاد هذا الأخير . فـ (البعرور) متقدم عليه دائما . أما (الأقرع) فالأمر مختلف . وكيف له أن يحافظ على مرتبته ومقامه إزاء فتى يمتلك صوتا أقوى من صوته ؟ لابد من تغيير صوته للخروج من الفرقة قبل حلول عيد العذراء .

مع بداية التمــارين فى اليوم التالى ، تـنحنح دانييل (البوم) باحـثا عن نغمة مـفتعلة فى صوته وضربت (الفلفلة) عـلى الأرغن بطرف العصا وبدأ النشيد :

أيتها الراااعية الإلهية

أريد أن أتبعك

ورا . . .

ولكنها توقفت فجأة . قطبت أنفها الطويل فكأن رائحة كريهة ضايقته . ثم قطبت جبينها فكأنهــا اكتشفت شيئا ما لايتفق مع مــاكانت تأمله ، شيئا تعجــز عن تحديد مصــدره . ولكنهــا عند التمرين الثـانــى صـوبت العصـا نحو (البوم) وقالت محتدة :

– عجبا لك دانييل . لاتفخم صوتك وإلا لطمتك .

لقد افتضح أمــره . واحمر وجهه لمجرد التفكـير أن الآخرين قد يظنون أنه يحـاول أن يكون رجلا بالغش والخـداع . إنه غيــر محتــاج أن يتظاهر بذلك لإثبات رجولته ، وهو ماسيبرهن عليه فى أقرب مناسبة .

وأحاط بهــم فريق الأصوات غــير الصــافيــة من جديد عند خــروجهم ورددوا مع روكى (البعرور) :

– يابنات ، يامخنثون . . . يابنات ، يامخنثون .

كان دانيــيل (البوم) يحس برغبــة فى البكاء ، ولكنه كظم رغبـته تلك مقدرا أن رجولته المترنحة ستنهار إذا مابكى أمام فريق الناقمين من أصحاب «الأصوات غير الصافية» .

وجاء يوم العذراء . وفكر (البوم) لدى استيقاظه ذلك الصباح أن امتلاك صوت رفيع فى سن العاشرة ليس بالأمر الباعث على اليأس . وأن أمامه وقتا طويلا لتغييره ، وعليه فلا حق له فى أن يشعر بالحزن وخيبة الأمل .

كانت الشمس تتسلل إلى غرفته عبر النافذة ، بينما بدت قمة الجبل (راندو) أكثر ارتفاعا وأشد جلالا ومهابة . وكانت تصل إلى مسامعه فرقعة الألعاب النارية وأنغام الموسيقى الصاخبة المنشزة نزولا من العقبة . بينما كانت تسمع من بعيد دقات الناقوس يضربه دون انطونينو (الماركيز) وهو يدعو للصلاة الكبرى . لقد وضع (البوم) عند نهاية السرير بدلته الجديدة مكوية وقميصا أبيض غسل بعناية مازالت رائحة النيل والصابون تنبعث منه . كلا ، فليست الحياة حزينة . إنه يستطيع الآن ، وقد أسند مرفقيه إلى النافذة ، أن يلمس ذلك . إنه لايشعر بالحزن وأن توجب عليه بعد ساعة أن ينشد «الراعية الألهية» مع مجموعة «الأصوات الصافية» إنه لايشعر بالحزن وإن دعاهم أصحاب «الأصوات غير الصافية» عند الخروج بالبنات والمخنثين .

. .

ثمة غبار مذهب نباتى غزير يلف أرجاء الوادى العريضة المترامية ، ويشيع فى أجوائه رائحة الحقول الندية وإن أنذر سكون الهواء بيوم قائظ شديد الحرارة . كان هناك شحرور يقف على شجرة التفاح القريبة من النافذة ، يزقزق ويطير من غصن إلى آخر . الفرقة الموسيقية الصاخبة تمر الآن فى الطريق العام متجهة صوب النهر وحانة كينو (الأقطع) تتبعها مجموعة من الصبية وهم يصرخون ويؤدون حركات بهلوانية فى الهواء . واستتر دانييل (البوم) مصطنعا الانشغال لأن جميع أولئك الصبيان تقريبا هم من مجموعة «الأصوات غير الصافية» .

واستعد (البوم) فى الحال للذهاب إلـى القداس . كانت الشموع تتلألأ من على المذبح . وكانت النسوة يرتدين الملابس الملونة المزركـشة . وصعد دانييل (البوم) إلى حيث كانت الفرقة . ونظـر من مكانه متفحصا إلى عينى العـذراء . كان دون خـوسيـه يقول إن العـذراء تنظر أحـيانا إلى الأطفـال الطيبين . وبدا لدانييل ، ربما بسبب اهتزاز الضوء المنبعث من الشموع ، أن عينى العذراء تتجهان فى ذلك الصباح نحوه وتنظران إليه وأن فمها يبتسم . وأحس برجفة تسرى فى بدنه فخاطب العذراء دون أن يحرك شفتيه قائلا إنه يهديهـا نشيد «الراعـية الإلهيـة» لتحفظه من اسـتهزاء ذوى الأصوات غـير الصافية» به وتندرهم عليه .

وصعد دون خوسيه ، وهو القديس الكبـير ، إلى المنبر بعد الانتهاء من تلاوة الإنجيل وبدأ موعظته . وسمعت نحنحة مطولة من بين مقاعد الرجال وراح دانييل (البـوم) ، دون إراردة منه ، يعد المرات التى ينطق فيـها القس بعـبـارة «فى الواقـع» وإن لم يكن هو ممن يراهنون عـلى عـددها . ولكن الراهب راح يتحدث فى ذلك الصباح عن أشياء جميلة جدا حتى أن (البوم) غفل عن الحساب وأضاع العد :

- أبنائى . لكل منا ، فى الواقع ، طريق محدد فى الحـياة ، فعلينا أن نواصل هذا الطريق دائما وألا نحيد عنه . وقد يظن بعضكم أن ذلك يسير ، وماهو فى الواقـع بيسيـر . فقد يـكون الطريق الذى رسمه لـنا الرب وعرا وصعـبا ، وهذا فى الـواقع لايعنى أنه ليس طريقنا . قال الـرب : «خذوا الصليب واتبعـونى» . «انى استطيع أن أؤكد لكم شيـئا - وأضاف - . إن طريق الرب لايتمثل فى اخـتباء الفتية والفـتيات تحت جنح الظلام ، ولاهو فى الواقع مـوجـود فى الحانـة حيث يذهب الـبعض أيام السـبت والأحـد

للبحث عنه ، ولاهو فى حفر البطاطس أو حصاد الذرة أيام الأعياد ؛ لأن الله ذاته خلق العالم فى ستة أيام ثم استراح ، وهو الله ، فى اليوم السابع . ولأنه الله فإنه ، فى الواقع ، لم يتعب ، ولكنه استراح ، استراح ليعلمنا ، نحن بنى البشر ، أن يوم الأحد هو يوم الراحة» .

لاشك أن دون خوسيه كان يتكلم ذلك اليوم بإلهام من العذراء ، فهو يتحدث برقة ونعومة ودونما توتر . وواصل كلامه متحدثا عن طريق كل إنسان ، ثم تطرق إلى الشقاء الذى يورده أحيانا الابتعاد عن الطريق الذى حدده الرب لطموح أو لشهوة أو لغيرها من الأسباب . وقال أشياء وأشياء عويصة وغامضة لم يفهمها دانييل ، أشياء من قبيل أن المتسول ، وهو الذى لايضمن قوت يومه ، قد يكون أسعد من الغنى الذى يسكن قصرا منيفا يملأه المرمر والخدم : «قد يفقد البعض - قال - نصيبهم من السعادة الذى خصصه لهم الله . قد يفقدونه وهم يبحثون ، لطمع فى نفوسهم ، عن طريق أسهل . والسعادة لاتوجد ، فى الواقع ، فى الأعلى ولا فى الأكبر ولا فى الأرفع ولا فى الأشهر ، بل فى اتفاق خطواتنا مع الطريق الذى حدده الرب لنا على الأرض ، وإن كان ذلك الطريق متواضعا .

وأتم دون خوسيه كلامه وواصل دانييل (البوم) متابعة قوامه الصغير بعينيه حتى المذبح . كان يريد أن يملأ عينيه منه ومن حضوره المادى ، فقد كان متأكدا من أن الراهب سيحتل فى مستقبل غير بعيد محرابا فى الأبرشية ، ولكنه لن يكون وقتها هو نفسه بلحمه ودمه ، بل صورة محفورة فى الخشب أو تمثالا معمولا من الجبس سئ الطلاء .

وفوجئ (البوم) تقريبا بضجيج أرغن ترينو السادن . كانت (الفلفلة) أمامهم تحمل العصا . وتنحنحت «الأصوات الصافية» للحظة . وضربت

(الفلفلة) على الأرغن بالعصا . وبدأ ترينو يعزف مقدمة «الراعية الإلهية» .
ثم ارتفعت الأصوات الصافية منغمة دقيقة موجهة بعصا (الفلفلة) :

أيتها الراااعية الإلهية

أريد أن أتبعك

عبر الوديان

وراااء آثارك .

* * *

قطيعك البائس

يناشدك متوجعا

استمعى ، أيتها السيدة

الى ندائه الدافئ

* * *

أيتها الراعية الإلهية

أريد أن أتبعك

عبر الوديان

ورااائك آثارك

* * *

وبعد انتهاء القداس هنأتهم (الفلفلة) وأهدت كل واحد منهم مصاصة من الحلوى . أما دانييل (البوم) فقد أخفاها فى جيبه وكأنه يخفى مايخجل ويعيب .

وفى الباحة صاح به اثنان من جماعة الخصوم «يابنت ، يامخنث» لكنه لم يلتفت إليهما ، فقد كان ، من دون (البعرور) يحمى له ظهره ، يشعر ، كالأعزل ، بالضعف . وعند البوابة كان الناس يتحدثون عن خطبة دون خوسيه . ولاحظ دانييل (البوم) ميكا تقف جنبا على جهة اليسار . ابتسمت له وقالت :

- لقد أحسنتم الإنشاد . ثم قبلته فى جبهته .

ووقفت سنوات عمر (البوم) العشر متلهفة . ولكن ذلك لم يدم طويلا . صحيح إنها قبلته ولكنها الآن تعاود الابتسام ، الابتسام لغيره . فقد اقترب منها شاب نحيف يرتدى ثياب الحداد ، وأمسك كل منهما بيد الآخر وتبادلا نظرات لم ترق للبوم .

سألته هى :

- مارأيك ؟

فأجاب هو :

- جميل جدا . كان كل شىء رائعا .

وابتعد (البوم) عنهما وقد لازمته غصّة لشعور غريب لايدرك كنهه ، ورأى أن كل واحد من الحضور راح ينبه صاحبه بضربة من كوعه أو بحركة خفيفة ثم ينظر من طرف لآخر خلسة قائلا بصوت واطئ : «انظر .

إنه خطيب ميكا» ، «هاهو خطيب ميكا» ، «أنه شاب وسيم» ، «ليس خطيب ميكا سئ المظهر» . ولم يرفع أحد بصره عن الشاب النحيف الذى يرتدى ثياب الحداد والذى يأخذ بيدى ميكا بين يديه .

وعندها أدرك دانييل (البوم) أن لديه فى يومه ذاك أسبابا كثيرة للإحساس بالحزن وإن سطعت الشمس فى السماء الصافية أو شدت البلابل فى الأحراج أو شقت أجراس البقر صدر الفضاء برنينها السوداوى أو نظرت إليه العذراء وتبسمت . كان ثمة أسباب للشعور بالحزن واليأس والرغبة فى الموت . كان يشعر بأن شيئا فى داخله يقتلع اقتلاعا .

ونزل عصرا إلى المهرجان ويرفقته صاحباه (البعرور) و (الأقرع) . كان لايزال حزينا ومغموما وفى حاجة إلى الترويح عن نفسه . كانت رائحة المعجنات المقلية وأكداس اللحم البشرى تخيم على جو الاحتفال المشحون برائحة فرح حيوى مزدحم . وارتفعت فى وسط المكان عصا الكوكانيا . إنها أطول من عصا الأعوام الماضية بعشرة أمتار . توقفوا أمامها لمشاهدة صبيين وهما يحاولان عبثا صعود الأمتار الأولى من العصا . ووقف هناك ثمل وهو يشير بأصبعه إلى نهاية عصا الكوكانيا ويقول :

- هنالك خمسة دورات . فمن استطاع الصعود إليها وإنزالها فليدعونى إلى كأس على حسابه .

ثم أطلق قهقهة سرت عدواها إلى الآخرين . ونظر دانييل (البوم) إلى صاحبيه وقال :

- أنا سأصعد .

فقال له روكى مستهزئا :

- أنت لست رجلا .

أما جيرمان (الأقرع) فقد أبدى حذرا غريبا :

- لا . لا تصعد . فقد تقتل نفسك .

ولكن يأس (البوم) وحرصه على منافسة الشاب المسود وأولاد مجموعة «الأصوات غير الصافية» دفعه دفعا فقفز على العصا وصعد الأمتار الأولى دون جهد كبير . كان يحتدم فى رأسه شىء شبيه بالنار الملتهبة ، مزيج غريب من الكرامة المجروحة والغرور المسترد واليأس . «هيا - كان يقول لنفسه - لن يقدر أحد على فعل ما تفعله» . وواصل الصعود ولكن ساقيه بدأتا تنغزان. «سأصعد لأن السقوط لايهمنى ، سأصعد لأن السقوط لايهمنى ، كان يردد مع نفسه . وعندما وصل إلى منتصف المسافة نظر إلى أسفل فرأى أن كل الناس يراقبون حركاته ، وأحس بدوار فتشبث بالعصا وواصل التسلق . وبدأت عضلاته تفقد قوتها ولكنه واصل الصعود . وصار فى عيون الواقفين أسفله بحجم صرصور صغير . وراحت العصا تتمايل كشجرة تهزها الرياح ، لكنه لم يشعر بالخوف . كان يريد أن يكون قريبا من السماء ، أن يخاطب قمة جبل (راندو) نداً لند .

ودب الخور فى ذراعيه وساقيه ، وسمع صرخات عند قدميه فعاود النظر إلى أسفله :

- دانييل ، ولدى .

إنها أمه تتوسل إليه . لقد وقفت إلى جنبها ميكا متألمة و (البعرور) ضئيلا و (الأقرع) وقد أوشك أن يسترد منه مرتبته السلبية ومجموعة «الأصوات غير الصافية» و (الفلفلة) الكبرى ودون خوسيه القس وباكو الحداد ودون انطونيو (الماركيز) . إنه يشاهد كذلك أسطح البلدة المستوية وهى تعرض وجهها المعتم لأشعة الشمس . كان يشعر كالسكران ، تدفعه رغبة غير محدودة إلى التفوق والغلبة .

وواصل صعوده غيـر مبال بالدعوات القادمة من تحـته . إن العصا فى هذا المكان أدق لذلك فهى تتمايل تحت وطأة ثقله وكـأنها ثمل . واحتضن دانييل العـصا كالمجنون بعـد أن أحس بأنها سترمى به صوب الجبـال مثل قذيفـة منجنيق . وصعد أعلى . إنه يـوشك على الوصول إلى الدوروورات الخمسة المقدمة من «خيال الأمريكى» ولكـن فخذيه راحا يوخزانه ويتشققان وماعاد فى ذراعيه شىء من القوة. «انظر لقد جاء خطيب ميكا» ، «انظر لقد جاء خطيب ميكا» – ردد فى نفسه مغتاظا. وصعد سبتمرات قليلة أخرى ، ومأقل مابقى أمامه . وكان يخيم تحته سكون متوتر . «يابنت ، يامخنث» ، «يابنت ، يامخنث» تمتـم وصعد . هاهو الآن فى القمـة . العصا تتـمايل بقوة . كان يخشى أن يطلق يده للإمساك بالجائزة ، فقرب فمه وعض على الظرف بشـدة . لم ينطلق من تحت تصفـيق ولا صيـاح ، فقد خـيم على الناس نذير بوقوع كارثة . وبدأ دانييل (البوم) بالنزول ، وشعر فى منتصف العصا بالإنهاك فخفف من ضغط أطرافه لينـساب مسرعا على العصا المطلية بالشمع . كان يحس بساقيه تحترقان وبدمه يتدفق من فخذيه المسلوختين .

ووجد نفسه فجأة على الأرض محفـوفا بهتافات مدوية وضربات تجرح ظهره وطبطبـات على خده وقـبلات تطبعـها أمه ودمـوع ، وجد كل ذلك مخلوطا . واقـترب منه الشاب المسود أخـذا بيد ميكا ليقـول له مبتـسما : «أحسنت يافتى » أما مجموعة «الأصوات غير الصافية» فقد ابتعدوا مطأطئى الرؤوس . أما أبوه فراح يؤنبه بسيل من الكلمـات الغريبة التى لم يفهم لها معنى . وأخيـرا شاهد أوكا-أوكا تجرى نحـوه وتحيط بساقيـه ثم تنفجر فى سيل من الدموع المتدفقة .

وغيّر دانييل (البوم) من جديد ، وهو فى بيته ، رأيه فى ذلك النهار ، وأقر أنه ماكان محقا فى شعوره بالحزن والكدر ، فعلى الرغم من كل شىء فإن النهار كان مشرقا والوادى رائعا ، ثم إن خـطيب ميكا قال له مبتسما . «أحسنت يافتى» .

الفصل الثامن عشر

كشأن كثيرات من النسوة فقد زهدت (الفلفلة) الكبري فى الحب لمّا لم تجد من يدعوها الى أن تحبّ وأن تُحَبّ . وتضحك (الفلفلة) أحياناً لأن الحب الوحيد فى حياتها كان بالذات وليد غيرتها على الأخلاق . فلولا حرصها على الطواف فى الجبال أمسيات الأحد لما أثارت حفيظة فتيان البلدة . ولولا أنها أثارت حفيظتهم لما منحت كينو (الأقطع) فرصة الدفاع عنها . ولولا تلك الفرصة لما تحرّك قلبها اليابس والمحشور بين الضلوع . كان حبها الأول سلسلة من المصادفات التى لو فكّرت بها لأحست بالضيق وبالخجل . فما أكثر طرق الحب .

ولم يشع خبر العلاقة الغرامية بين (الفلفلة) الكبرى وكينو (الأقطع) فى البلدة إلا بعد حين . ثم إنها نمت بطيئة متوترة . لقد كانت خطوة متأخرة جداً ، وإن كان (الأقطع) قد فكّر من قبل فى(الفلفلة) . فكّر بها من قبل حادثة فتيان البلدة ، فليست (الفلفلة) صغيرة ولا هو كذلك . ثم إنها ، من ناحية أخرى ، كانت نحيفة ناشفة ، وتمتلك مصلحة مزدهرة وعقلية تجارية واضحة ، وهو بالضبط ما ينقصه بعد أن أغرقته الديون مؤخراً ولم يبق له من ملكية خاصة قدر حشيشة فى البستان . ولأن (الفلفلة) كانت نحيفة معصورة الساقين ، على ما يبدو بالطبع إذا لم يتسنّ له ولا لغيره أن يعاين ساقيها ، فقد كانت السيدة لولا تمثل عنده حلاً مناسباً من جميع الجوانب .

لم يكن قصد كينو إذ منع الفتيان عن (الفلفلة) قصداً نفعياً بالطبع ، انما فعل ذلك لأنه رجل شهم ومحترم ويكره العنف وخاصة مع النساء ،

أما أن تتشابك الأمور فتنظر (الفلفلة) إليه بطريقة أو بأخرى ، وتطبع قبلة حارة على فضلة يده فيشعر هو عندها بدبيب على امتداد ذراعه يحرّك عواطفه ، فتلك حلقات سلسلة واحدة وحوادث لازمة لصنع نهاية مكتوبة ومقدّرة ، إنها أقدار الرب .

لقد بيّنت تلك القبلة التى طبعت على لحم فضلة الذارع المبتورة لكينو (الأقطع) كذلك أنه ما يزال يحتفظ فى جسمه بنبض الرجوله وعنفوانها وبأنه لم يحيّد بعد فى رجولته وأنه ما زال يحسب له كل حساب ، وراح يفكر فى كل ما يمكن تنفيذه ، وهكذا ولدت فى رأسه فكرة إدخال وردة من تحت باب دكان (الفلفلة) فجر كل يوم والبلدة فى سبات .

كان (الأقطع) يدرك أن عليه أن يتصرّف بحذر ، فالبلدة تبغض (الفلفلة) لتطرفها فى أمور الدين ولأن أختها كانت قطاً متربصاً . فكان عليه إذاً أن يتصرّف بتكتم وحذر وحكمة .

كان يغيّر الوردة كل يوم ، وان كانت الوردة كبيرة ، اكتفى بإدخال واحدة من وريقاتها . كان (الأقطع) يدرك أن الوردة البريئة لاتصمد أمام الريح ، فإن كانت مقصودة فان لها من قوة الإقناع ما يفوق قوة سبيكة من الذهب . كان يدرك كذلك أن كثرة الطرق تفلّ الحديد .

وبعد شهر بدأ سيل العواطف هذا يصب كله ، بالطبع ، فى دون خوسيه القس . قالت (الفلفلة) :

- دون خوسيه . هل من الخطيئة أن تتمنى امرأة إغماءة بين ذراعى رجل ؟

- هذا يعتمد على النية - قال الراهب .

- لانية غير الإغماءة ، دون خوسيه .

- إعماءة فى هذه السن ياابنتى ؟

- ماذا تقصد ، حضـرة القس ؟ وهل يدرى أحد متى تحين الساعة ؟ إنها حال الحب وحال الموت ، يجيئان على حين غرّة ، واذا كانت الإغماءة بين ذراعى رجل خطيئـة فإننى أعيش متمـادية فيها ، دون خـوسيه . إننى أقولها لك وليس لما بى من علاج . إننى لا أستطيع أن أتمنى شيئاً آخر وإن قلت لى إنهـا أعظم خطايا العـالم . إن لهذه الرغـبة قـوة تفوق قـوتى . وبكت .

وراح دون خوسيه يحرك رأسه من صوب لآخر كرقّاص الساعة :

- إنه كينو ، أليس كذلك ؟

- بلى ، إنه هو ، دون خوسيه .

- إنه رجل طيب ياابنتى ، ولكنه معدم فقير .

- لايهم ، دون خوسيه ، فلكل شىء حل .

- وماذا تقول أختك ؟

- إنها لا تعرف شيـئاً بعد ، ولكنها لاتجرؤ على محـاسبتى ، ولكن تكسب شيـئاً إن هى حاولت نصحى . وأخـيراً علمت ايرينه ، (الفلفلة) الصغرى ، بالأمر :

- أكاد لا أصدق ، لولا . هل جننت ؟

- لماذا تقولين لى ذلك ؟

- ألا تعرفين ؟

- لا . لاتنكرى أننا فى البيت فى حاجة إلى رجل .

- وعندمـا حدث لى مـا حدث مع ديماس ، أمـا كنّا فى حاجـة إلى رجل فى البيت ؟

- الأمر مختلف أختاه .

- الفرق الوحيد هو أن المجنونة هذه المرة هى أنت .

- ولكن كينو رجل ذو حياء .

- وكذلك بدا ديماس .

- ديماس كـان طامعـاً فى مالك ، وقـد بقى معك مـا دامت آلافك الخمسة . أنت قلت ذلك .

- وهل تظنين أن كينو يريدك لشخصك ؟

ونطَت (الفلفلة) الكبري وقد أحسّت بالإهانة :

- وما هى أسبابك للشك فى ذلك ؟

وتراجعت الأخت الصغيرة:

- لا أسباب ظاهرة بالطبع .

- ثم إننى لن أحـتاج الى الاختـباء كمـا فعلت أنت . بل سـأخضع عاطفتى لشريعة الرب .

ولمعت عينا (الفلفلة) الصغرى :

- لاتتكلمى عن ذلك . أتوسّل إليك بروح والدينا المباركين .

لم يتضح حينها شئ عن الخطوبة فى البـلدة لذلك توجب على كينو و (الفلفلة) أن يطوفا شوارعها ذات عصر أحد متلازمين لكى يعلم الناس بالخبر . وعلى الـعكس مما قدّر كينو (الأقطع) فلا ورود الجـيرانيو ذبلت فى شرفـاتها ولا الأبقـار ارتعشت فى حظائرها ولا الأرض انخـسفت ولا الجبال تصدّعت عندما شاع الأمر ، وإنما حدثت ابتسامات لاذعة وتلميحات متندرة وحسب ، وهوما لم يكن ينتظر أقل منه .

وبعد أسبوعين ذهبت (الفلفلة) الكبري لزيارة دون خوسيه ثانية :

- حضرة القس . هل من الخطيئة أن تتـمنى امرأة أن يقبلها رجل من فمها وأن يضمّها بقوة بين ذراعيه ؟

- نعم . إنها خطيئة .

- ولكنى لا أستطيع على ذلـك صبراً ، دون خوسـيه ، اننى أخطئ كل دقيقة من حياتى .

- عليكما أن تعجّلا بالزواج - قال القس دون أن يضيف شيئاً آخر .

وعلا صراخ ايرينه عندما علمت بقرار دون خوسيه :

- أنت تكبرينه بعشرة أعوام ، لولا . لقـد بلغت الخمسين ، فاعقلى وتفكّرى . عودى بحق السماء إلى رشدك قبل فوات الأوان .

ولكن (الفلفلة) الكبـري كانت قد اكـتشفت لـتوها جمـال الشمس الرابضة وراء الجبال ، وحلاوة صرير العربات المحملة بالعشب وروعة تحليق الحدآن وهـى تطير باتزان وتناسق تحت سـماء أغـسطس الصافـية بل لـقد اكتشفت جمال الحياة ، الحياة وحسب ، فـأنى لها وقد اكتشفتها أن تتخلى عنها .

- لقد قرّرت ، أختاه . وأمامك الباب مفتوح إن شئت الرحيل .

وانفجرت (الفلفلة) الصغرى بالبكاء وأصيبت بنوبة عصبية ثم رقدت محـمومة . وظلت على تلك الحال أسـبوعا كامـلاً ، ولمّا حلّ يوم الأحد زالت الحـمّى . ودخلت (الفلفلة) الكبـرى حجـرة أخـتهـا على رؤوس أصابعها وسحبت الستائر مبتهجة :

- هيا انهـضى ، أختاه . فـاليوم سيقـرأ دون خوسيـه إعلان زواجى الأول ، ويجب أن يكون هذا اليوم عندي وعندك يوماً مشهوداً .

ونهضت ايرينه دون أن تتفوه بشيء. ارتدت ملابسها وذهبت مع أختها لسماع الإعلان الأول عن الزواج ، وعند العودة الى البيت قالت لولا لأختها :

- افرحي أختاه ، فستكونين عرّابتي يوم عرسى .

وكانت ايرينه ، فعلاً ، عرّابة أختها فى العرس ، ولكن دون أن تتفوّه بكلمة واحدة ، وبعد أشهر من الزواج أمرت (الفلفلة) الكبرى ، وقد راعها إذعان أختها وصمتها ، باستدعاء دون ريكاردو الطبيب :

- الفتاة مصابة بصدمة قوية . إنها لا تعقل . على أية حال فليس الأمر خطراً ، ومرضها لايوحي بأية حالة عنف - قال الطبيب وانصرف بعد أو وصف لها حقناً . وراحت (الفلفلة) الكبري تبكى بغصّة .

على أن ذلك كله لم يفاجئ دانييل (البوم) الذى صار يدرك أن الحياة مليئة بالحوادث التى تبدو ، قبل وقوعها ، غير ممكنة ثم تبدو ، وقد وقعت ، أن لاشئ فيها غريب ولامفاجئ ، بل إنها طبيعية كشروق الشمس كل صباح وكالمطر وكالليل وكالرياح ، وتابع (البوم) مسيرة العلاقة بين (الفلفلة) و (الأقطع) عن طريق أوكا - أوكا . ومن الغريب أن (البوم) ، حالما علم بتلك العلاقة ، بدأ يحسّ أن نفوره القديم من الصغيرة زال تماماً وأن شعوراً غامضاً بالشفقة عليها بدأ يحل محله . صادفها ذات يوم تنقّب بين الأحراج على شاطئ النهر :

- ساعدنى ، بوم ، لقد اختبأ هنا زرور لايقوى على الطيران .

واجتهد هو فى العثور على الزرور ، وتمكن أخيراً من العثور عليه ، ولكن الطائر الصغير جاهد للتملّص فسقط فى النهر وغرق فى الحال ، وعندما جلست ماريوكا - أوكا على حافة النهر وغمرت قدميها فى مائه وجلس (البوم) الى جانبها حزينين لموت الطائر ، لكن الحزن لم يلبث أن تبدد :

- هل صحيح أن أباك سيتزوج (الفلفلة) ؟ قال (البوم) .

- هذا ما يقولونه .

- من يقول هذا ؟

- هم .

- وماذا تقولين أنت ؟

- لا أقول شيئاً .

كان دانيـيل يشعـر بمحنة الصغـيرة المكبـوتة ويتفـهم صمـتهـا المطبق الشجاع . وسألته الطفلة فجأة :

- هل صحيح أنك ستذهبين الى المدينة ؟

- نعم ، بعد ثلاثة أشهر ، فقد بلغت الحادية عشرة وأبى يريد لى أن أتقدم .

- وأنت ماذا تقولين ؟

- لا أقول شيئاً .

وأدرك (البوم) ، بعد انتهائه من الكلام ، أنهما تبادلا الأدوار ، إنه هو ، هذه المرة ، من لايقول شيئـاً . ووجد أن بينه وبين أوكا - أوكا نقطة مشتركة ذات شبه غريب ، فكل منهما مضطر الى القبول بما يلائم أباه دون أن يطلب اليـه رأى فى ذلك . ولاحظ كذلك أنه لايتـضايق وهو يـحادث الطفلة ، بل انه كـان مرتاحـاً وهو يتحـدث عن أشيـاء وأشياء وأن مـيكا لايخطر على باله فى شىء ، خصوصاً أن فكرة السفر الى المدينة تتراءى له من جديد صعـبة لا تطاق ، ولاشك أن ميكا ستكون عنـدما يعود هو من المدينة فقد فقدت نعومة بشرتها بل وأنجبت دزينة من الأولاد .

وصار (البوم) يلتقي بـالصغيرة مرات أكثر ، ومـا عاد يعرض عنها عابساً كما كان يفعل من قبل .

- متى العرس ، أوكا - أوكا ؟

- في يوليو .

- وماذا تقولين ؟

- لا أقول شيئاً .

-وهي ماذا تقول ؟

- تقول إنها عندمـا ستصبح أمي ستأخـذني الى المدينة ليزيلوا النمش عن وجهي .

- وأنت ، هل تريدين ذلك ؟

وارتبكت الطفلة وخفضت عينيها :

- بالطبع .

ولم تظهر أوكا - أوكـا نهار يوم العرس في أي مكان . وعند حلول المساء ترك كينو (الأقطع) عروسـه وكل شيء قائلا أن عليه إن يبحث عن الطفلة مهما كلّف ذلك ، كان دانييل (البوم) يتابع مـستمتعاً التحضيرات من حوله ويتأمل الرجال وهم يحـملون العصى والقناديل والمصابيح اليدوية ويرتدون الأحذية الضخـمة المسمّرة التي تحدث عند السـير بها على الطريق ضجيجاً وصريراً .

ولما رأى دانييـل (البوم) أن الوقت يمضي دون أن يعـود الرجال من الجبال بدأ القلق يساوره . كـانت أمه تقف الى جانبه وهي تبكي وتردد بلا انقطاع « ياللطفلة المسكينة » ، فـيمابدا أنهـا لم تكن تؤيد أن يكون للطفلة زوجة أب . ومـرت في هذه الأثناء رافائيلا (الخنزيرة) ، زوجة كـوكو ،

مأمور المحطة ، من أمام معمل الجبن وقالت إن من المحتمل أن يكون ذئباً قد افترس الفتاة فتملكت دانييل (البوم) رغبة فى الصراخ من أعماقه وفكر فى تلك اللحظة بأنهم لو أزالوا النمش من وجه أوكا - أوكا فسيزيلون ظرفها ، هو لايريد أن يزيلوا النمش من وجهها ولا أن يفترسها الذئب .

وفى الساعة الثانية فجراً عاد الرجال وهو يحملون العصى والقناديل والمصابيح اليدوية وقد بدت أوكا - أوكا فى وسطهم شاحبة الوجه شعثاء الشعر ، وخفّ الجميع صوب بيت (الأقطع) لرؤية الفتاة وتقبيلها واحتضانها والاحتفاء بالعثور عليها . ولكن (الفلفلة) سبقت الجميع وتلقّت الطفلة بصفعتين على وجهها . وكظم كينو (الأقطع) لسانه أن يطلق منكراً ، ولكنه حذّر (الفلفلة) قائلاً إنه لايقبل أن تضرب طفلته . ولكن السيدة لولا ردّت عليه قائلة بأنها « صارت منذ الصباح أماً لها ، وأن عليها واجب تربيتها » ، فما كان من كينو الا أن جلس على إحدى دكك الحانة وأسند ذراعيه على الطاولة فكأنه يوشك على البكاء أو كأن فاجعة أوشكت على النزول به .

الفصل التاسع عشر

رفع جيرمان (الأقرع) أصبعه وأمال رأسه قليلاً متنصتاً وقال :

- ذاك الطائر الذى يغنى فوق السور هو طائر أبو زريق .

وقال (البوم) معارضاً :

- كلا . إنه طائر الحسون .

وأوضح له جيرمان أن لأبى زريق خواصاً صوتية تمكّنه من تقليد زقزقات جميع أنواع الطيور وصفيرها . وأنه يقلد أصواتها ليستدرجها ويفترسها ، لذلك فهو من الطيور المقيتة لخبثها وريائها .

ولكن (البوم) أصرّ على رأيه قائلا :

- بل هو طائر الحسّون .

كان دانييل يجد متعة فى المعارضة ذلك الصباح . إنه يشعر باندفاعه فى المعارضة مع أنها معارضة لاتقوم على أساس ، ولكنه كان يحسّ ارتياحاً وبيلاً وغامضاً إذ يفعل ذلك .

وتدخّل روكى (البعرور) فجأة وهو يصرخ :

- انظر . إنه أحمق الماء .

كان يشير الى مكان يقع على يمين البركة ، مسافة ثلاثة أمتار من مصب النهر . وكانوا فى البلدة يطلقون هذه التسمية على أفعى الماء دون أن يعرفوا لهذه التسمية سبباً ، إذ ليس من دأبهم البحث عن الأسباب فى ما يخص مفردات الوادى ، إنهم يتقبلون التسميات وحسب فيدعون تلك الأفعى التى تصول على ضفة النهر بضربات متشنجة من ذنبها بأحمق الماء

ونهض الأولاد الثلاثة وألقوا ببعض الحجارات على الأحمق الذى كان يحمل سمكة صغيرة بين فكيه .

وصاح (الأقرع) محذراً :

- لا تدعاه يصعد ، لأنه فى الأماكن المرتفعة يلف جسمه كالطوق ويدور متدحرجاً بسرعة تفوق سرعة الأرنب ، وقد يهاجم .

ونظر (البعرور) و (البوم) الى الحيوان مفزوعين . وراح (الأقرع) ينط من صخرة الى صخرة وهو يحمل حجارة كبيرة ويحاول الاقتراب من أحمق الماء ، ولكن خطوة عير موفقة أو انزلاقاً على الوحل الذى كان يغطى الصخور أو زلة من ساقه العرجاء أطاحت به فسقط بقوة على الصخور ليرتطم رأسه بها ولينساب من هناك كتلة هامدة حتى البركة . وألقى (البعرور) و (البوم) بنّفسيهما دون تأخر إلى الماء لإنقاذ صاحبهما ، وأفلحا بعد سباحة يائسة مضنية فى انتشال جسده واخراجه الى ضفة النهر . كان (الأقرع) مصاباً بجرح عظيم فى عنقه وكان غائبا عن الوعى . أما روكى ودانييل فكانا مصعوقين . وحمل (البعرور) الجسد الخامد على كتفه وصعد به الى الطريق العام . وفى بيت كينو وضعت (الفلفلة) كمادات الكحول على رأسه ، وبعد قليل مر من هناك استيبان الخبّاز فحمله بعربته إلى البلدة .

وانفجرت ريتا (البلهاء) صراخاً وتأوهاً إذ رأت ولدها على تلك الحال . ومرّت لحظات من الارتباك . وبعد خمس دقائق كانت البلدة عن بكرة أبيها تحتشد أمام باب الاسكافى حتى إن دون ريكاردو الطبيب شقّ طريقه الى البيت بصعوبة لشدة ما كان فى الناس من قلق وجزع ، وعندما خرج الطبيب اتجهت العيون صوبه بانتظار ما سيقول :

- إن حالته خطرة جداً . لقد كسرت قاعدة الجمجمة . اطلبوا سيارة إسعاف من المدينة .

وصار الوادى فى عينى (البوم) رمادياً كـالحاً ، وشحب ضوء النهار واكـفهر ، ودوّت فى السـماء قوة أشدّ حتى من قوة باكو الحداد قال بالجو (الملحد) انـها قوة القـدر وقالت (الفلفلة) إنـها إرادة الرب ، ولما رأى دانييل أنهـما لم يتفـقا على رأى تسلل الى حجـرة صديقه الجـريح . كان جيرمان (الأقرع) شديد البياض وكانت شفتاه منغلقتين على ابتسامة رقيقة ناعمة .

وظل (الأقرع) لثـمان ساعـات ساحة مـعركة بين الحـياة والموت . ووصلت سيارة الإسعاف من المدينة وكان فيها توماس ، أخو (الأقرع) ، وكان موظفاً فى شركة للحـافلات . وما إن دخل هذا الى البيت كالمجنون حتى تلقته أمه وقد خرجت للتو مذعـورة من حجرة أخيه المصاب ، معانقة فى ما يشبه تماساً كهربائياً وصارخة فى ما يشبه شرارة صاعقة .

- وصلت متأخراً ياولدى . لقد مات أخوك .

وطفرت الدمـوع من عيني توماس وشـدّف مغتاظـاً فكأنه يحتج على الرب لوقوفه عـاجزاً دون حول ولاقوة ، وراحت النسـوة ينتحبن ويولولن عند باب الدار ، ثم خرج اندريس الإسكافى من الحجرة وقـد مال بجسمه فكانه يود التطلع الى سيقان أصغر قزمة فى العالم . وشعر دانييل (البوم) برغبة فى البكاء لكنه لم يجـرؤ لأن (البعرور) كان يصده صارماً مـستبداً دون أن يتحرك له رمش ، واستغـرب (البوم) إذ لاحظ أن الجميع صاروا يحبّون (الأقرع) ، حتى أن المرء ليظن ، وهو يسمع البكاء والنحيب ، أن جيرمان هو ابن كل واحدة من نسـاء البلدة . مع ذلك فقد وجد (البوم) عزاء فى بادرة التضامن تلك .

وذهب (البعرور) و (البوم) الى محل الحدّاد بينما انشغل الآخرون بتكفين (الأقرع) :

- أبى - قال (البعرور) - لقد مات (الأقرع) .

واضطر باكو الحداد ، على ضخامة جسمه وقوته ، الى الجلوس بعد أن أذهله سماع الخبر ، ثم قال وكأنه يجاهد ضد شيء يسلبه قواه :

- الرجال يخلقون ، أما الجبال فقد خلقت من قبل .

- ماذا تقصد بذلك أبتاه ؟ - سأل (البعرور) .

- أن تشربا - قال الحداد بنبرة من الغضب وهو يناول ولده زق النبيذ .

كانت الجبال تكتسى عتمة محزنة ، وكذلك الحقول وشوارع البلدة وبيوتها والطيور وزقزقاتها .

وأشار باكو الحداد عليهما أن يطلبا إكليلاً جنائزياً من المدينة تكريماً للصديق الفقيد ، فذهبا الى بيت (الأرنبات) وطلبا ذلك بالهاتف . كانت كاميلا تبكى هى الأخرى ، ورفضت أن تأخذ منهما نقودا على الرغم من طول مدة المكالمة ، ولما عاد الصديقان الى بيت (الأقرع) طوّقت ريتا (البلهاء) بذراعيها عنق (البوم) طالبة إليه أن يسمح لها باحتضانه وضمه إلى صدرها لأنها تواصل هكذا احتضان ولدها ، فقد كان أقرب أصدقائه إليه ، واشتد حزن دانييل وهو يرى أنه ليس أمامه إلا أربعة أسابيع قبل أن يسافر إلى المدينة ليبدأ تقدمه ، وأن ريتا ، التى لم تكن بلهاء بالقدر الذى يزعمون ، ستبقى صفراً من ولدها (الأقرع) ومنه هو بينما تسعى لإرضاء عاطفتها البائسة الثكلى ، وربت الإسكافى على كتفى الصديقين وشكر لهما أنهما انتشلا ولده من النهر ولكن الموت كان له بالمرصاد وليس من حيلة أمام الموت إن وقف لأحد بالمرصاد .

وواصلت النسوة البكاء عنـد الجثمان ، ومن حين لآخـر كانت تندفع أحداهن لتقّـبل الجسد الصغـير النحيف البارد بينما يـرتفع عويل الأخريات وتزداد دموعهن .

وشدّ توماس منشفة على رأس أخيـه كى لاتبين قرعته فاشـتد حـزن (البوم) لأن صديقـه بدا ، على ذلك النحو ، وكأنه طفل مـورى كافر . وتأمل (البوم) أن يحدث منظر المنشفة الانطباع ذاته فى دون خوسيه القس فيأمر بنـزعها ، ولكن الراهب وصل واحتضن الإسـكافى وألـقى علـى (الأقرع) المسحة المقدسة دون أن يتوقف عند المنشفة .

وما أقل ما يلتفت الكبـار الى معاناة الصغار الدقيقـة القاسية ، بل إن أباه الجبّان لم يواسه عندما رآه لأول مرة بعد الحادثة ، بل قال له :

– دانييل . لكى تعلم ما تؤدى اليه أعـمال الشيطنة . أرجو أن يكون لك فى هذا درس ، فما حدث لابن الاسكافى كان يمكن أن يحدث لك .

ولم يردّ دانيـيل بشئ لأنه خمّن إن هو تكلم فـسينتهـى به الأمر إلى البكاء . فـأبوه لايريد أن يعرف أنهـم ، عندما وقع الحـادث ، لم يكونوا يقومون بأى عمل شيطانى ، وإنما كانوا يحاولون وحسب قتل أحمق الماء ، كما أن الأب لايلاحظ أنه ، يوم اصطادوا الحدأة بالدوق الكبير ، كان يمكن أن يصيب ولده فى صدغه فيقتله بدلاً من إصابته بالكرة الرصاصية فى خدّه فالكبار ينسبون الفواجع الى طـيش الصغار وينسون أن هذه الأشياء هى من مقدرات الله دائما وان للكبار كذلك أفعالهم الطائشة أحيانا .

وأمضى دانيل (البوم) ليلتـه بالقرب من الميت ، كان يشعر أن شـيئا كبيراً يسهر فى داخله وان لاشىء سيبقى على حاله مستقبلا ، لقد كان من قبل يفكر أن صاحبـيه (البعرور) و (الأقرع) سيشـعران بالوحدة عندما

يذهب هو الى المدينة للتقدم ، ولكنه الآن يرى أنه هو من سيشعر بالوحدة ، بالوحدة الموحشة ، هو وحده ، لقد ذبل شيء ما فى داخله فجأة ، ربما هو اعتقاده بطفولة دائمة ، وأدرك أن الموت هو غاية كل حى ، شيخاً كبيراً كان أم طفلاً صغيراً .

لم يسبق له قط أن توقف للتفكير فى ذلك ، وهو الآن إذ يفكر فى هذه الأشياء يخنقه شعور يؤخره ويبعث الضيق فى صدره . فالحياة هكذا مشرقة ولكنها كذلك محزنة ومدمّرة . إنها الموت البطىء ، يوماً بعد يوم ، شيئاً فشيئاً . إنها الموت المحتوم ، فالجميع ،على المدى البعيد ،سيموتون : هو ودون خوسيه وأبوه الجبّان وأمه والفلفلات وكينو والأرنبات الخمس وانطونيو (الحوصلة) وميكا وماريوكا - أوكا والماركيز حتي باكو الحداد سيموت ، فالكل فان وزائل ولن يبقى أثر منهم على أحجار البلدة بعد مائة عام ، كما لايبقى الآن أثر ممن عاشوا قبل مائة عام . ولكن الانتقال يحدث ببطء ، ودون أن نشعر به . سيختفي الجميع من العالم ، جميع من يعيشون الآن على سطحه ، جميعهم إطلاقاً ولن يلحظ العالم التغيير ، فالموت مقتضب وغامض وفظيع .

وعند حلول الفجر ترك (البوم) صاحبه الميّت وتوجّه الى بيته للأفطار ، لم يكن جائعاً ولكنه ارتأى أن يملأ جوفه تحسّباً للمواقف المؤثرة المقبلة . كان يخيم على البلدة فى تلك الساعة هدوء راكد جليّ ، فكأن برودة الموت الشديدة طافت فى جميع أرجائها وكبّلتها فالأشجار تبدو متيبسة وصياح الديكة جنائزياً فكأنها تصبح من خلال كاتم للصوت ، وكأنها لاتجرؤ على تعكير جو الحزن والانقباض المخيم على الوادي أما

الجبال فبـدت بأجسامها الضخـمة متشحة بالسواد تحت الـسماء الرمادية ، وكانت مسحة التعب والاسترخاء المعهودة فى الحقول تبدو واضحة حتى فى الأبقار التى كانت ترعى فى تلك الحقول .

وما إن تناول دانييل (البوم) فطوره حتى عاد إلى البلدة . وبينما كان يمرّ من أمام سيـاج الصيدلية لمح زرزوراً ينقر كـرزة برية على حافة الطريق العام ، فـاضطرمت فى نفســه المشاعـر تجاه صديقـه الفقـيد . وبحث عن المصيدة فى جيـبه ثم وضع حجرة فى شريطها ، وصـوّب بدقة نحو الطائر ثم سحب المطاط بقوة ، وعندما ارتطمت الحجارة بصدر الزرور سمع دوى عظام تنكـسـر . وركض دانيـيل صـوب الطائر المجندل والـتـقطه بيـدين مرتعشتين ثم واصل طريقه والزرزور فى جيبه .

وعندمـا وصل كـان جيـرمـان (الأقرع) قـد أودع التـابوت ، وهو صندوق أبيض مطلى بالورنيش كـان الإسكافي قد طلبه من أحد مـحلات بيع التوابيت فى المدينة ، وكان قد وصل كذلك الإكليل الذى طلبه الأولاد وقد كتب عليـه ما أملاه (البعرور) : أصدقاؤك (الـبوم) و (البعرور) لن ينسوك أبداً يا (أقرع) » . وعاودت ريتا (البلهـاء) احتضانه قائلة له بصـوت منخفض إنـه اكليل جمـيل ، ولكن الأخ تومـاس ، الموظف فى شركة الحافلات ، غضب عـنـدما قرأ الإهداء وقصّ الجـزء الذى كتب عليه « يا أقرع » وترك بقية العبارة كما هى :

وبينما كان توماس ينظّم الشـريط والآخـرون يراقـبونه حشـر دانييل (البوم) الزرزور خفيـة فى التابوت الى جانب جثمان صـديقه . لقد فكّر أن جيرمـان الذى يعشق الطيور سيشكر لـه ، وهو فى عالمه الآخر ، تلك الالتـفاتة . ولما عـاد توماس لوضع الإكليـل عندما قـدم الميت لمح الطائر

مطروحاً جنب أخيه . وقرّب عينيه ليتأكد من أن ما يراه كان زرزورا بحق ، وما إن تيقن من ذلك حتى أحسّ بتيار غامض يسرى فى بدنه . لم يجرؤ على لمسه بل صاح :

– ماذا ؟ . . . من ؟ ماهذا ؟

ولم يجرؤ دانييل (البوم) بعد ما رآه من غضب توماس عقب حادثة الإكليل على الاعتراف بضلوعه فى هذه الحادثة الجديدة . وسرت دهشة توماس بسرعة بين الحضور عندما اقتربوا لتأمل الطائر ، مع ذلك لم يجرؤ أحد على لمسه :

– كيف وصل الزرزور الى هنا ؟

وراحت ريتا (البلهاء) تبحث عن تفسير معقول فى وجه كل واحد من جيرانها ، ولكنها كانت تقرأ الذهول نفسه فى كل الوجوه :

– أتعرف أنت يا (بوم) ؟

– أنا لاأعرف شيئاً ، لم أر الزرزور الا بعد أن أخبر بذلك توماس .

ودخل فى تلك اللحظة اندريس الاسكافى ، وما أن شاهد الطير حتى رقّت عيناه وراح يبكى بصمت :

– لقد كان يحب الطيور كثيراً ، وقد جاءت لتموت معه .

وبكى الآخرون لبكائه . وتلى الذهول الأولى اعتقاد عام بتدخل سماوى . وكان اندريس ، الرجل الذى لايرى من جانبيه ، أول من ألمح الى ذلك بصوت مرتعش :

– هذه معجزة :

ولم يكن الحاضرون ينتظرون غير أن يصرّح أحدهم بما كان يدور فى خلدهم لينفجروا ، لذلك فما إن سمعوا قول الإسكافي حتى انطلقت صرخة جماعية مدوية مشوبة بتأوهات وبكاء .

– معجزة .

وخـرجت مـجمـوعـة من النسوة فـزعات يركـضن بحثـاً عن دون خوسيـه ، وذهب بعضهن لإبلاغ أزواجهن وأقربائهن لـيكونوا شهوداً على الأعجوبة ، وحدث هرج ومرج عارمان .

كـان دانيـيل (البـوم) يبتلـع ريقه دون توقـف فى ركن من أركـان البـيت . أن الكائنات الغريبة الخبيثة المحلقة فى الفضاء تواصل ، حتي بعد مـوت (الأقرع) ، تعقيد أفعـاله البريئة ونواياه الحسنة . وفكّر (البوم) أن من الخير له ، بـعد ما وصلت اليه الأمور ، السـكوت وإلا فإن توماس قد يقتله وهو فى سورة غضبه .

ودخل دون خوسيه على عجل .

– انظر ، دون خوسيه ، انظر – قال الإسكافى :

واقترب دون خوسيه مـرتاباً من حافة التابوت ورأى الزرزور مطروحاً إلى جنب يد (الأقرع) المتخشبة :

– هل هى معـجزة أم لا ؟ – قـالت ريتا منفعلة وهى تـتأمل الذهول الذى بدا على وجه القس .

وسرت همهـمة طويلة حولهم . حرّك دون خوسـيه رأسه من طرف لآخر وراح يتفحّص الوجوه المحيطة به .

وتوقفت نظراته لحظات فى وجه (البوم) المضطرب . ثم قال :

– اعترف أن الأمر غريب . ولكن ، ألم يضع أحد هذا الطائر هنا ؟

– لا أحد . . – صرخ الجميع .

وخفض دانـييل (البـوم) عينيـه ، وعاودت ريتـا الصراخ مطلقـة قهقهات هستيرية ومتحدية بنظراتها دون خوسيه :

– ها ، حضرة القس . هل هى معجزة أم لا ؟

وحاول دون خوسيه تهدئة الخواطر المنفعلة :

- أنا لا أستطيع أن أبدى رأياً ازاء شىء من هذا القـبيل ، فى الواقع أن من المحـتمل جـداً ، ياأبنائى ، أن يكون أحـد ما قـد دس الزرزور فى التابوت مازحاً أو بحسن طوية وهو لايجرؤ الآن على التصريح بفعلته خوفا من غـضبكم وعـاود النظر الى دانيـيل بعينيـه الجـارحتين المدببـتين كطرف الدبوس ، واستدار (البـوم) الخائف ثم ولى هارباً الى الشارع ، وواصل القس كلامه : - على كل حال سأتولى ابلاغ الأسقف بما حدث ، ولكنى أكرر أن عليكم ألا تمنّوا أنفسكم بالكثيـر فى الواقع هناك كثير من الحوادث التى لها اعجاز ظاهرى ولكنها لاتمتلك من المعجزة غير ما قلنا : الظاهر - ثم قطع حديثه قائلا : - سأعود الساعة الخامسة للدفن .

وعند الباب ، عثر دون خوسيه القس ، وهو قديس كبير ، بدانيـيل (البوم) الذى كان يختلس النظر إليـه خجلاً . ولما أيقن القس أن لا أحد موجود بالقرب منهما ابتسم للفتى وربت بحنان على قفاه وقال له هامساً :

- فعلة متقنة ياولدى . فعلة متقنة .

وترك له يده لكى يقـبّلها ثم ابتعـد بخطى بطيئـة جداً مسـتـنداً على عصاه .

الفصل العشرون

لأجراس النواقيس لغة معبّرة ومتغيّرة ، ولذبذباتها قدرة على إحداث نغمات عميقة وحادة ، رصينة وخفيفة ، قاتمة ومعتمة بالأجراس لا تكرر الشئ نفسه مطلقاً ، ولا تقول ما تقول بالطريقة ذاتها على الإطلاق .

لقد اعتاد دانييل (البوم) أن يكيّف قلبه وعواطفه على نغمة الأجراس إنه يعرف أن دقات يوم الراعية لها نغمة الألعاب النارية وصوت الهرج والمرج الصاخب وغير المتناسق ، والتى لسماعها يتكوّر قلبه وهو ينبض بشعور من الفرح التام المتجانس . وعندما كانت تنتهي الغارة فى وقت الحرب كانت النواقيس تجلجل بفرح كذلك ولكنه فرح مشوب بالحذر والترقب ، فقد كان من الواجب التسلح بالحذر . فى مرات أخري كانت الدقات صمّاء معتمة كالحة جوفاء كما كان حالها يوم دفنوا جيرمان (الأقرع) . لقد عمّت الوادى يومها دقات منبعثة من نواقيس الأبرشية ، دقات صمّاء معتمة كالحة جوفاء ، وكانت برودة ذبذباتها تنفذ الى أعماق الأرض وجذور الزرع ونخاع عظام الرجال وقلوب الأطفال ، فكان قلب دانييل (البوم) يذوب ويلين كالرصاص المنصهر ، من أثر دقات النواقيس المهيبة فيه . كان المطر يسقط خفيفاً . وكان أولاد الاسكافى الكبار الأربعة يسيرون خلف دون خوسيه ، الذى ارتدي قميصه الكهنونئ الأبيض مع الوشاح ، وهم يحملون النعش على أكتافهم وبداخله جيرمان (الأقرع) والزرزور ، يتبعهم أبوهم وبقيه العائلة وجميع رجال البلدة ونسائها وأطفالها وقد تجهمت وجوههم وانعكست فى مصارينهم أصداء الأجراس

وهي تتردد فـي نغمات بطيـئة مـوزونة ، أما دانييل (الـبوم) فكان يسمع تلك الأجراس بطريقـة خاصة في ذلك اليوم . كان يرى نفـسه مثل واحدة من تلك الحشرات التي دأب راهب بلدة (لاكويرا) على جمعها في علبة ، إذ كـانت كل دقة ، كـشأن تلك المخلوقات الصـغيـرة ، بمثابة إبرة حادة تختـرق منطقة حساسـة في كيانه ، انه يفكّر في جيـرمان (الأقرع) وفي نفـسه وفي المسـارات الجديدة التـي تفرض على حـياته . كـان يؤلمه الإحساس بأن لاشيء لاشيء مما مضى يمكن أن يعود . كـان إحساساً ثقيلاً بالانقيـاد والتبعية والخـضوع . ان ما يثيـر أعصابه عدم قـدرته على إعادة عقارب الزمن إلى الوراء ووقـوفه عاجزاً ازاء حقيقـة أن أحداً لن يعود الى التحـدث اليه ، بدقة (الأقـرع) واحاطته ، عن طـائر أبي زريق والحجل والرفراف ودجـاج الماء أن عليه أن يتـقبّل الا يعـود أبداً الى سمـاع صوت جيـرمان (الأقـرع) وأن تألف أن عظام صاحـبه سـتصيـر ، هي وعظام الزرزور ، تراباً ، وأن الدود سينخر الجسدين معاً دون مفاضلة ولاتمييز .

وأحس بشيء من الراحة وهـو يتحسّس في جـيبه قـرشا مشـقوباً من وسطه . وفكّر : عندما سينتهون مـن الدفن سيذهب هو الى دكان انطونيو (الحوصـلة) لشراء قطعـة من السكاكر . ولما كـان من غيـر اللائق تناول الحلوى بعد دفن صـديق حميم فعليـه إذا الانتظار إلى الغد . وبدأوا بنزول العقبة من ناحيتها الشمالية مـتجهين صوب مقبرة الوادي الصغيرة . وكانت دقات النواقيس تكتسب، وقد مرّوا من ناحية الكنيسة ، تأثيراً نافذاً ومؤلماً. واجتاز الموكب منعطف الأبرشية ثم دخل المقـبرة ، وصرت بوابتها الحديدية حالمة ساخطة . لم يكن المكان يتسع للجميع . وأسرع قلب دانييل (البوم) النبض وهو يرى الحـفرة الصغيرة مـفتـوحة عند قدمـيه . كـانت مقـبرة

البلدة فـاترة منزوية مـريحة تحـتوي على شـجـرتي سرو مـعمـرتين متجهمتين ترتفعان عند سيـاج المقبرة الشرقي. لم يكن في المقبرة مرمر ولا تماثيل ولا أضرحة ولاقبور محفورة في الجدران ولا قبور مكسوة بالجدران. فالموتى تراب يعود إلى التراب ، يختلط به في اندفاع مباشر ، بل معيب ، الى الالتحـام به والامتزاج مـعه ، لقد نمت حـول الصلبان الكثيـرة نباتات السرخس والقراص والنعناع وكل أصناف الحـشائش البرية لكي تكون بمثابة عزاء لمن يرقد هناك محفوفـا في الليل والنهار بروائح الحقل الذكية . كانت السماء متجهمة عابسة . كان المطر الخفي متواصلاً . وكان الحشد ، محتمياً بالمظلات ، يشكّل بقعة مسوّدة في لوحة رمزية باعثة على الرعشة والحزن . وأحسّ دانييل (البـوم) بالبرد عندما بدأ دون خوسيـه صلاته على النعش الموضوع عند حافة القبر .

كان يخـيم على المكان صمت سمـحت به مائة حسـرة مكبوتة وألف دمعـة محبوسـة . والتفت (البوم) إذا أحسّ فوق حـرارة يديه بحرارة يد صديقة انها أوكا - أوكا . كانت الطفلة تضيف الى ملامحها الطفولية وقاراً يوحي بعجز وخضوع محزنين . كـان سيروق لدانييل (البوم) لو انه كان مع أوكا - اوكـا وحيـدين عند النعش ليكون في امكانه أن يصبّ دمـوعه غزيرة على ضفائرها الذهبية . فكّر في هذا وهو يحسّ بين يديه بحرارة يد صـديقة أخـرى . كمـا أنه يأسف ، وهو ينظر الى النعش عند قـدميـه ، للجـدل الذي نشب بينه وبين (الأقـرع) حول صـوت طيور الحـجل أثناء الطيران وحول زقزقات أبي زريق وحول طعم الندب التي تخلفها الجروح . (الأقرع) الآن لايقـدر على الدفاع عن نفسه ، ولكن دانيـيل (البوم) ، من أعماق روحه ، يرى أنه كان على حق دون قيد أوشرط كان صوت دون خـوسيـه يهتـز ذلك المســاء تحت المطر بنبرات حـزينة وهو يرتل القـدّاس الجنائزي :

- كرياليسون ، كرستياليسون ، كرياليسون . أبانا الذى فى السماوات . .

وبعد هذا كان صوت الراهب يتحول الى همس غير مفهوم . وأحس (البوم) برغبة شديدة بالبكاء وهو يتأمل الاسكافى مذعنا مستسلما . إنه لايشك ، وهو يراه على تلك الحال ، أن اندريس ، الرجل الذى لايرى من جانبيه ، لن يعود أبدا الى النظر الى سيقان النساء ، فقد أصبح فجأة عجوزاً مرتعشاً منهكا غير معنى بالجنس ، وعندما أتم دون خوسيه الصلاة الثالثة بسط ترينو قطعة من الخيش الى جانب النعش فرمى اندريس فيها ببيزيته . وارتفع صوت دون خوسيه من جديد :

- كرياليسون ، كرستياليسون ، كرياليسون . أبانا الذى فى السماوات . .

وجاء دور (البيدق) فرمى بقطعة نقدية على رقعة الخيش فرتّل دون خوسيه من جديد ، ثم تقرّب باكو الحداد ووضع عشرين سنتاً أعقبه كينو (الأقطع) فساهم بمبلغ طفيف ثم تتابع بعد ذلك كوكو ، مأمور المحطة ، وباسكوالون ، عامل الطاحونة، ودون رامون العمدة وانطونيو (الحوصلة) ولوكاس (الأبتر) والأرنبات الخمس والقيّمة على منزل (الماركيز) والجانو وكل رجال البلدة ونسائها ، وراحت رقعة الخيش تمتلئ بالقطع بالنقدية خفيفة الوزن قليلة القيمة بينما راح دون خوسيه ، وهو القدّيس الكبير ، يردد على كل عطية بصلاة فكأنه يقدم لهم الشكر :

- كرياليسون ، كرستياليسون ، كرياليسون . أبانا الذى فى السماوات . .

أما دانييل (البـوم) فكان يتشبث بقطعة نقوده ويحـشر يده في جيب بنطاله . كان يـفكر لا ارادياً في حلوى الليمون التـي سيأكلهـا في غده . ولكنه ربط فجأة بين طعم حلواه ورقدة صاحبه الأخيرة ، وبدأ يقول لنفسه أن لا حق معه إذا يريد أن يتـمتع هو بحلوى الليمون بينما صديقـه يتفسّخ في حفـرة الأرض . وبدأ يسحب قـرشه ببطء من جـيبه وهـو عازم على الالقـاء به الى رقعـة الخيش ، ولكن صـوتاً في داخله أوقفـه : « كم من الوقت ستحتاج للحصول على قـرش آخر يابوم ؟ » فألقى به ثانية في جيبه مدفوعاً بغريزة البخل البذيئـة . ثم تذكر حديثه مع (الأقرع) حول صوت الحجل عند الطيران فعاوده الألم من جديـد . وجثا ترينو على رقعة الخيش وأمسك بهـا من زواياها الأربع لحملهـا لكن دانييل (البوم) تقـدم صوب النعش ، بعد أن تخلّص من يد أوكا – أوكا الممسكة بيده قائلاً :

- انتظر .

وتوجهت إلـيه كل العيـون وتملك دانييل (البـوم) لتلك النظرات ، شعور من تتساقط عليه قطرات المطر . ولكنه لم يأبه لذلك بل شعر باعتزاز كبير كذاك الذى غـمره يوم تسلقه عصا الكوكانيا . أخرج مـن جيبه قطعة نقوده اللمـاعة المثقـوبة من وسطها وألقى بها إلى رقـعة الخيش ثم تابعـها بعينيه وهى تدرج مسافة قـبل أن تنضمّ إلى الأخريات محدثة عند ارتطامها بهن رنّة طروباً . ومع صوت دون خوسيـه القس ، وهو القدّيس الكبير ، بلغته ابتسامة (الأقرع) صادرة من قاع تابوته الأبيض المطلى بالورنيش .

- كريـاليسـون ، كرســتياليـسون ، كـرياليسـون . أبانا الذى فى السماوات . .

وبعد انتهاء دون خوسيه أنزلوا التابوت فى القبر وأهالوا عليه تراباً كثيراً . ثم راح المشيّعون يغادرون المقبرة ببطء . كان الظلام يهبط والمطر يشتد ، وقد علت أصوات نعال الناس العائدين الى البلدة يجرّونها جرّاً .

وعندما وجد دانييل (البوم) نفسه وحيداً اقترب من قبر صاحبه ، رسم علامة الصليب ثم قال :

– لقد كنت على حق يا (أقرع) ، فالحجل عند الطيران تصبح « برررر » وليس « يرررر » .

وهمّ بالانصراف لكن فكرة أخرى عادت به من جديد ، فعاود التصليب وقال :

– ومعذرة عن الزرزور .

كانت ماريوكا – أوكا فى انتظاره عند بوابة المقبرة . أخذت بيده دون أن تقول له شيئاً ، فأحسَ (البوم) برغبةشديدة بالبكاء تجتاحه من جديد ، ولكنه احتوى ألمه ودموعه فقد كان (البعرور) يسير أمامه على بعد عشر خطوات منه ويلتفت بين الحين والحين ليتحقق إن كان صاحبه يبكى .

الفصل الحادى والعشرون

راح الضوء يحف بدانييل (البوم) من دون أن يشعر هذا به ، وراحت النجوم تنمحى من قطعة السماء المحددة بإطار النافذة ، وعلى خلفية الأرض البيضاء راحت قمة جبل راندو تكتسب لوناً أخضر فى الوقت الذى راحت فيه الشحارير والبلابل وطيور أبى زريق والخضيرى تردد أنغامها الصباحية بين الأحراج. كانت الأشياء تكتسب فى المحيط حدودها ، وترسم تدريجياً أحجامها وألوانها ومقابلاتها وكان الوادى يستقبل يومه الجديد ببهجة زكية الرائحة ويفرح نباتى أخضر وكانت الروائح تشتدّ وتزداد كثافة وحضوراً فى محيط الجو الساكن الهادئ .

وانتبه دانييل (البوم) عندها الى أنه لم تغمض له عين طوال الليل والى أن حكاية الوادى القصيرة والقريبة تسطّر فى ذهنه بترف تفصيلى عجيب . ألقى بنظرة من خلال النافذة ، ثم حط بها على قمة جبل راندو الحادة الموحشة . وأحسّ لحظتها أن حيوية الوادى تتغلغل فيه كاملة غير منتظمة وأنه يهب حيويته الى الوادى فى رغبة شديدة بالانصهار وبالتداخل المتكامل الحميم . كانا متعاهدين مع بعضهما فى تطلع محموم لحماية متبادلة ، فقد كان دانييل (البوم) يدرك أن شيئين تكيّف كل منهما على طريقة الآخر ومقياسه يجب ألا يفترقا أبداً . مع ذلك فان قناعته بفراق قريب كان يقض مضجعه فيسكّن من تعب جفنيه . فبعد ساعتين ، وربما أقل ، سيقول وداعاً للوادى ، سيركب القطار ويهرب الى المدينة البعيدة ليبدأ التقدم . انه ليأسف على أن رحيله يجب أن يحدث الآن ،جيل

يتحلى الوادى بسوداوية الخريف الناعمة ، وحين يمنح كوكو ، مأمور المحطة ، برنيطة حمراء رائعة . وما أقل ما تتوافق التغييرات الكبيرة مع الحالة المعنوية الخاصة التى نعيشها .

كان ذلك الوداع يؤلم دانييل (البوم) ، وهو ما لم يشك فيه أبداً . وما ذنبه فى أن يكون عاطفياً مرهف الإحساس ؟ وما ذنبه فى أن يرتبط الوادى به على ذلك النحو الطاغى المؤلم ؟ إنه غير معني بالتقدم ، والتقدم عنده لايساوى فى الحقيقة قرشاً . تهمه ، بالمقابل ، القاطرات ، يتأملها ضئيلة من بعيد ، والبيوت البيض والحقول ومزارع الذرة المجزأة ، وبركة الإنكليزى وتيارات النهر الصاخبة المجنونة ، وملعب البولو ودقات أجراس النواقيس فى الأبرشية ، وقط (الفلفلة) ورائحة قوالب الجبن الملوثة الحامضة ، وصياغة قطعة الروث بعناية ووقار وفن ، وتهمه الزاوية الكئيبة الموحشة التى يرقد فيها وإلى الأبد صديقه جيرمان (الأقرع) ، وكذلك نقيق الضفادع الرتيب من تحت الأحجار فى الليالى الرطبة ، ونمش أوكا - أوكا وحركات أمه البطيئة وهى تقوم بأعمال المنزل ، وخضوع أسماك النهر الصغيرة واستسلامها واثقة مطمئنة ، وغيرها وغيرها من الأشياء . ولكن عليه الآن أن يترك كل هذا من أجل التقدم ، لأنه ما يزال غير مستقل ولاقادر على اتخاذ القرار ، ولان القدرة على اتخاذ القرار تتوفر للانسان عندما لايكون فى حاجة اليها ، وعندما لايستطيع أن يتخلى ، ولو ليوم واحد ، عن عربة يجرّها أو حجارة ينقّرها دون أن ينام ليلته جائعاً . فما قيمة القدرة على القرار إذاً ؟ إن الحياة لشرّ من عرف من الطغاة ، لأنها عندما تأخذ بتلابيب أحدنا فلا معنى لقدرته على اتخاذ القرار أما هو فمازال فى وضع يسمح له باتخاذ القرار ، ولكن سنواته الإحدى عشرة

تعطى الحق لأبيـه بأن يقرر نيـابة عنه. فلمـاذا ، ياالهى ، لماذا ينظم العالم على هذا النحو الردىء ؟ أما الجبّان فقد كان يشعر ، بعيداً عن حالة ولده المعنوية ، بالفخر لاتخـاذه القرار وتمكنه من تحقيقـه ، وهو ما لايقدر عليه آخـرون غيـره . لقد طاف بولده ، عـشية ذلك اليـوم ، البلدة لوداع أهلها :

– سيـذهب الولد الى المدينة غـداً ، فقـد بلغ الحادية عـشرة وحـان الوقت ليبدأ الشهادة .

وتسمّر الجبّان ينظر الى ولده فكأنه يقول له : « وماذا على الطالب ان يقول ؟ » ولكن (البوم) كان ينظر محزوناً الى الأرض ، فما كان لديه ما يقول ، وأن عليه أن يطيع وحسب .

كان جمـيع أهل البلدة يبدون عاطفة ووداً ، بل إن بعـضهم بالغ فى التعـبيـر عن ذلـك فـكأنه ارتاح كـثيراً وهو يـسمع بأن دانييـل (البوم) سيـغرب ، بعد سـاعات قليلة ، عن أنظارهم ولوقـت طويل . لقد ربت الجميع تقريباً على قفاه ، وأعربوا صراحة عن أملهم وأمانيهم الطيبة :

– لنر إن عدت الينا وقد صرت رجلاً .

– حسناً يافتى ، سـتصبح وزيراً ، وحينها سـنطلق اسمك على أحد شوارع البلدة أو على السـاحة ، وستـأتى أنت لازاحة الستـارة عن اللوحة التذكارية ثم سنأكل معا فى البلدة ، سنشرب ، يومها ، حد السكر .

وغمز له بـاكـو الحـداد بعينه بينما كـان شعره الأحمر يصـدر بريقاً لامعاً . وكـانت (الفلفلة) الكبرى واحدة من أشـد الفرحين لسمـاع خبر سفر دانييل .

- من المناسب جداً أن تؤدب وتهـذّب قليلاً ياولدى . هذه حقـيقة ، وأنت تعرف اننى صـريحة . ولنر ان كانوا سيـعلمونك فى المدينة ان ترأف بالحيوان وألا تسـير فى شوارع البلدة بجلدك وأن تنشد « الرعـاية الإلهية » على الأصول.- وتوقـفت عن الكلام ثم نادت : - كينو ، دانييل مـسافر إلى المدينة وقد جاء ليودعنا ، ونزل كينو (الأقطع)،وعندما نظر (البوم) عن كثب إلى فضلة يده تأججت فى داخله الذكريات وأحس بانقباض خانق مؤلـم فى صدره . أما كـينو فـقد شعـر هو كذلك بـالحزن لفقـدان ذلك الصديق وراح يضـرب حنكه بفضلة يده مداراة لألمه وتبسم قائلاً :

- حسنا أيها الفتى ، ومن يبـلغ ما بلغت ؟ . . . المهم . . . أكرر ما قلت . - ولم يلحـظ كينـو (الأقطع) ، الغـارق فى همـه ، أنه لم يقل شيئاً - حالفك التوفيق .

وجـادل بانجو (الملحـد) الجبّـان لارسـاله ولده الى مدرسـة يديرها الرهبان ، ولكن الجبّان لم يمنحة الفرصة لينفس عما فى قلبه :

- لقد جـئت بالولد ليودعك أنت وأهلك لا لأناقشك حـول إن كان الواجب أن يدرس على يد راهب دينى أم على يد معلم دنيوى .

وضـحك بانجـو وأطلق كلمـة بذيئـة وتمنى على دانيـيل لو أنه درس ليصبح طبـيباً ويعود الى البلدة ليأخـذ مكانا دون ريكاردو والذى عاد بليداً هرماً ، ثم توجّه بالكلام الى الجبّان وهو يضربه على كتفه :

- ما أسرع ما يمضى الوقت يافتى .

وردّ الجبّان قائلاً :

- وما فرقنا عن الآخرين ؟

وكان (البيدق) هو الآخر لطيفاً معهما ، فقال للأب ان بانتظار دانييل مستقبلاً كبيراً لو أنه انكب على الدراسة بجد ، وأضاف طالباً منهما أن يتأملا سيرته ، فقد خرج هو الآخر من العدم ، ولم يكن شيئاً مهماً ، ولكنه بكدّه واجتهاده أكمل تعليمه وتفوّق . وبلغ من الزهو بنفسه انه بدأ يلوى فمه بانفعال وتشنج ، ولما أوشك على أن يبلغ بفمه سالفته الطويلة السوداء تركاه ، مودعين ، لحركات فمه ولزهو نفسه ولاحتدام انفعالاته .

أما دون خوسيه ، وكان قديساً عظيماً ، فقد زوده بنصائح مفيدة وتمنى له نجاحات أكبر . وكان يلاحظ على القس من بعيد أنه كان متألماً لفراق الصبى . أما دانييل (البوم) فقد تذكّر موعظته يوم العذراء ، عندما قال بأن لكل شخص طريقه المرسوم فى الحياة ، وبأن الطموح والشهوات قد تحرفه عن هذا الطريق ، وأن بأمكان المتسول أن يكون أغنى من المليونير فى قصره المرمرى الذى يعج بالخدم .

وفكّر دانييل ، وهو يتذكّر ذلك ، فى أنه انحرف عن طريقه مدفوعاً بطموح أبيه ، وكظم رعشة فى داخله . ولفه الحزن عندما خطر على باله أنه قد لايجد ، لدى عودته ، دون خوسيه فى كرسى الاعتراف ، وهو يدعوه بالـ « غجرى » بل فى إحدى زوايا الأبرشية وقد تحول الى قديس ذى أكليل ومنصّة، أما جسده ، فى هذه الحالة ، فسيتفسخ الى جنب جسد جيرمان (الأقرع) فى مقبرة السروتين المجاورة للكنيسة . ونظر بإمعان الى دون خوسيه وقد أعياه الإحساس بأنه لن يراه ثانية وهو يتكلم أو وهو يحرّك عينيه الغمصاوين الحادتين أو وهو يصوبهما . وأوشك ، حين مرّا بعزبة (الأمريكى) ، أن يحزن ، وهو يفكر فى ميكا التى ستتزوج قريبا فى المدينة ، لكنه لم يشعر بالضيق لعدم تمكنه من رؤيتها ، بل بالحاجة الى مغادرة الوادى دون أن تراه وتشفق عليه وتحسبه بائسا شقياً .

أما (البـعرور) فلم يشأ أن يودعـه لأنه سيراه فى المحطة صبـاحاً .
سيعانقه بحرارة وسيراقـبه ان كان قادراً على أن يكون رجلاً حتى النهاية .
وما أكثر ما نبّهه (البعرور) الى ذلك :

– عند السفـر ، عليك ألا تبكى. فالرجل لايبـكى وإن مات أبوه فى بحر من الآلام المبرحة .

كان دانيـيل (البوم) يتـذكر بحنين ليـلته الأخيـرة فى الوادى . ولما تقلّب على سريره لمعت من جديد قمة راندو التى أضـاءتها خيوط الشمس الأولى . وارتعـشت أرنبـات أنفه إذ شـعر بـرائحة عـشب ندى وروث . وانتفض فـجأة . فالـوادى لم يستيـقظ بعد ، مع ذلك فـقد طرق سمـعه صوت آدمي . وأنصت فجاءه الصوت ثانية بعـد أن تعمد صاحبه أن يكون خافتاً :

– بوم .

وقفز مـن سريره مضطرباً ، وأطلّ على الطريق العام ، انـها أوكا – أوكا ، تقف هناك على الإسفلت حـاملة بيدها دلواً صغيراً فـارغاً . كانت عيناها تبرقان بغرابة :

–بوم . أنا ذاهبة الى كويّرا لأجلب اللبن . لن أستطيع أن أودّعك فى المحطة .

وأحسّ دانيـيل (البوم) ، وهو يسـمع صوت الطفلة الحلـو الجاد ، بنياط شيء حميم جداً فى صدره تتـقطع . كانت تحرّك دلو اللبن كالرقاص دون أن تكف عن النظـر الى (البـوم) ، وكانـــت جـدائلهـا تلمع لنور الشمس :

– الى اللقاء أوكا – أوكا – قال (البوم) وفى صوته رعشة غريبة .

- هل ستذكرنى ، بوم ؟

وأسند هذا كوعيــه على إفريز النافذة ممسكاً رأسه بيــده ، كان يخجل أن يقول لها ذلك ، ولكنها فرصته الأخيرة :

- أوكا - أوكا . لاتسمحى للفلفلة أن تزيل النمش من وجهك . هل سمعت ؟ لا أريد ان يزيلوه من وجهك .

وارتدّ عن النافذة لأنه شعر انه ســيبكى ، وهو لايريد أن تراه أوكا - اوكا وهو يبكى . وعندما بدأ بارتداء ملابسه ، غزاه احساس واضح متوقد بأنه يسلك طريقاً غير الذى قدّره له الرب . وبكى .

إيضاحات معنوية

دورو
كـوارتو
بيــــزته
= عملات إسبانية ذات أقيام بسيطة .

الحرب : يريد بها الحرب الأهلية الإسبانية التى جرت بين أعوام ١٩٣٦ ، ١٩٣٩ .

الموس : لعبة من ألعاب القمار .

ديماس الآخر : ويعرف أيضاً باللص الصالح . وقـد صلب وعلّق جسده على يمين جسد السـيد المسيح .

مودى : هى كلمة تطلق عموماً على المسلم وخصوصاً على مسلمى الشمال الأفريقى .

الأمـريكى : وهـى فى الأصل الـ indiano وهى كلمـة تطلـق على من هاجـر من الإسبان إلى المكسيك أو الى أمريكا وعاد ثرياً .

المشروع القومى للترجمة

العنوان	المؤلف	المترجم
١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ - الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣ - التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ - كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ - ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ - اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ - مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ - التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ - خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ - مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ - طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ - ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ - التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ - الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ - أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ - مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ - الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ - قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ - خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ - تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ - ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ - مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ - دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ - التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ - رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ - الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ - الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ - التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ - الرواية العربية	روجر آلن	ت . حصة إبراهيم المنيف
٣٥ - الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت . خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة — والاس مارتن — ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها — بريجيت شيفر — ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة — آلن تورين — ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد — بيتر والكوت — ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب — آن سكستون — ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية — بيتر جران — ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك — بنجامين باربر — ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج — أوكتافيو باث — ت : المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف — ألدوس هكسلى — ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور — روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين — ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب — بابلو نيرودا — ت : محمود السيد على
٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (١) — رينيه ويليك — ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية — فرانسوا دوما — ت : ماهر جويجاتى
٤٩ – الإسلام فى البلقان — هـ . ت . نوريس — ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير — جمال الدين بن الشيخ — ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية — داريو بيانويبا وخ. م بينياليستى — ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى — بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل — ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم — أ . ف . ألنجتون — ت : مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح — ج . مايكل والتون — ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم — جون بولكنجهوم — ت : على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١) — فديريكو غرسية لوركا — ت : محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢) — فديريكو غرسية لوركا — ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان — فديريكو غرسية لوركا — ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة — كارلوس مونييث — ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل — جوهانز ايتين — ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان — شارلوت سيمور – سميث — مراجعة وإشراف . محمد الجوهرى
٦٢ – لذّة النّص — رولان بارت — ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢) — رينيه ويليك — ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة) — آلان وود — ت : رمسيس عوض .
٦٥ – فى مدح الكسل ومقالات أخرى — برتراند راسل — ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية — أنطونيو جالا — ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات — فرناندو بيسوا — ت : المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى — فالنتين راسبوتين — ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين — عبد الرشيد إبراهيم — ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية — أوخينيو تشانج رودريجث — ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى — داريو فو — ت : حسين محمود

العنوان	المؤلف	المترجم
٧٢ – السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت : حسن بيومى
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥ – مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (مج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
٩٨ – الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
١٠١ – النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣ – قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : أشرف على دعدور
١٠٧ – صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدى

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي — مجموعة من النقاد — ت : محمود علي مكي
١٠٩ – حروب المياه — جون بولوك وعادل درويش — ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء في العالم النامي — حسنة بيجوم — ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة — فرانسيس هيندسون — ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ — أرلين علوي ماكليود — ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد — سادي پلانت — ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع — وول شوينكا — ت : نسيم مجلي
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده — فرچينيا وولف — ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق) — سينثيا نلسون — ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة في الإسلام — ليلى أحمد — ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية في مصر — بث بارون — ت : لميس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق — أميرة الأزهري سنبل — ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط — ليلى أبو لغد — ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية — فاطمة موسى — ت : محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
١٢٢ – نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان — جوزيف فوجت — ت : منيرة كروان
١٢٣ – الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية — نيقل الكسندر وفنادولينا — ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب — جون جراي — ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقي — سيدريك ثورپ ديڤي — ت : سمحه الخولي
١٢٦ – فعل القراءة — فولفانج إيسر — ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب — صفاء فتحي — ت : بشير السباعي
١٢٨ – الأدب المقارن — سوزان باسنيت — ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة — ماريا دولورس أسيس جاروته — ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية — أندريه جوندر فرانك — ت : شوقي جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي) — مجموعة من المؤلفين — ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة — مايك فيذرستون — ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا — طارق علي — ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة — باري ج. كيمب — ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء) — ت. س. إليوت — ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا — كينيث كونو — ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية — جوزيف ماري مواريه — ت : كاميليا صبحي
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف — إيڤلينا تاروني — ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيڤال — ريشارد ڤاچنر — ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقي الأنهار — هربرت ميسن — ت : أمل الجبوري
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية — مجموعة من المؤلفين — ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل — أ. م. فورستر — ت : حسن بيومي
١٤٣ – قضايا التنظير في البحث الاجتماعي — ديريك لايدار — ت : عدلي السمري
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة — كارلو جولدوني — ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ - موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ - الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ - التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت : منيرة كروان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ - غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ - الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ - خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٩ - الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ - آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ - من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ - تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع	جوردن مارشال	ت . مجموعة من المترجمين
١٦٤ - شامپوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ - حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت . سهير المصادفة
١٦٦ - العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ - فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ - دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ - إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ - الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ - وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ - حجر الشمس	مختارات	ت . محمد محمد الخطابى
١٧٣ - معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت أحمد محمود
١٧٥ - التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا

(تحت الطبع)

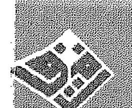
الجانب الديني للفلسفة
الولاية
مختارات من الشعر اليوناني الحديث
جان كوكتو على شاشة السينما
الأرضة
العنف والنبوءة
العمى والبصيرة (مقالات فى بلاغة النقد المعاصر)
أنطوان تشيخوف
تاريخ النقد الأدبى الحديث (الجزء الرابع)
الإسلام فى السودان
العربى فى الأدب الإسرائيلى
ضحايا التنمية
المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر
فن الرواية
ما بعد المعلومات
علم الجمالية وعلم اجتماع الفن
المهلة الأخيرة
الهيولية تصنع علماً جديداً
مختارات من النقد الأنجلو - أمريكى
النقد الأدبى الأمريكى
موت الأدب
عن الذباب والفئران والبشر
العولمة والتحرير
علم اجتماع العلوم
الكلام رأسمال
محاورات كونفوشيوس
رحلة إبراهيم بيك
قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان
شتاء ٨٤
الشعر والشاعرية
ديوان شمس
عامل المنجم
مصر أرض الوادى
الدرافيل أو الجيل الجديد
سحر مصر
أسفار العهد القديم

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٥٥٩٧ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولى (I. S. B. N. 977 - 305 - 204 - 4)





ELCAMINO

« أبنائي ، لكل منا في الواقع طريق محدّد في الحياة علينا أن نواصله دائمًا وألا نحيد عنه ... قد يفقد البعض نصيبهم الذى خصّصه الله لهم من السعادة . قد يفقدونه وهم يبحثون ، لطمع في نفوسهم ، عن طريق أسهل . والسعادة ، في الواقع ، لا تكمن في الأعلى ولا في الأكبر ولا في الأرفع ولا في الأشهر ، بل في اتفاق خطواتنا مع الطريق الذى حدّده الرب لنا على الطريق ، وإن كان ذلك الطريق سهلاً متواضعًا » .

هذا هو مفهوم « الطريق » الذى جعله الروائى الإسبانى ميغيل دليبيس (١٩٢٠) عنوانًا لروايته التى ظهرت عام ١٩٥٠ .

تعد هذه الرواية هي البداية الحقيقية لأدب ميغيل دليبيس الروائى ، وصُنّفت ضمن قائمة أفضل الروايات الإسبانية المعاصرة ، وترجمت إلى الفرنسية والألمانية والإنجليزية والبرتغالية ، وصدرت فى الولايات المتحدة الأمريكية طبعة خصصت لطلبة المدارس ، كما جرت محاولة لنقل الرواية إلى السينما . أما ميغيل دليبيس فقد صار - بعد صدور هذه الرواية - واحداً من أبرز روائيى إسبانيا المعاصرين .